الدوحة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

العدد 151 - مايو 2020

Doha Magazine @aldoha_magazine @aldoha_magazine

الأزمة الوبائية

إدغار موران

فرانسيس فوكوياما

آلان تورين

رفعة الجادرجي

رحيل ببيان فلسفيّ

الخيال الوبائي

روايات مستقبل محتمَل!

نجيب العوفي

ليست غاية الأدب أن يتنبّأ

إصدارات:

24 كتابا حول كوفيد 19

خلف النوافذ

(شهاداتٌ من الحَجْر المنزليّ)

الدوحة 151

AL-DOHA MAGAZINE

السنة 13 - العدد 151 - رمضان 1441 - مايو 2020

Year 13 - No. 151 Ramadan 1441 - May 2020

مُلتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

رئيس التحرير
فالح بن حسين الهاجري

مدير التحرير
خالد العودة الفضلي

التحرير
محسن العتيقي
نور الهدى سعودي

التنفيذ والإخراج
رشا أبوشوشة
هند البنسعيد
فلوه الهاجري

جميع المشاركات ترسل باسم رئيس التحرير عبر البريد الالكتروني للمجلة أو على قرص مدمج في حدود 1000 كلمة على العنوان الآتي:
ص.ب.: 22404 - الدوحة - قطر

البريد الإلكتروني:
editor-mag@mcs.gov.qa
aldoha_magazine@yahoo.com
تليفون : 44022295 (974+)
فاكس : 44022690 (974+)

المواد المنشورة في المجلة تُعبِّر عن آراء كتّابها ولا تُعبر بالضرورة عن رأي الوزارة أو المجلة. ولا تلتزم المجلة برد أصول ما لا تنشره.

التفاعُل المُجتمعيّ مع الجَائِحة

في الوقت الذي لا تُبشر فيه تقارير منظَّمة الصِّحة العالميّة بالسيطرةِ على انتشار الوباء في المدى القريب، تستمر جائحة (كوفيد - 19) في تهديد عالمنا الذي لم تكن تنقصه الآفات. فتوقيف مجالات الحياة المُعاصِرة وشلّ بنياتها الحيويّة على جميع الأصعدة، يجعلنا أمام صورة يكاد يكون فيها العالم وكأنه بصدد إعادة كلّ شيء إلى نقطة الصفر تقريباً، حالة توجّه أنظارنا جميعاً إلى أسئلة لطالما أصبحت في اعتبار العديد منا شعاراتٍ مثاليّة لا تناسب الحياة المُعاصِرة التي يتهافت الناس داخلها بكلّ ما يملكون من مظاهر وشكليّات، واليوم لا أحد يفلت في خلوته وتأمله من أسئلةٍ تتعلّق بهشاشة الحياة على هذه البسيطة. لقد ألزمنا الحَجْر المنزلي العودة إلى البيت، إلى الأسرة، وإلى الحديقة المنزليّة. ألزمنا في محصلة الأمور الركون إلى بؤرة البناء المُجتمعيّ، وهي عودة تُختبر فيها قوة كلّ خليّة مجتمعيّة صغيرة، من حيث تماسكها وتلاحمها الوجداني والقيمي. ولأنها تجربة كونية فلا شكّ أنها ستترك أثراً تترتَّب عنه مراجعة القناعات والنقد الذاتي على المستوى الفرديّ.

أما على المستوى الجماعيّ، والذي يمتدُّ ليشمل العالم والمصير المُشترك للبشريّة جمعاء، فإن هذا الوباء الفاصل بين تاريخ وآخر، لا شكّ أنه سيمنح المسؤولين والمُفكِّرين والمُثقَّفين ومختبرات البحث العلميّ فرصةً لمساءلةٍ شاملةٍ ومصيريّة يتمُّ من خلالها مراجعة النظام العالميّ واختياراته الاقتصاديّة والسياسيّة، ومن ثَمَّ التعبئة لإحداث طفرة حضاريّة عظيمة وشق مسار كوني جديد يقلب مجريات التاريخ البشريّ اقتصاديّاً وسياسيّاً وثقافيّاً رأساً على عقب. طفرة تنقذ العالم من هاوية طالما حذَّرنا الحكماء من الوقوع فيها، لكن لا أحد كان ينصت إلى أصواتهم، وواقع الحال يقول بأن صوت العلم والثقافة حاسم في إنتاج وسائل وبدائل مادية، وإنتاج فكرٍ نقديٍّ من شأنه درء التهديد كيفما كان، وبالنتيجة إنه صوتُ الحفاظ على الحياةِ بالدرجةِ الأولى.

المتابع للعديد من الحوارات والآراء المُتواصلة، يلاحظ بأن القناعات متفرِّقة بين التفسير بنظريّة المُؤامرة، وبين مَنْ يقرُّ بحتمية الطبيعة... من أعلى هرم الفكر والثقافة إلى التحليل السياسيّ الظرفي، تجد الطرفين على خلاف في تفسير الجَائِحة. ما يهمنا بشكلٍ مباشر وأفقي، قناعة عامة الناس التي تتكيَّف وتترسّخ وفق ما تتلقاه من وسائل الإعلام، وعلى إثر ذلك تتفاعل سلباً أو إيجاباً في إنتاج الرأي العام الحاسم أيضاً في تشكيل وعي الناس وسلوكهم تجاه ما يحدث من حولهم.

فأمام واقعِ الجَائِحة التي لا نختلف في كونها قد تُحدِث قطيعةً شاملةً، وهي الآن تكلِّف ثمناً باهظاً من الأرواح والمكتسبات التنمويّة... فإن تصديق الإشاعة من دون وعي وإعادة نشرها كذلك، هو ردّ فعل لمواطن سلبي يساهم من دون قصد، وإنما لجهله أو لعدم تنويره ثقافيّاً، في المسِّ بالأمن العام وبمؤسَّساته، في الوقت الذي تتطلَّب فيه الأزمة تكاتف الجميع في سبيل الحفاظ على الأبدان والحياة المُشتركة، وأول مبادئ هذا التكاتف هو الالتزام بالواجب الوطنيّ بالتكييف الثقافيّ لعاداتنا وأنماط استهلاكنا وتواصلنا بعيداً عن أي جدل، هو من باب تحصيل حاصل، مردّه قناعات لا يضر تأجيل النقاش فيها إلى ما بعد الجَائِحة، حيث تكون البشريّة قد شقت طريقاً جديداً يتبيَّن فيه الضوء من العتمة..

ومن منطلق واجبنا في تنوير القارئ العام، وإشراكه في المُواكبة العلميّة والثقافيّة للوباء، وإحاطته بمرجعيّات مختلفة تساعده في بناء رأيه الخاص مستوعباً ما يدور حوله من جدالٍ في الموضوع، خصَّصنا في هذا العدد من مجلة «الدوحة»، كما في العدد السابق، قضايا، وتقارير، ومقالات، تنقل ما استجدَّ من آراء ومواقف فكريّة حول تأثيرات فيروس كورونا على أكثر من صعيد يمسُّ مستقبلنا الإنسانيّ..

وكلّ عامٍ والجميع بخير وطمأنينة بمناسبة شهر رمضان المُبارك.

رئيس التحرير

الدوحة

ثقافية شهرية

العدد 151

السنة الثالثة عشرة - العدد مئة وواحد وخمسون
رمضان 1441 - مايو 2020

تصدر عن:
إدارة الإصدارات والترجمة
وزارة الثقافة والرياضة
الدوحة - قطر

صدر العدد الأول في نوفمبر 1969، وفي يناير 1976 أخذت توجهها العربي واستمرت في الصدور حتى يناير عام 1986 لتستأنف الصدور مجدداً في نوفمبر 2007.

الاشتراكات السنوية

داخل دولة قطر

الأفراد	120 ريالاً
الدوائر الرسمية	240 ريالاً

خارج دولة قطر

دول الخليج العربي	300 ريال
باقي الدول العربية	300 ريال
دول الاتحاد الأوروبي	75 يورو
أمريكا	100 دولار
كندا وأستراليا	150 دولاراً

التوزيع والاشتراكات

تليفون : 44022295 (974+)
فاكس : 44022690 (974+)

البريد الإلكتروني:
distribution-mag@mcs.gov.qa
doha.distribution@yahoo.com

الشؤون المالية والإدارية

finance-mag@mcs.gov.qa

ترسل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالريال القطري باسم وزارة الثقافة والرياضة على عنوان المجلة.

مواقع التواصل

@aldoha_magazine
Doha Magazine
aldoha_magazine

الموزعون

وكيل التوزيع في دولة قطر:

دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - الدوحة - ت: 44557810 فاكس: 44557819

وكلاء التوزيع في الخارج:

سلطنة عُمان - مؤسسة عُمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلان - مسقط - ت: 009682493356 - فاكس: 009682464937/ الجمهورية اللبنانية - مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع - بيروت - ت: 009611666668 - فاكس: 009611653260/ جمهورية مصر العربية - مؤسسة الأهرام - القاهرة - ت: 002027704365 - فاكس 002027703196/ المملكة المغربية - الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة، سبريس - الدار البيضاء - ت: 00212522249200 - فاكس:00212522249214

الأسعار

دولة قطر	10 ريالات	المملكة المغربية	15 درهماً
سلطنة عمان	800 بيسة	الجمهورية اللبنانية	3000 ليرة
جمهورية مصر العربية	10 جنيهات		

الغلاف:

| تقارير | قضايا

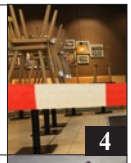
4
اقتصاد ما بعد كورونا
هل سينطلق من الصفر؟!
(جمال الموساوي)

8
عالم الكتاب
المُستقبل المجهول
(ألكسندرا ألتر - ت: مروى بن مسعود)

10
صحوة الذكاء الجماعيّ العالميّ
الرؤية من على أكتاف العمالقة!
(مارك سانتوليني)

12
مجتمع الإرهاق
البيانات الضخمة تنقذ الأرواح
(بيونغ تشول هان)

26
ألان تورين:
نعيش في عالم بدون فاعلين
(ترجمة: محمد مروان)

28
فوكوياما:
سنعود إلى ليبرالية (1950 - 1960)
(ترجمة: عثمان عثمانية)

30
إيمانويل كوكيا
«الفيروس قوة فوضويّة للتحوُّل»
(حوار: أوكتاف ماثرون - ت: م. م)

مقالات

في ظلال كوفيد.. حق «الحياة العارية»
(فخري صالح)

كي لا نصدّق أنّ المُستقبل وراءنا
(آدم فتحي)

الهلع وتوقُّع الكارثة
(فيصل درّاج)

كورونا في مُواجهة الأكثر فُتوّة
(محمد برادة)

تصاريف الزمن الماكرة وفلسفة المصادفة
(صبري حافظ)

83-60

(سعدية مفرح)
(عدنية شبلي)
(هدى حمد)
(علوية صبح)
(نورة محمد فرج)
(عبد العزيز بركة ساكن)
(محمد الغزي)
(أحمد الخميسي)
(محمد الرميحي)

خلف النوافذ
(شهاداتٌ من الحَجْر المنزليّ)

الطبيعة تتربَّص بالحداثة المُتعجرِفة! (إنريكي دوسيل - تـ: البشير عبدالسلام) 14
العُزلة الاجتماعيّة.. وجهٌ آخر للموت (بينتا لوبان ولياندا فيشر - تـ : شيرين ماهر) 16
إصدارات واكبت الجائحة (مراسلون) 34
الخيال «الوبائي» روايات لمستقبل بشري محتمل (رشيد الأشقر) 40
هل يمكن للكُتَّاب أن يُغيّروا العالَم؟ (أليكسندر جيفن - تـ: أسماء كريم) 42
نجيب العوفي: ليست غاية الأدب أن يتنبّأ (حوار: محمد عبد الصمد الإدريسي) 44
فنسان جوف «سلطات التخييل: لماذا نحبّ الحكايات؟» (شوقي بن حسن) 50
راهن الروايّة العربية والمستوى الفني المأمول (نادية هناوي) 56
جورجيو دي كيريكو.. شاعريّة الخواء (أثير محمد علي) 94
غابرييل غارسيا ماركيز.. الرحلة الكاملة (لانس ريتشاردسون - تـ: عبدالله بن محمد) 98
«المنصة».. فيلمٌ يليقُ بزمنِ الكورونا (أمجد جمال) 100
الأندلس في المخيال الجماعيّ الإسبانيّ.. تحوُّلات في سياقات دوليّة (أسامة الزكاري) 102
طاعون مرسيليا.. حيث تذهب البضائع يتبعُها الوباء (طارق فراج) 104
مالك بن نبي.. مَنْ يدفع عجلة الإنقاذ؟ (حاج محمّد الحبيب) 108
فيليب هونمان: لماذا؟ سؤال لاكتشاف العالم (فيصل أبو الطُّفَيْل) 110

إدغار موران:
علينا أنْ نتعوَّد على العيشِ باللايقين
(حوار: فرانسيس لوكونت - تـ: عبداللطيف القرشي) 21

العولمة تشابك يفتقد للتضامن
(حوار: ديفيد لو بايلي وسيلفان كوراج - تـ : ع. م) 25

48
لوكليزيو:
لا أحنُّ إلى الماضي
(حوار: إيزابيل سباك - تـ: معاذ جمرادي)

53
في رحيل الشاعر (مبارك العامري)
ناي الروح
(إبراهيم سعيد)

58
دينو بوتزاتي
كـارثـة
(تـ: أحمد شافعي)

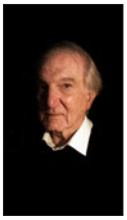

90
رفعة الجادرجي
بيان فلسفيّ للعمارة العربيّة
(بنيونس عميروش)

اقتصاد ما بعد كورونا

هل سينطلق من الصفر؟!

يطلق كثيرٌ من المُحللين الاقتصاديّين والمُتتبعين لمستجدات الأحداث الدوليّة مقارنات بين ما يحدث منذ بداية السنة الجارية 2020 والأزمات الاقتصاديّة التي عرفها العالمِ على الأقلّ منذ أزمة 1929 التي مهَّدت للحرب العالميّة الثانية، وما تمخَّض عنها بعد نهايتها، وصولاً إلى الأزمة الماليّة لسنة 2008. والواقع أنه من الصعب إيجاد مداخل للمُقارنة بين أزمة كورونا وتداعياتها وأيٍّ من سابقاتها. هذا الاستنتاج لا يحتاج إلى ما يُستدل بهِ لتأكيدهِ. إن الأمر لا يتعلّق بتوترات عالميّة بين الدول أدت إلى اندلاع حرب، ولا بحروب الشرق الأوسط وسلاح النفط، كما لا يتعلّق بأزمة عقارات أو هبوط أسهم، أو بمضاربات أدَّت إلى سحب الأموال من بلدانٍ وضخها في أخرى. اليوم الأزمة مختلفة في أسبابها، وبالتأكيد في نتائجها وتداعياتها.

لقد نسي العالم، أو بالأحرى تناسى، أن محاولات الخروج من أزمة 2008، تسبّبت في اندلاع حرب تجاريّة بين الصين والولايات المتحدة، باتهام الأخيرة للأولى بعدم احترام قواعد السوق في التجارة الدوليّة، وباتهام العالم لأميركا ترامب بالتراجع عن التزاماتها، سواء بالنسبة للعديد من القضايا التجاريّة أم للتغيُّرات المناخيّة، وبالعمل الحثيث على العودة إلى إرساء الإجراءات الحمائية التي تمَّ رفعها في إطار منظَّمة التجارة العالميّة، حيث صارت الصين، كما اتضح في الدورات الأخيرة لمنتدى دافوس الاقتصاديّ مثلاً، هي المدافع الأكبر عن حرّيّة التجارة الدوليّة وتنقل الأموال. ولم تعد التوترات الإقليميّة واللاجئون والعقوبات على إيران تحتلّ عناوين الأخبار الدوليّة. وأوقف الأوروبيّون التفكير في ما بعد خروج بريطانيا، وما إذا كان هذا الحدث إيذاناً بتفكك الاتحاد الأوروبيّ وخروج أعضاء آخرين في السنوات المقبلة، كما لم يعد يهمّهم نقاشُ اليسار واليمين وصعود اليمين المُتطرّف. لكلّ هذا من غير الممكن التفكير في ما بعد الأزمة بالمنطق نفسه بالنسبة للأزمات السابقة. الآنَ ثمَّة مفارقةٌ لم يعرفها العالم المُعاصِرُ في أي فترةٍ من الفتراتِ، يتمثلُ قطباها، أولاً في وجود تحالفٍ غير معلنٍ وحيدٍ بينَ الشرقِ والغربِ، بين الدول التي تناحرتْ طويلاً بسبب خلافات سياسيّة مختلفة أو تجاريّة، كما كان عليه الأمر منذ وصول دونالد ترامب إلى البيت الأبيض، وبينَ الأحزابِ التي تخوض نزالاتٍ شرسة من أجل الفوز بالناخبين والمناصب والسُّلطة والأمثلة على ذلك عديدة في أميركا وأوروبا وفي البرازيل إبان الانتخابات التي أتت بجايير بولسونارو اليميني إلى الحكم؛ وثانياً في أن آفاق هذا التحالف من أجل محاربة الجَائِحة التي جفَّفت حتى المنابع التي كان يعوَّلُ عليها لتعافي الاقتصاد العالميّ من أزمة 2008، تبدو غائمةً إلى حدٍّ بعيدٍ في ظلِّ استمرار الوباء والتوقعات المُتشائمة بشأن تراجعه قريباً، وهو ما يمكن قراءته مثلاً نقلاً عن صندوق النقد الدوليّ في آخر تقاريره حول آفاق الاقتصاد العالمي لسنة 2020 عندما يقول إن هذه الأزمة غير مسبوقة، وأنه في ظلِّ الإجراءات المُتخَذة يصعب تحفيز الأنشطة الاقتصاديّة خاصة منها الأكثر تضرراً، وبالتالي من المُحتمَل جداً أن يسجل الاقتصاد أسوأ تراجع لهُ مقارنةً مع ما شهده خلال السنوات التي تلت أزمة 1929، وأيضا خلال السنوات العشر الأخيرة منذ الأزمة المالية لسنة 2008.

وإذا كان ثمّة من وصفٍ تقريبيّ يُستنتجُ مما سبق حول الوضعية الراهنة للاقتصاد العالميّ، فهو أنه سينطلق من الصفرِ، أو يكاد، بعد انقشاع الأزمة. فقد تعقَّدت حالة المُبادلات التجاريّة الدوليّة إلى الحدِّ الذي بدت معه المُنظمة العالميّة للتجارة غير قادرة على تحديد نسبة تقريبيّة لتراجعها خلال السنة الجارية. وتظهر هذه الحيرة في الفرق الكبير بين الحدِّ الأدنى (13 في المئة) والحدِّ الأقصى (32 في المئة) المُتوقَّع من خبرائها لهذا التراجع مقارنةً مع سنة 2019. وعلى خلاف النبرة التي لاذ بها خبراء صندوق النقد الدوليّ للتعبير عن بصيص من التفاؤل بالإشارة إلى أنه من المُحتمَل تسجيل انتعاش في الاقتصاد العالمي بدايةً من 2021 إذا قدَّمت الحكومات

في ظلِّ الإجراءات المُتخَذة يصعب تحفيز الأنشطة الاقتصاديّة خاصة منها الأكثر تضرراً، وبالتالي من المُحتمَل جداً أن يسجل الاقتصاد أسوأ تراجع لهُ مقارنةً مع ما شهده خلال السنوات التي تلت أزمة 1929، وأيضا خلال السنوات العشر الأخيرة منذ الأزمة المالية لسنة 2008

دعماً سياسيّاً لاقتصاداتها، فإن المنظمة العالميّة للتجارة التي قال مديرها عن نسب التراجع المُتوقعة بأنها «أرقام مخيفة»، لا ترى ما يراه الصندوق، مستندةً إلى الواقع الناتج عن أزمة 2008، التي لم يتعافَ منها الاقتصاد العالميّ حتى الآن بالرغم من أنها أزمة لا تصل في خطورتها إلى أزمة كورونا.

إن المُبادلات التجاريّة لا تعدو مجرَّد مثالٍ وصورة للمجالات الاقتصاديّة والماليّة الأخرى، التي دمَّرها الوباء، وهي نفسها مرآة لحجم الإنتاج الذي يوجد في أدنى مستوياته بسبب الحَجْر المفروض على ما يقارب نصف سكّان الأرض، أغلبهم في الدول الصناعيّة الكبرى بما فيها الصين، ولحجم الاستثمارات الأجنبيّة المُباشرة التي كانت تنشط الإنتاج وسوق الشغل، وتمتص البطالة، وتغذّي بالتالي الطلب الداخلي والاستهلاك في الكثير من الدول الناشئة والفقيرة، دون الحديث عن دورها في رفع دينامية الاقتصاد في الدول الكبرى. فهذه الاستثمارات من المُتوقّع أن تشهد تراجعاً حاداً هذه السنة، حسب نشرة مارس/آذار 2020 لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (أونكتاد)، يتراوح بين 5 و15 في المئة، خاصّة أن شركات عالميّة كبرى لها أنشطة عبر العالم أعلنت عن تأثرٍ كبيرٍ، وعن تراجعٍ غير مسبوقٍ لأرباحها، وأنها مضطرة لتقليص نفقاتها. انطلاقاً من ذلك، يمكن الحكم على توقعات صندوق النقد الدوليّ بانكماش الاقتصاد العالميّ خلال السنة الحالية بنسبة 3 في المئة بأنها متفائلة، أو على الأقل تنأى ما أمكن عن الحديث عن احتمال حدوث كسادٍ حقيقيّ علما أن أسبابه قائمة، وباتت منظوراً إليها بوضوح ربَّما أكثر من أي وقتٍ سابق (بطالة مرتفعة مقرونةً بضعفٍ كبيرٍ في القدرة الشرائيّة، تراجع الموجودات، انخفاض الإنتاج وتقلصٌ قد تصل نسبته إلى الثلث في التجارة الدوليّة). ولأن الأزمة شاملة لم تستثنِ أي بلد، وإنْ بشكلٍ متفاوت، فإن محفزات الانتعاشِ سيكون مفعولها بطيئاً في أفضل الأحوال. فوفقاً للمُعطيات الواردة في نشرة الأونكتاد المذكورة، كلّ القطاعات الصناعيّة والطاقيّة والتجاريّة والخدماتيّة لم تسلم من آثار الجَائِحة، خاصّة أن عدداً من الدول الكبرى والناشئة على حدٍّ سواء اتخذت إجراءات صارمة لمواجهة الوباء عطّلت بشكلٍ كامل تقريباً الحركة الاقتصاديّة داخليّاً وخارجيّاً. وهي المعطيات التي دعمتها لجنة التنمية للبنك الدوليّ بعد اجتماعها منتصف أبريل/ نيسان الماضي بالتأكيد على أن «الجَائِحة تسبّبت في تعطيل التجارة، وسلاسل التوريد، وتدفُّق الاستثمارات. وأن رأس المال البشريّ غير مستغل، بينما تناقصت بسرعة التحويلات المالية للمُغتربين، وعائدات النقل، والسياحة، بالإضافة إلى انهيار أسعار المواد الأوليّة».

إنّ إجماع هذه المؤسَّسات الماليّة والاقتصاديّة الدوليّة، بالإضافة إلى التحالف العالميّ غير المُعلن، بالرغم من الاتهامات المُتبادلة- أحياناً- بصنع الفيروس وبقرصنة المواد الصِّحيّة المُوجَّهة لهذا البلد أو ذاك- أحياناً أخرى- وغير ذلك، يعني أن لا أحد يملك الإجابةَ عن سؤال المُستقبل، سواء في المدى القصير أم المُتوسط ناهيك عن المدى الطويل.

بيد أن قراءة في التصرُّفات والإجراءات التي تمَّ التعامل بها مع الوباءِ، من شأنها أن تقدِّم صورة مركَّبة مُحتمَلة لما ستكون عليه التوجُّهات الاقتصاديّة لعالم ما بعد الجائحة التي يمكن اعتبارها منعطفاً في ما يتعلَّق بإعادة ترتيب الأولويات ليس الاقتصاديّة فحسب، بل الاجتماعيّة أيضاً، وهو ما يحتم القيام بإصلاحات سياسيّة عميقة ملاءمة بإمكانها مواجهة الأزمات المُحتمَلة في المستقبل بفعالية ونجاعة أكثر.

في هذا السياق، يمكن التمثيل بالوضع في القارة الإفريقيّة التي اعتبرها محللون ومؤسَّسات دوليّة، خاصّة مع توالي الاضطرابات على الاقتصاد العالميّ، قارة الأمل بالنظر إلى نسب النمو المُتواصلة خلال العقدين

الأخيرين. ذلك أن التوقُّعات تبدو سيئةً، لأن هذا النمو ظلَّ مرتبطاً بشكلٍ كبير بالشركاء الأساسيّين للدول الإفريقيّة خاصّة الصين التي كسبت مواقع متقدِّمة على حساب الشركاء التقليديّين الأوروبيّين والولايات المتحدة، وبعد هذه السنوات «الزاهرة» التي لم تتأثر كثيراً بتداعيات أزمة 2008، يتوقّع البنك الدوليّ تسجيل نسبة نمو سلبية تتراوح بين ناقص 2.1 في المئة وناقص 5.1 في المئة في بالنسبة للدول الإفريقيّة جنوب الصحراء، معللاً ذلك بانخفاض أسعار المواد الأوليّة وتراجع السياحة، يُضاف إليهما غلق منافذ التصدير وتوقُّف تدفُّق الاستثمارات.

إنّ هذه الوضعيّة يمكن تعميمها لتشمل أغلب البلدان النامية والفقيرة أو الغنيّة بالمواد الأوليّة الأساسيّة، والتي تحتاج ديناميّة الاقتصاد فيها إلى مُحفزات خارجيّة، سواء تعلَّق الأمر بالاستيراد والتصدير أم بتحويلات المُهاجرين والاستثمارات الخارجيّة، أم كذلك بالمساعدات والقروض المُوجَّهة لمشاريع تهمُّ التنمية البشريّة أو إنعاش القطاعات الحيويّة. إن هذه الهزة غير المسبوقة تفرض على هذه الدول إعادة النظر أولاً في نماذجها الاقتصاديّة باتجاه الحدِّ من تبعيتها الاختياريّة بحكم المُوارد المُتوفرة والتي تتحكَّم في توجيه سياسات هذه الدول في مجال الاقتصاد، أو المفروضة بحكم موازين القوى الدوليّة، وبحكم ظروف تاريخيّة كالاستعمار مثلاً، وتحويل هذه التبعية إلى علاقات تأخذ في الاعتبار المصالح الوطنية تماماً كما تقوم بذلك الدول القويّة الغنيّة.

لقد أدت الظرفيّة المُفاجئة التي فرضها الوباءُ، كما سبق الذكر، إلى صعودٍ مفاجئ أيضاً لروح جماعيّة على مستوى العالم، والتفكير بشكلٍ مشترك في الحلول، بالرغم ممّا يطفو إلى سطح الأحداث من ممارساتٍ (أنانية) من قِبَل دول كبرى أحياناً تجعل كلّ ذلك في مهب شكوك كثيرة بشأن المستقبل. إلّا أن الأمر قد يتجاوز الشكوك ليصبح حقيقة. فإذا كان طبيعيّاً وعادياً أن تتضرَّر الدول الفقيرة فإنّ كثيراً من الدول العظمى تبدو ضعيفة أمام أزمة مثل الأزمة الراهنة، يتداخل فيها الاقتصاديّ بضرورة المحافظة على الحياة البشريّة، توفير الغذاء بتأمين المُستلزمات الصِّحيّة، وفي ذلكَ لم ينفعها ما أنفقته من جهدٍ ماليّ وسياسيّ، وأحياناً عسكريّ للاستحواذ على الأسواق الاستهلاكيّة أو الاستثماريّة في العالم، وهذا قد يدفع الولايات المتحدة مثلاً إلى المزيد من «أميركا أولاً» ولو بدون ترامب، والعديدَ من دول الاتحاد الأوروبيّ إلى إعادة الاعتبار لسيادتها ولقرارها الوطنيّين اقتصاديّاً وسياسيّاً، خاصّة أن المؤسَّسات الأوروبيّة لم تقدّم ما يكفي من الدعم لأعضائها.

إنّ العالم يُعاد تشكيله وفق معايير جديدةٍ، لم تفرضها قوة عسكريّة ولا يد لأحد فيها بشكلٍ مباشرٍ، على الأقلّ حتى الآن، ومن غير المُستبعد أن نشهد عودةً بشكلٍ مرنٍ إلى بعض المبادئ التي قامت عليها الأممُ من سيادة وطنيّة وإجراءات لحماية ودعم الاقتصاد، والانفتاح المدروس على الخارج بما لا يؤثِّر على المصالح الوطنيّة الحيويّة، ولعلّ بوادر المرحلة المُقبلة بدأت فعلاً بفرض بعض المعايير المُقيِّدة للاستثمارات الأجنبيّة في دول الاتحاد الأوروبيّ، والدعوات إلى الحفاظ على المحاصيل الزراعيّة ومخزونات الأدوية، بالإضافة إلى ما كان دونالد ترامب قد شرع في تنفيذه قبل ظهور الوباء من إجراءات حمائيّة، كما أن الدعم المُقرر للمقاولات قد يستمر لوقتٍ طويل لمُواجهة المُنافسة الخارجيّة عند الاقتضاء. فهل يكون ما يحدث إيذاناً بنهاية مرحلة من العولمة الشاملةِ؟ ■ **جمال الموساوي**

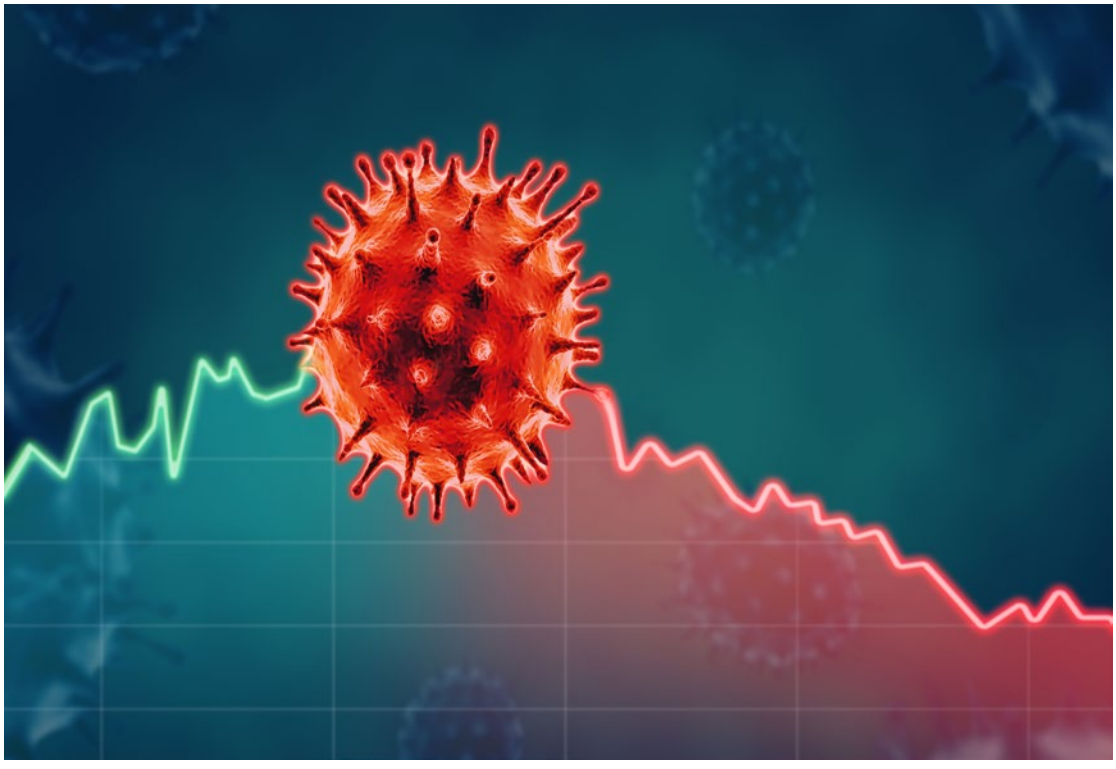

من غير المُستبعد أن نشهد عودةً بشكلٍ مرنٍ إلى بعض المبادئ التي قامت عليها الأممُ من سيادة وطنيّة وإجراءات لحماية ودعم الاقتصاد، والانفتاح المدروس على الخارج بما لا يؤثِّر على المصالح الوطنيّة الحيويّة

Jess Rodrigues (Espagne) shutterstock

بين إلغاء وإغلاق

عالم الكتاب والمُستقبل المجهول

يكافحُ عددٌ لا يُحصى من الناشرين والمكتبات والمُؤلِّفين لمواجهة الصعوبات الناجِمة عن تراجع العائدات بعد إلغاء جولات الكتب والمعارض وإغلاق المتاجر بسبب جائحة كورونا المتصاعدة، ويطوِّرون أفكاراً للحدِّ من انعكاساتها.

في هذه الأوقات المعزولة، كثيرٌ من الناس يشغلون أنفسهم بالقراءة، ولكن تجارة الكتاب، مثل غيرها، قد تأثَّرت بالكارثة. تمّ إلغاء المهرجانات الأدبيّة والمعارض حول العالم، وأغلقت المكتبات العامّة، وأجّلت لموعدٍ غير معلوم جولات المُؤلِّفين والتوقيعات وعروض المكتبات.

ومع استمرار تفشي الفيروس، يكافح المُؤلِّفون والناشرون وبائعو الكتب لمواجهة العواقب المالية والحدِّ منها. يخشى الكثيرون من أن الأسوأ لم يأتِ بعد، بما في ذلك المزيد من قرارات إغلاق المتاجر وتعطُّل محتمل في المستودعات ومراكز التوزيع، بالإضافة إلى نقص الورق المُحتمل وتراجع في قدرة الطباعة.

وقال دنيس جونسون، الناشر المُشارك لصحيفة ميلفيل هاوس المُستقلّة ومقرّها بروكلين، والتي طالبت الموظفين بالعمل من منازلهم: «ليس هناك شكٌّ في أننا سنشهد انخفاضاً في المبيعات. إنه وضعٌ غير مسبوق. لا أحد يعرف ما يجب فعله باستثناء تخزين معقمات اليدين».

هذا الأسبوع ألغى مهرجان سيدني للكتاب، الذي يستقطب عادةً 80.000 شخص، وكان من المُقرر أن ينطلق في 27 أبريل/نيسان، بعد إلغاء معارض الكتب الكبرى في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. وفي الولايات المتحدة، كان مهرجان لوس أنجلوس تايمز للكتب، ومهرجان توكسون للكتب، ومهرجان فرجينيا للكتاب ومهرجان «بليفر» في لاس فيغاس من بين العديد من الأحداث المُؤجّلة، بعد أن كانت تستقطب عشرات الآلاف من القُرَّاء ويمكن أن تكون فرصة كبيرة لتنشيط مبيعات المُؤلِّفين والناشرين. مؤخَّراً، أعلنت جمعية «PEN America» أنها ستلغي مهرجان «الأصوات العالمية»، المُقرر في أوائل مايو/أيار في نيويورك، وكان من المنتظر أن يستضيف كُتَّاباً كباراً على غرار مارغريت أتوود، وزادي سميث، وجيني سليت، وأليف شفق وآخرين.

لكن لم يحسم بعد في معرض «BookExpo» السنوي، والذي يعدُّ موعداً مُهمّاً للناشرين وبائعي الكتب وأمناء المكتبات، المُقرر عقده في نهاية شهر مايو/أيار في مركز «Jacob K. Javits» في نيويورك. وقال مدير المعرض في بيان على موقعه على الإنترنت «ما زلنا متفائلين بأننا نستطيع اتخاذ الإجراءات المناسبة لنرى أنفسنا هناك بحلول نهاية مايو/أيار ونستمر كما هو مخطّط». «ومع ذلك، سنواصل اتباع المبادئ التوجيهية والاحتياطات التي اقترحتها مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها».

إن الآثار الطويلة الأمد المُحتملة على تجّار التجزئة للكتاب أمرٌ واقع إلى حدٍّ بعيد. يشعر العديد من العاملين في الصناعة بالقلق من أن المكتبات المُستقلّة ستنهار حيث تفرض السُّلطات المحلّية والعالمية التباعد الاجتماعيّ وأرغمت بعض الشركات على الإغلاق مؤقتاً. وقال ميتشل كابلان، مؤسس شركة «Books & Books»، وهي سلسلة مستقلّة في جنوب فلوريدا، إن المبيعات انخفضت في متاجر ومقاهي الشركة، بالتزامن مع إلغاء ظهور المُؤلِّفين. وأضاف «المُفارقة في كلّ هذا أن دور المكتبات مهمٌّ للغاية، من خلال قدرتها على التجميع والحضور، لكنه أصبح أكبر عائق لنا».

وقد تفشت أزمة الصِّحة العامّة وما نجم عنها من تداعيات اقتصاديّة في فترة من الهدوء والقوة النسبيين لصناعة النشر، وبعد فترة انتعشت فيها المتاجر المُستقلّة، واستقرّت مبيعات المطبوعات وارتفعت مبيعات الكتب المسموعة والرَّقميّة. في عام 2019، ارتفع إجمالي المبيعات في جميع الفئات بنسبة 1.8 في المئة مقارنةً بعام 2018، ليصل إلى 14.8 مليار دولار، وفقًا لجمعية الناشرين الأميركيين. لكن الآن، من المُرجّح خسارة هذه المكاسب، حيث يواجه بائعو الكتب مستقبلاً اقتصاديّاً غامضاً.

وقد استجاب عدد متزايد من بائعي الكتب المُستقلّين لأزمة الصِّحة العامّة، فأغلقوا متاجرهم وطلبوا من موظفيهم ملازمة منازلهم. في نهاية الشهر الماضي، أعلنت مكتبة «ستراند» أنها ستغلق متجرها الرئيسي في مانهاتن وأكشاكها في أماكن أخرى حول المدينة. وأعلنت إميلي باو، المالك والرئيس التنفيذي لمتجر «باول» في بورتلاند، أوريغون، أنها ستغلق فروعه الخمسة حتى نهاية مارس/آذار على الأقلّ.

وبدأ بعض باعة الكتب المُستقلّين، بمَنْ في ذلك «باول»، في خفض عدد المُوظفين بالفعل. وشرعت السلسلة المذكورة في تسريح العُمَّال غير الطوعي بعد تحديد الحدّ الأدنى لعدد المُوظفين المطلوب للحفاظ على عمل المتجر عبر الإنترنت. وقال ممثِّل النقابة المحلّية التي تمثِّل 400 من عمّال المتجر إن حوالي 85 في المئة منهم قد تأثَّروا بالفعل

ألغي مهرجان سيدني للكتاب، بعد إلغاء معارض الكتب الكبرى في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. وفي الولايات المتحدة، كان مهرجان لوس أنجلوس تايمز للكتب، ومهرجان توكسون للكتب، ومهرجان فرجينيا للكتاب ومهرجان «بليفر» في لاس فيغاس من بين العديد من الأحداث المُؤجّلة

بعمليات التسريح المُؤقَّت، وبأن الشركة لمّحت إلى إمكانية تسريح العُمَّال بشكلٍ دائم في وقتٍ لاحق.

وسمحت «McNally Jackson»، السلسلة المُستقلّة في نيويورك، لعددٍ كبير من موظفيها بالمغادرة بعد أن قرَّرت إغلاق متاجرها في الوقت الحالي. وعلى موقعها على تويتر، قالت الشركة إنها سرَّحت مؤقّتاً العديد من موظفيها في الوقت الذي «تواجه فيه خسارة كبيرة وغير مسبوقة في الإيرادات»، لكنها ترغب في «إعادة توظيفهم في أقرب وقتٍ ممكن». وتكتفي أثناء فترة الإغلاق بقبول الطلبات الهاتفية وعبر الإنترنت، والقيام بعمليات التسليم.

وبشكلٍ مماثل، تسعى المكتبات الأخرى، التي غالباً ما تشكِّل عصب الحياة المجتمعية وكذلك الشركات، إلى تعويض خسائر الإغلاق من خلال خدمة التوصيل المجاني للعملاء. قالت الروائية آن باتشيت، الشريكة في ملكية كتب بارناسوس في ناشفيل، تينيسي، إن متجرها يقدِّم توصيل الكتب مع الشحن المجاني للطلبات التي تزيد على 50 دولاراً، وتجميع فيديوهات حول توصيات الكتب لتنزيلها على موقعه الإلكتروني. وختمت باتشيت: «يبدو أنه وقت رائع للانغماس في القراءة». ولا يختلف الوضع كثيراً لشركة «Booksmith» في سان فرانسيسكو التي تقوم بشحن مجاني في المدينة، وشهدت ارتفاعاً في المبيعات عبر الإنترنت. وقال كامدن أفيري، مدير المتجر: «لقد أصبحت الاستجابة للطلبات أمراً محسوماً، ونحن نتفرّغ لها طوال اليوم في الوقت الحالي».

وفي السياق نفسه، تسعى جمعية بائعي الكتب الأميركية للضغط على الناشرين لدعم المتاجر المُستقلّة من خلال تقديم خصومات، وشحن مجاني للعملاء، وحذف سقف عائدات العناوين غير المباعة، من بين إجراءات أخرى. وتقوم مجموعات أخرى بجمع الأموال لمساعدة متاجر مستقلّة تضرَّرت بشدّة من الأزمة. وأصدرت المؤسَّسة الخيرية لصناعة الكتب، التي تقدِّم الدعم المالي للمتاجر المُستقلّة، بياناً يعرض المساعدة المُحتملة للمتاجر التي تأثَّرت بالوباء وعجزت عن دفع فواتير الإيجار أو الخدمات نتيجة فقدان المبيعات.

ومع ذلك، يتوقَّع المُهتمون بصناعة النشر أن تؤدِّي الخسائر المالية الناجمة عن تفشي الوباء إلى شل عددٍ كبير من المتاجر، ومن ثَمَّ إغلاقها بشكلٍ دائم. ويخشى آخرون من أن عمليات الإغلاق والتقيُّد بالقواعد الصّحيّة للحكومات التي تفرض التباعد الاجتماعيّ ستعطي ميزة أكبر لأمازون مع تحوُّل المزيد من العملاء المحلّيين إلى التسوُّق عبر الإنترنت.

وهناك مخاوف أخرى تلوح في الأفق بالنسبة للناشرين والمُؤلِّفين بسبب تأثير الأزمة التي تتفاقم يوماً بعد يوم على «Barnes & Noble»، أكبر سلسلة متاجر كتب في الولايات المتحدة، التي تشهد صعوبات كبيرة أصلاً. حيث أكّد جيمس داونت، الرئيس التنفيذي لشركة «Barnes & Noble»، بأن الشركة تتوقَّع خسائر في العائدات، رغم الارتفاع المُسجّل في المبيعات عبر الإنترنت. «سنعاني من الاضطراب مع الجميع». مضيفاً: «سيكون الأمر صعباً للغاية بالنسبة لبائعي التجزئة، وربَّما أقلّ لنا بقليل من معظمهم»، مشيراً إلى أن المكتبات لا تكون عادةً مزدحمة كالمطاعم والحانات. «سيتم إلغاء معظم التظاهرات الثقافيّة، إن لم يكن كلّها. إنه وقت صعب حقّاً لكلّ بائع تجزئة، وسوف نعاني بلا شك».

وبهدف التخفيف من تأثير جولات الكتب المُلغاة، وتعزيز الشعور بالانتماء المجتمعيّ، اختار البعض اعتماد الفضاء الافتراضيّ من خلال منصات مثل: Zoom و Crowdcast و Instagram Live. وقرّر المُؤلِّف إريك لارسون إلغاء ما تبقّى من جولته التي تشمل 33 مدينة لتقديم كتابه الأكثر مبيعاً عن هجوم لندن بعنوان، «The Splendid and the Vile»؛ ويبحث ناشره الآن أفضل الطرق لبث المُحادثة معه مباشرةً، ويخطّط لنشر سلسلة من مقاطع الفيديو القصيرة عبر الإنترنت يناقش فيها عملية البحث والكتابة. وعقد أندرو ألتشول، الذي روَّج لروايته الجديدة، «The Gringa»، مناقشة عبر الإنترنت عبر «Instagram Live» الأسبوع الماضي مع «Twenty Stories»، وهي مكتبة لبيع الكتب في بروفيدنس.

أمّا الناقد الفَنيّ جيري سالتز الذي كان من المُقرّر أن يوقّع كتابه الجديد «كيف تكون فناناً» في ستراند في نيويورك يوم الثلاثاء، فقد اختار الظهور بدلاً من ذلك في محادثة مباشرة يتمُّ بثها على حساب المتجر على (انستغرام)، والذي يضمُّ 225 ألف متابع.

وقد تبيَّن لدى بعض المتاجر أن نقل الأحداث الثقافيّة إلى العالم الافتراضي أفضل بديل للمستقبل المنظور، وربَّما الطريقة الوحيدة للبقاء على اتصال مع القُرَّاء ومجتمعاتهم في وقتٍ يتمُّ فيه إغلاق المزيد من الفضاءات المفتوحة. ويهدف متجر «Politics and Prose» في واشنطن إلى تحويل جميع اللقاءات مع المُؤلِّفين المُقرّرة سابقاً إلى الفضاء الافتراضي، الذي يتَّسع لجميع الكُتَّاب لمناقشة أعمالهم عن بعد بتقنية الفيديو عبر منصة «Crowdcast». وقالت «ليز هوتل»، مديرة الفعاليات والتسويق في «Politics and Prose»: «المُؤلِّفون يعيشون في عزلٍ ذاتي مثلنا تماماً... أنا متأكّدة من أنهم متشوِّقون لنقاشاتٍ هادفة شأنهم شأن القُرَّاء».

■ **ألكسندرا ألتر** □ **ترجمة: مروى بن مسعود**

تبيَّن لدى بعض المتاجر أن نقل الأحداث الثقافيّة إلى العالم الافتراضي أفضل بديل للمستقبل المنظور، وربَّما الطريقة الوحيدة للبقاء على اتصال مع القُرَّاء ومجتمعاتهم في وقتٍ يتمُّ فيه إغلاق المزيد من الفضاءات المفتوحة

المصدر:

Wall Street Journal مارس 2020

صحوة الذكاء الجماعيّ العالميّ

الرؤية من على أكتاف العمالقة!

في جميع أنحاء العالم، يستخدم أخصائيو الأوبئة والمُمارسون والمُهندسون (وغيرهم كثيرون) بلا كلَلٍ تدفّق البيانات على الوباء لنمذجة تطوُّره، والتنبؤ بأثر التدخّلات المُحتملة أو تطوير حلول لنقص المُعدات الطبيّة. يُولِّدون نماذج ورموزاً مفتوحة يُعاد استخدامها من قِبَل المُختبرات الأخرى. ويبدو أن عالم البحث والابتكار عالق في جنون من التعاون وإنتاج المعرفة المفتوحة بشكلٍ مُعدٍ مثل الفيروس. فهل يمكن أن يكون هذا «الذكاء الجماعيّ» حلّاً لمشاكل الكوكب الكبرى؟

في عام 1675 كتب نيوتن «إذا رأيت بعيداً أمامي، فذلك بفضل الوقوف على أكتاف العمالقة». منذ ذلك الحين، أصبح الاعتراف بهذا التراث الفكريّ الجماعيّ معيارًا في البحث العلميّ. في العلوم والهندسة، 90 % من المنشورات اليوم هي ثمار جهود جماعيّة.

وعلى مدى العقود الثلاثة الماضية، ساهم ظهور الإنترنت، ومن ثمَّ الشبكات الاجتماعيّة في كسرِ القيود التقليديّة للذكاء الجماعيّ، من مجتمعات «العلماء» حصراً إلى مجلات مدفوعة الأجر، مروراً بضبابية نظام مراجعة الأقران. ويشهد البحث الأكاديميّ تسهيلات وانفتاحًا تكنولوجيًا غير مسبوق، مما يتيح لمجموعة متنوِّعة من الجهات الفاعلة التفاعل بطريقةٍ فوريّة ومتناسقة، حيث نسجّل زيادة غير مسبوقة في المجلات المتاحة للعموم ومواقع أرشفة المقالات.

خارج النظام الأكاديميّ، تظهر مجتمعات غير مؤسسيّة: القراصنة والقراصنة الأحيائيون أو كذلك الصنَّاع الذين ينظِّمون أنفسهم عبر الإنترنت، ويشاركون في الجهد الجماعيّ لإنتاج المعرفة. لقد سمحت هذه الأرضية الخصبة بردة فعل غير مسبوقة تجاه أزمة (كوفيد - 19) المُستجَدة.

في بداية الوباء، كان بإمكاننا رؤية الأبحاث «التقليديّة» تتسارع وتفتح إلى حدٍّ كبير وسائل إنتاجها. الصحف المرموقة، مثل Science وNature أو كذلك The Lancet، والتي عادةً ما تتقاضى رسومًا قبل الوصول إلى مقالاتها، أتاحت النفاذ إلى المنشورات حول فيروس كورونا (كوفيد - 19) مجاناً.

ويتمُّ تحديث البيانات حول تطوُّر الوباء يوميًا - على سبيل المثال، بيانات جامعة جون هوبكنز هي نتيجة للعمل المفتوح والتعاونيّ، وقد تمَّت إعادة استخدامها بالفعل ما يقرب من 9000 مرّة على منصة التعاون Github من خلال مشاريع الطرف الثالث. ويتمُّ نشر النتائج على الفور على خوادم ما قبل النشر المفتوحة أو على مواقع المختبر بحدِّ ذاتها. وتتوفّر خوارزميات ومرئيات تفاعليّة عبر الإنترنت على GitHub؛ ومقاطع فيديو تعليميّة وإرشادية على YouTube. الأرقام مذهلة، حيث تمَّ نشر أكثر من 45000 مقالٍ أكاديميّ حول هذا الموضوع حتى الآن.

وفي الآونة الأخيرة، ظهرت مبادرات علنية تجمع بين مختلف الأطراف الفاعلة خارج الأطر المؤسَّسية، باستخدام المنصات عبر الإنترنت. على سبيل المثال، ظهر مجتمع من علماء الأحياء والمهندسين والمُطوِّرين على منصة التعاون (Just One Giant Lab (JOGL لتطوير أدوات مفتوحة المصدر ومنخفضة التكلفة ضد الفيروس. تهدف هذه المنصة، التي صمّمناها مع (Léo Blondel) بهارفارد، ومؤسَّسة Thomas Landrain على مدار السنوات الثلاث الماضية، لتكون معهد أبحاث افتراضيًا، مفتوحًا وموزَّعًا حول الكوكب.

تسمح المنصة للمجتمعات بالتنظيم الذاتي لتقديم حلول مبتكرة للمشاكل الملحة التي تتطلب مهارات متعدِّدة التخصُّصات بشكلٍ أساسي، بالإضافة إلى المعرفة «الميدانيّة». وهي بمثابة حجر الأساس لتسهيل التنسيق من خلال الجمع بين الاحتياجات والموارد داخل المجتمع، وتنظيم برامج البحث، ورفع التحدّيات. على وجه الخصوص، فإن استخدام خوارزميات التوصية يسمح بترشيح المعلومات حتى يتمكّن المساهمون من متابعة نشاط المجتمع الأكثر صلة واحتياجاته، وتبسيط التعاون وتسهيل صناعة الذكاء الجماعيّ.

عندما وُلِدَ أول مشروع في علاقة بـ(كوفيد - 19)، وهو اختبار تشخيصيّ مفتوح المصدر ومنخفض التكلفة، كان هناك اندفاعٌ حقيقيٌّ على المنصة. استمرّت المساهمات في الزيادة كل دقيقة: مئات التفاعلات، ومبادرات لإنشاء المشاريع، والتبادلات... لدرجة أن الخادم الذي يستضيف المنصة لم يعد قادراً على تحمُّل الضغط! في شهرٍ واحد فقط، سجل أكثر من 60.000 زيارة من 183 دولة، بما في ذلك 3000 مساهم وأكثر من 90 مشروعًا، بدءاً من تصميمات الأقنعة الواقية إلى نماذج أوليّة منخفضة التكلفة للتنفس.

وقد تمَّ تنظيم هذا المجتمع الضخم بسرعة في مجموعات عمل فرعيّة، ومزج المهارات والعوالم المُتنوِّعة: علماء البيانات من الشركات الكبيرة، باحثو الأنثروبولوجيا، المهندسون وعلماء الأحياء يتعاونون في هذا الكون الافتراضيّ.

لكن أكثر شخصٍ نشيط في المجموعة، منسق المجتمع الناشئ، تبين في النهاية أنها... طالبة في المدرسة الثانوية وتبلغ من العمر 17 عامًا من سياتل! هذه المبادرة تشكّل الآن برنامج بحث كامل، OpenCOVID19، بتمويل قدره 100000 يورو من صندوق Axa Research Fund لتتمّ إعادة توزيعه على المشاريع الناشئة وفقًا لنظام المراجعة من قِبَل المجتمع، بالشراكة مع AP-HP لتسهيل التقييم والتصديق على التصاميم المُعدَّة للاستخدام في المستشفى، والعديد من المحاور

من النقاط الشائعة للمجتمعات التي تصبح ضخمة بسرعة أننا نضيع البوصلة بسرعة! من الذي يجب الاتصال به لحلّ مشكلة معيّنة أو الإجابة عن سؤال محدّد؟ الحلّ: اعتماد «هندسة الاهتمام» التي تسمح بتوجيه الأفراد، حيث تكون مواهبهم أكثر ملاءمة

الرئيسيّة: التشخيص والوقاية والعلاج أو تحليل البيانات والنمذجة.
كان التنظيم الذاتي للمجتمعات امتياز عالم المصدر المفتوح ومصدر المشاريع الضخمة مثل Linux. واليوم أصبح دوره واضحًا في حلّ المشكلات العالميّة متعدّدة التخصُّصات، عبر وضع تنوُّع المهارات في خدمة التعقيد.

ما هو الذكاء الجماعيّ؟

إذا تمكنا من قياس الذكاء الفرديّ من خلال أداء مختلف المهام، وبالتالي اشتقاق «حاصل الذكاء» الفردي (حاصل الذكاء IQ الشهير)، فلماذا لا نقيس ذكاء مجموعة من الأفراد من خلال أدائهم في المهام الجماعيّة؟؟؟ أظهر الباحثون في عام 2010 وجود «عامل c» للذكاء الجماعيّ يتنبأ بأداء مجموعة ما في مهام مختلفة.
لكي تزيد المجموعة من ذكائها الجماعيّ إلى أقصى حدٍّ، ليست هناك حاجة لتجميع الأشخاص من ذوي معدل الذكاء المُرتفع. ما يهم هو الحساسية الاجتماعيّة للأعضاء، أي قدرتهم على التفاعل بشكلٍ فعَّال، وقدرتهم على إدارة التحدُّث بشكلٍ عادل خلال المناقشات، أو تنوُّع الأعضاء، ولا سيما نسبة الإناث في المجموعة.
بعبارةٍ أخرى، المجموعة الذكيّة ليست مجموعة مكوَّنة من أفراد أذكياء، بل مجموعة متنوِّعة من الأفراد الذين يتفاعلون بشكلٍ صحيح. ويخلص المُؤلِّفان «يبدو أن زيادة ذكاء المجموعة أسهل من زيادة ذكاء الفرد. فهل يمكننا زيادة الذكاء الجماعيّ، على سبيل المثال، بفضل أدوات التعاون الأفضل عبر الإنترنت؟».
كانت الروح الجماعيّة التحفيزيّة حاسمة في إنشاء منصة JOGL: يمكننا في الوقت الحقيقيّ قياس تطوُّر المجتمع وتقدُّم المشاريع، مما يسهل التنسيق بشكلٍ أفضل للبرامج المختلفة، بما في ذلك بالطبع برامج (كوفيد - 19).
تقدِّم البيانات أيضًا معيارًا كميًا لـ«الممارسات الجيدة» التي تسهل الذكاء الجماعيّ، مما يسمح بتقدُّم البحث الأساسي حول التعاون الذي نقوم به ضمن فريقي البحثي في مركز الأبحاث متعدِّد التخصُّصات في باريس. في الواقع، باستخدام أدوات علم الشبكات، ندرس كيف تدعم هذه الديناميكيّات التعاونيّة تقدُّم المعرفة.

صحوة مؤقتة أم تحوُّل طويل الأمد؟

لكن المُهمّ الآن أن نبحث كيف يمكن أن تستمر هذه الثورات الإيجابيّة. إذا كان هناك ما نتعلّمه من «الهاكاثونات»، هذه الأحداث التي توظّف مبادئ الذكاء الجماعيّ لتوليد المشاريع على مدار يوم أو يومين، فإنه من الصعب تثبيت نشاط هذه المشاريع في الزمن، بعد فورة الحدث. حتى لو كان من المُبكّر استخلاص استنتاجات حول هذا الموضوع في حالة Open COVID19، توجد عِدّة طرق للتفكير في مستقبل مثل هذه المشاريع التعاونيّة الضخمة. من النقاط الشائعة للمجتمعات التي تصبح ضخمة بسرعة أننا نضيع البوصلة بسرعة! من الذي يجب الاتصال به لحلّ مشكلة معيّنة أو الإجابة عن سؤال محدّد؟ الحلّ: اعتماد «هندسة الاهتمام» التي تسمح بتوجيه الأفراد، حيث تكون مواهبهم أكثر ملاءمة لتقدُّم المشروع. بمعنى آخر، في أنظمة التوصيات، في نفس الخوارزميات التي ساعدت في نجاح الشبكات الاجتماعيّة مثل تويتر أو انستغرام أو فيسبوك، يكمن جوهر هذه المجتمعات واستمرارها.
هذا النهج، القائم على أساسيّات علم الفريق وعلم الشبكة، يمكّن من استخدام الآثار الرَّقميّة للمجتمع (التفاعلات، المناقشات، المشاريع المكتملة، المهارات المُعلنة) التي تمكننا في خضم تدفُّق النشاط من تحديد أفضل جهة أو شخص يمكن الاتصال به، أو المشروع الأكثر ملاءمة للمساعدة، أو المُهمّة الأكثر منطقيّة للإنتاج بعد ذلك. في قلب هندسة JOGL، تسمح هذه الخوارزميات بالترويج لهذه اللقاءات الحاسمة التي تبيِّن أنها مفيدة بشكلٍ غير متوقع للمشروع.
إنّ تطوير خوارزميات التوصية هذه لصالح التعاون الضخم يتطلَّب مساهمة مختلف التخصُّصات، بدءاً من علوم الكمبيوتر إلى العلوم الاجتماعيّة، مروراً بالرياضيّات أو الأخلاقيّات. والأهم من ذلك أخيراً أن مستقبل الذكاء الجماعيّ يدور على نفسه: لأنه ذكاء جماعيّ يجب أن يضع نفسه في خدمة مستقبله.

■ **مارك سانتوليني** □□

المصدر:

The conversation.com

مارك سانتوليني المُؤسس المشارك ومدير الأبحاث في مختبر Just One Giant Lab.

مجتمع الإرهاق

البيانات الضخمة تنقذ أرواح البشر

في سياق تحليله للوضع الصِّحيّ العالميّ، حذَّر الفيلسوف بيونج تشول هان الأوروبيين الذين يرحبون بالاستراتيجيات الرَّقميّة التي تطبِّقها الدول الآسيويّة لمكافحة الأمراض المستجَدة، إذ غالباً ما يكون الثمن باهظاً. ويرى بأن (كوفيد- 19) لم يكبح جماح الرأسماليّة، لكنه أخضعها لفترةٍ من السبات. فهل ستتبنّى أوروبا نظام مُراقبة رقميّة دائماً على الطريقة الصينيّة؟

الثورة الفيروسيّة لن تحدث

أصبح التعامل مع كورونا أفضل اختبار لبرامج الدولة. يبدو أن آسيا أفضل بكثير في احتواء الوباء من جيرانها الأوروبيّين: في هونغ كونغ وتايوان وسنغافورة، هناك عددٌ قليل جدّاً من المصابين، أمّا في كوريا الجنوبية واليابان، فقد انتهت الفترة الصعبة. حتى في الصين، مصدر الوباء، بدأت تلوح بوادر الانفراج. وشهدنا مؤخَّراً هجرة الآسيويّين الفارين من أوروبا والولايات المتحدة: فالصينيّون والكوريّون يريدون العودة إلى بلدانهم الأصلية، حيث يشعرون بأمانٍ أكبر. وارتفعت أسعار الطيران بسرعةٍ كبيرة، وأصبح العثور على تذكرة طائرة إلى الصين أو كوريا مهمّة مستحيلة.

ماذا عن أوروبا؟ إنها تخسر المعركة. تتعثر تحت تأثير الوباء. وكبار السن قد يُتركون لمواجهة مصيرهم لوحدهم. لكننا نرى أيضاً قرارات لا معنى لها. يبدو إغلاق الحدود مجرَّد تعبير يائس عن سيادة الدولة، في حين أن التعاون المُكثَّف داخل الاتحاد الأوروبيّ كان أفضل بكثير من الانطواء الأعمى. في المُقابل، اعتمد الآسيويّون بشكلٍ كبير على المراقبة الرَّقميّة واستغلال البيانات الضخمة. اليوم، في آسيا، ليس علماء الفيروسات أو علماء الأوبئة مَنْ يقاتلون ضد الوباء، إنهم علماء الكمبيوتر والمُتخصّصون في «البيانات الضخمة» - تحوُّل نموذجي لم تستوعبه أوروبا بعد. «البيانات الضخمة تنقذ أرواح البشر!»، يكتب أبطال المراقبة الرَّقميّة.

بين جيراننا الآسيويّين، لا يوجد تقريباً أي شكلٍ من أشكال الوعي النقدي لهذه المراقبة للمواطنين. حتى في الدولتين الليبراليتين، أي اليابان وكوريا، توقّف الجدل عن التحكم في البيانات تقريباً، لا أحد يعارض السُّلطات في جمعها للمعلومات بشكلٍ وحشي ومحموم. لقد ذهبت الصين إلى حدِّ إنشاء نظام «نقاط اجتماعيّة»- الاحتمال الذي لا يمكن تخيّله بالنسبة لأي أوروبيّ- ممّا يجعل من الممكن وضع «تصنيف» شامل للغاية لمواطنيها، وبموجبه يجب أن يكون الموقف الاجتماعيّ لكلّ شخص تقييماً منهجياً. يتمُّ التحكُّم في كلّ عمليات الشراء أو أي نشاط على الشبكات الاجتماعيّة بنقرةٍ واحدة. كلّ مَنْ لا يحترم إشارات المرور، ويلتقي بأشخاصٍ معادين للنظام، وينشر تعليقات نقديّة على الإنترنت يُسند «نقاط سلبية». إنه أسلوب العيش «الخطير». وعلى العكس من ذلك، أولئك الذين يشترون الطعام الصِّحيّ عبر الإنترنت أو يقرؤون الصحف القريبة من الحزب سيكافأون بـ«نقاط جيدة». وكلّ مَنْ يحصل على عددٍ معيَّن من النقاط الجيّدة سيُمنَح تأشيرة خروج أو قروض بأسعار مغرية. وفي المقابل، كلّ شخص يقلّ رصيده عن عددٍ معيّن من النقاط قد يفقد وظيفته.

«200» مليون كاميرا

في الصين، أصبحت هذه المُراقبة الاجتماعيّة التي تديرها الدولة ممكنة بفضل مشاركة غير مشروطة للبيانات مع مزودي خدمات الهاتف المحمول والإنترنت. لا يكاد يوجد مفهوم لحماية البيانات، وفكرة «المجال الخاص» غائبة عن المفردات الصينيّة. قامت الصين بتركيب 200 مليون كاميرا على أراضيها، بنظام متطوِّر للغاية للتعرُّف على الوجه، يمكنه الكشف حتى عن الشامات. ولا أحد يمكنه وقف تشغيلها. في كلّ مكان، في المتاجر، في الشوارع، في المحطات والمطارات، تقوم هذه الكاميرات الذكيّة بفحص كلّ مواطن و«تقييمه».

الآن، أثبتت هذه البنية التحتية الضخمة المنتشرة لضمان المراقبة الإلكترونية للأشخاص فعالية كبيرة في القضاء على الوباء. يتمُّ التعرُّف على أي شخص يغادر محطة بكين على الفور بواسطة

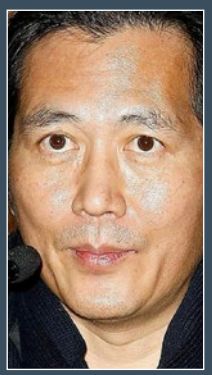

بيونج تشول هان ▲

الكاميرا. يقيس الجهاز درجة حرارة الأفراد، ويقوم بالإخطار على الفور إذا كانت الحرارة مرتفعة بشكلٍ غير طبيعي عبر الهاتف المحمول. على الشبكات الاجتماعيّة، نتحدَّث حتى عن الطائرات بدون طيار مستخدمة لمراقبة الحجر الصِّحيّ. بمجرَّد أن يحاول شخصٌ تخطي الحاجز، تقترب منه طائرة بدون طيار ويأمره صوتٌ تلقائي بالعودة إلى منزله. مَنْ يدري، ربَّما هذه الآلات تقوم حتى بطبع الغرامات التي تنزل إليه من السماء ببطء. صورة بائسة للأوروبيين، ولكن يبدو أنها لا تواجه أي معارضة في الدول الآسيويّة.

الصين ليست الدولة الوحيدة التي ترفض الانتقادات بشأن المُراقبة الرَّقميّة أو البيانات الضخمة: كوريا الجنوبية وهونغ كونغ وسنغافورة وتايوان واليابان تتبع الإجراءات نفسها، حرفياً كلّ شيء رقميّ. هذه الحالة لها سببٌ ثقافيّ دقيق: في آسيا، تسود الجماعيّة، ومنطق الفرديّة ضعيف للغاية هناك. ومع ذلك، من الواضح أنه في مكافحة الفيروس، يبدو أن البيانات الضخمة أكثر فعالية من إغلاق الحدود. إذ إنه من الممكن أن تتحكّم الدولة مستقبلاً حتى في درجة حرارة الجسم والوزن ومستويات السكر في الدم، من بين بياناتٍ أخرى. سياسة بيولوجيّة رقميّة تعزِّز السياسة النفسيّة الرَّقميّة الموجودة بالفعل، بهدف التأثير بشكل مباشر على أفكار المواطنين وعواطفهم.

لكن لماذا يخشى عالمنا من الفيروس؟ «الحرب» على شفاه الجميع، وهذا «العدو غير المرئي» الذي يجب التغلُّب عليه. نحن كنّا نعيش بدون أعداء لفترةٍ طويلة جدّاً. منذ عشر سنوات بالضبط، دافعت عن الأطروحة التي نعيشها في وقتٍ لم يعد فيه النموذج المناعي القائم على سلبية العدو صالحاً. إنّ المجتمع المُنظم على مبدأ الحصانة محاط بحدود وأسوار، كما كان خلال الحرب الباردة. الحماية التي تمنع في الوقت نفسه التدفق المُتسارع للسلع ورأس المال.

ترفع العولمة هذه الدفاعات المناعية لتمهّد الطريق لرأس المال. وهذا ينطبق على كلّ من الاختلاط والحركة، في كلّ مكان في حياتنا اليوم: إنهما ينفيان سلبية الغريب - أو العدو. اليوم، لا تأتي الأخطار من سلبية العدو، بل من الوفرة الإيجابية الذي يتمُّ التعبير عنها في شكل إفراطٍ في الإنتاج، وإفراطٍ في الاتصال، وتفوُّق في الأداء. الحرب، في مجتمع الأداء الذي نعيشه، هي قبل كلّ شيء ضد أنفسنا.

اليوم ينقضّ الفيروس بشكلٍ وحشي على المجتمعات ضعيفة المناعة بسبب الرأسماليّة المُعولمة. في قبضة الخوف، تحاول هذه المجتمعات استعادة دفاعاتها المناعية، فتغلق الحدود. لم نعد نشن الحرب ضد أنفسنا، إنما ضد العدو غير المرئي من الخارج. وإذا كان ردُّ الفعل المناعي لهذا المعتدي الجديد عنيفاً جدّاً، فذلك على وجه التحديد لأننا عشنا لفترةٍ طويلة جداً في مجتمع بدون أعداء، مجتمع إيجابي.

لكن الخوف المُبالغ فيه هو قبل كلّ شيء انعكاس لمجتمع البقاء، حيث يتمُّ استخدام جميع القوى الحيويّة لإطالة أمد الحياة. البحث عن حياة جيّدة أفسح المجال لهستيريا البقاء. ونتيجة القلق من وجودنا المُهدَّد، نحن نضحي بكلّ ما يجعل الحياة تستحق العيش. في هذه الأيام، يتصاعد النضال بلا هوادة من أجل البقاء بشكلٍ سريع: نحن نخضع دون تردُّد لحالة الطوارئ، نقبل دون اعتراض بتقييد حقوقنا الأساسية. فتحوّل المجتمع كلّه إلى حجرٍ صحيٍّ واسع. بعد تفشي الوباء، أظهر مجتمعنا وجهه غير الإنسانيّ. أصبحنا ننظر إلى الآخر كناقل محتمل يجب أن نبتعد عنه. الاتصال يساوي العدوى، والفيروس يعمِّق الوحدة والاكتئاب. «كآبة كورونا»، مصطلح استخدمه الكوريون لوصف الاكتئاب الناجم عن مجتمع الحجر الصِّحيّ اليوم.

البقاء المحموم

إذا لم نقابل السعي من أجل حياة جيّدة بالنضال من أجل البقاء، فإن فترة ما بعد الوباء ستتميّز بالبقاء المحموم أكثر ممّا كانت عليه قبل الأزمة. ثم، سنبدأ في التشبه بالفيروس، هذا الميت الحي الذي يتكاثر، ويتكاثر ويبقى. البقاء على قيد الحياة دون عيش.

يقول الفيلسوف السلوفيني سلافوي شيشك إن الفيروس سيوجّه ضربةً قاتلةً للرأسماليّة. يستشهد بشيوعيّة مشؤومة، يذهب إلى حدِّ الاعتقاد بأن الفيروس سيجعل النظام الصينيّ يتهاوى. سلافوي شيشك في المسار الخطأ: لن يحدث ذلك. بناء على نجاحها في مواجهة الوباء، ستروِّج الصين لفعالية نموذجها الأمنيّ في جميع أنحاء العالم. بعد الوباء، ستنهض الرأسماليّة وستكون أكثر صلابةً. سيستمر السياح في الدوس على الكوكب وتدميره. لم يبطئ الفيروس الرأسماليّة، بل أخضعها للسبات للحظة. الآن يسود الهدوء - الهدوء الذي يسبق العاصفة. كما تؤكِّد نعومي كلاين: «هذه الصدمة» تمثِّل لحظةً مناسبةً قد تسمح لنا بتأسيس نموذج جديد للسُّلطة. غالباً ما كان تطوُّر النيوليبرالية مصدر الأزمات التي ولَّدت مثل هذه الصدمات. كان هذا هو الحال في كوريا، وفي اليونان. لكن بمجرَّد استيعاب صدمة الفيروس، يُخشى أن تتبنّى أوروبا أيضاً نظاماً للمُراقبة الرَّقميّة الدائمة، على الطريقة الصينيّة. وقد تتحوّل حالة الطوارئ، كما يخشى المُفكّر الإيطالي جورجيو أغامبين، إلى حالةٍ طبيعيّة.

إن الثورة الفيروسيّة لن تحدث. لا يوجد فيروس يمكن أن يُحدث ثورة. الفيروس يمزِّقنا، لا يخلق تماسكاً كبيراً - كلّ واحد منّا لا يهمّه أكثر من بقائه. في أعقاب الوباء، نأمل في قيام ثورة إنسانيّة. إن الأمر متروك لنا، أيها الإنسان العاقل، الأمر متروك لنا لإعادة التفكير في رأسماليّتنا المُدمِّرة، وحركيتنا المُؤذية، لإنقاذ أنفسنا والحفاظ على كوكبنا الجميل.

■ **بيونغ تشول هان** □□□

المصدر: «Libération.fr»، أبريل 2020.

إشارات لنهاية عصر ساد طويلا

عندما تتربَّص الطبيعة بالحداثة المُتعجرِفة

يعيش العالَمُ اليوم حدثاً تاريخيّاً مهمّاً قد لا نستطيع قياس قدر المعاني التي يتضمَّنها، ولعلّها إشارات لنهاية عصر ساد طويلاً، وبداية عصر جديد سبق وأطلقنا عليه اسم عصر «الحداثة العابرة - Trans-modernity».

إنّ الفيروس الذي يهاجم الإنسانيّة اليوم، لأوّل مرّة خلال ألفية تطوُّرها، وفي لحظةٍ هي قادرة فيه تماماً على إدراك حجم التزامن داخلها والتحقُّق منه عن طريق الوسائل الإلكترونيّة الحديثة، يجعلنا نفكِّر في هذا الصمت وهذه العزلة اللذين فرضهما كلّ إنسان على نفسه تلقائيّاً لمواجهة خطرٍ أظهر حقيقة عيشنا داخل قصر من ورق بعدما كنّا نعتقد أنّ العالم هيكل بالغ التحصين. وقد أثار الحدث ردود فعل لا تُحصى من الزملاء الفلاسفة والعلماء؛ ردودٌ جديرة بالاهتمام العميق، وسنحاول بدورنا أن نضيف حبة رمل صغيرة لجملة هاته التأمُّلات المُتعلِّقة بهذا الحدث الصادم.

لقد تمكَّنت البشريّة على الأقلّ في نسخة «الإنسان العاقل - homo sapiens» ولمدة مئتي ألف عام تقريباً أن تتطوَّر عبر التغلُّب على عقبات لا حصر لها على مدى التاريخ حفاظاً على بقائها، وقد دخلت- إن شئنا أن نبدأ من الأصل- في مشروع كان قد بدأ من قَبل مع ما يسمَّى بالانفجار العظيم (Big Bang) (منذ حوالي خمسة عشر مليار سنة) في لحظة تجمُّد الكرة الأرضية (منذ حوالي خمسة ملايير سنة)، ثم بدأت الحياة في التحوُّل إلى غايا[1] (Gaya) (منذ حوالي ثلاثة ملايير ونصف المليار عام)، حيث قامت الحياة تحت غلاف جوي ومحيط حيوي لا تقدر الأشعة فوق البنفسجية على تدميره، وقبل حوالي سبعين مليون عام ظهرت الرئيسات، وأخيراً الهوموسابيان (مجال العقل Noosphere عند بيير دي شاردان، والذي يُدعى الآن بالأنثروبوسين أو عصر الوجود الإنسانيّ فوق الأرض).

ومع العصر الحجري (Neolithic) (قبل حوالي خمسة عشر ألف عام) بدأت الإنسانيّة في التحوُّل من مرحلة عيش الرُّحّل إلى مرحلة الاستقرار بمناطق حضريّة، وبدأت في إنشاء أولى القرى والمدن بفضل تنظيم ما يُعرف بـ«التطفيل المزدوج - DoubleParasitism» (من الخضراوات مع الزراعة ومن الحيوانات مع الرعي)، وهكذا كان علينا كبشر أحياء أن نتغذّى على الخضراوات للحصول على البروتينات ومواد أخرى لا توجد إلّا فيها، فكانت تلك هي البداية الحتمية للانتروبيا (الانتقال من الاستعمال الجيّد لشيء عديم الفائدة إلى تبديده عشوائياً مع عدم القدرة على استرجاعه واستغلاله)، ويعدُّ تدمير الغابات التي تنتج الأوكسجين لتحويلها إلى حقول زراعية مثالاً عليها. وكمخلوقات لاحمة فإننا معشر البشر نقتل لنتغذّى بالحيوانات غير البشرية (كان أوّل طابو وضعه الإنسان هو تحريم أكل لحم البشر)، هكذا نشأت وتطوَّرت الحضارات المدنية الكبرى في العصر الحجري الحديث بأوراسيا وإفريقيا وأميركا.

في حدود عام 1492 بعد الميلاد، سيحاول كريستوفر كولومبوس، وهو شخصٌ ينحدر من أوروبا اللاتينية الجرمانية استكشاف المحيط الأطلسي، وسيغزو أرض الهنود الحمر ليولَد معه عصر الأنثروبوسين الأخير، أي عصر الحداثة، حيث ساهمت في إنتاج ثورة علميّة وتقنية ستترك خلفها باقي حضارات الماضي وتصنفها كحضاراتٍ متأخّرة ومتخلِّفة وحِرَفية، هي التي نطلق عليها الآن مصطلَح (الجنوب)، كلّ هذا التحوُّل حصل منذ ما يُقارب الخمسمئة عام.

منهجياً، سيتمُّ ربط هذا العصر المُبهر بالطبيعة مع فرانسيس بيكون (1626 - 1662) في عمله Novum Organum، وكذلك انطلاقاً من البيان الفلسفيّ لرينيه ديكارت (1596 - 1650)، الذي أورده في (مقال في المنهج 1677)، حيث سيتمُّ النظر لهذه الطبيعة كشيءٍ قابل للمُلاحظة والاستغلال، وأن مواردها لا نهاية لها باعتبارها جسماً قابلاً للتحكُّم فيه من قِبل ديميورغوس بشري تمَّ تصويره كذاتٍ لا حدود لمعارفها ولقدراتها على التحكُّم في هذا الجسم / الطبيعة.

إن الكائن الإنسانيّ حسب ديكارت هو «روح ليست بحاجة للجسد»، مؤكّداً بذلك على ثنائية راديكالية، فالجسدُ كما الطبيعة يمتاز بخاصية الامتداد، بمعنى أن حقيقته كميّة، ولا أهمِّية تُعطى للماهية أو الحياة، بل يتم تفسيره كآلة كان للرياضيات امتياز التعرف عليها. وبهذا الاعتبار فإن الطبيعة هي شيء قابل للإدراك وللتحكُّم والاستغلال، وستتحوَّل الفيزياء إلى علم أساسي بعد أن بنى الكائن الإنساني تميزه

الطبيعة تتحدّانا اليوم، ولسان حالها يقول: إما أن تحترمني أو أبيدك!!، وأمّا الحدث فإنه يعرض نفسه كعلامة من علامات نهاية الحداثة، وكإعلانٍ عن بزوغ عصر جديد في العالم يخلف هذه الحضارة الحديثة المُتعجرفة التي أصبحت حضارة انتحارية

على أساس مبدأ (أنا أفكر)، الذي يجعله نظريّاً في مقابل الأشياء الطبيعيّة القابلة للقياس الكميّ، والتي تخضع لتصرُّفنا بالكامل، وبهذه الافتراضات مرَّت القرون التالية، إذ أثار مبدأ (أنا أفكر) ثورة علمية في القرن السابع عشر، وثورة تكنولوجيّة في القرن الثامن عشر بعد أن كان قد بدأ منذ القرن السادس عشر الشروع في إنشاء نظام رأسماليّ يتمحور منطقه الغائي على الزيادة الكميّة في معدّل الربح في أي استثمار داخل السوق عبر الاستئثار بفائض القيمة التي يخلقها العمَّال، مع تغليفه بأيديولوجيّة حداثية ذات نزعة مركزية أوروبيّة (التفوُّق الثقافيّ والجماليّ والأخلاقيّ والسياسيّ.... إلخ)، وطابع كولونيالي (كانت أوروبا مركز النظام الدوليّ بفضل عنفها العسكري الذي أعطاها الحقّ في السيطرة على باقي الشعوب)، وكذا بجِسٍّ باتريباركي (حيث سُمح للذكر الأبيض أن يسيطر على المرأة في أوروبا أوّلاً، ثم على باقي النساء المُلوَّنات)، وكنتيجة تراكمية لكلّ ذلك فإن الأوروبي قد تموضع كمستغلٍ مطلق للطبيعة.

في الواقع فإن القيم الإيجابية للحداثة، والتي لا يمكن لأحد أن ينكرها قد تعرَّضت للفساد وللتنكُّر من خلال التعامي الممنهج عن الآثار السلبية لاكتشافاتها ولتدخلاتها المستمرة في الطبيعة، ويرجع ذلك في جزءٍ منه إلى التبخيس من القيمة النوعية للطبيعة، وبالأخص القيمة التأسيسيّة العليا التي تنظر للطبيعة كشيءٍ حي وعضوي وليست مجرَّد شيءٍ ميكانيكي، فالطبيعة ليست مجرَّد جسم له خاصية الامتداد وقابل للقياس الكميّ.

لم تعد الفيزياء هي المتربّعة على عرش العلم وأخذت البيولوجيا مكانها، وفي هذه اللحظة المركزية كونياً يتزايد الاهتمام بعلم الأحياء العصبي، أي بالدماغ البشريّ، هذا الأخير هو أشدُّ الكائنات الحيّة تعقيداً في العالم، لكن بالرغم من ذلك فإن الطبيعة ليست مجرَّد مادة للمعرفة، إنها الكلّ (الشامل)، ونحن ككائنات إنسانيّة نُشكِّل جزءاً من هذا الكلّ، إننا إذن ثمرة لتطوُّر حياة الطبيعة التي تتموضع كأصلٍ لنا وتحملنا كمجدٍ لها، وقد أوجدتنا كنتيجة لعمليّة داخلية (نحن أبناؤُها وبناتها) ولذلك، ومن غير مجازية، قامت الأخلاق في مبدأها الأوّل المطلق والكوني على تأكيد الحياة بشكلٍ عام والحياة الإنسانية كأمجد ما فيها، لأن ذلك هو شرط الإمكانية المُطلقة والكونية لكلّ ما تبقى، أي لإمكانية الحضارة، السعادة، العلم، التكنولوجيا وحتى الدين، إذ يستحيل أن يستمر إجراءٌ ما أو مؤسّسةٌ ما إذا ماتت الإنسانيّة.

لقد تمرَّدت أمنا الطبيعة- بصيغة مجازيّة وحقيقيّة الآن- وها هي تتربَّص على شاكلة «كش ملك» في الشطرنج بابنتها الإنسانيّة، مستخدمة عنصراً بسيطاً في الطبيعة (الفيروس جزء من الطبيعة، ويتشارك في هذه الحقيقة مع الإنسان). إنه حدث يجعل الحداثة في موضع مساءلة، ويفعل ذلك من خلال «الفيروس» الذي هو كائن حي أصغر بكثير من البكتيريا، ومن الخلية، وأبسط إلى ما لا نهاية من الكائن الإنسانيّ الذي يمتلك مليارات الخلايا ذات الوظائف المختلفة والمُعقَّدة (تصل للملايين).

هي الطبيعة إذن مَنْ تتحدَّانا اليوم، ولسان حالها يقول: إما أن تحترمني أو أبيدك!!، وأمّا الحدث فإنه يعرض نفسه كعلامة من علامات نهاية الحداثة، وكإعلانٍ عن بزوغ عصر جديد في العالم يخلف هذه الحضارة الحديثة المُتعجرِفة التي أصبحت حضارة انتحارية، وكما نبّه فالتر بنيامين، فإنه كان يتعيَّن علينا أن نستخدم الفرامل وليس دواسة السرعة، حتى نوقف المسير نحو الهاوية.

يتعلَّق الأمر إذن بمحاولة فهم للوباء الحالي كما لو كان بوميرانغ[2] رمته الحداثة من قبل في وجه الطبيعة (طفرات الجراثيم المُسبِّبة للأمراض هي تأثير غير مقصود أنتجته أبحاث علوم الطب وصناعة الأدوية)، وبدأ يرجع ضدها على شكل فيروس ينطلق من المختبرات أو يولد نتيجة التكنولوجيا العلاجية.

إن هذه القراءة تحاول التنبيه إلى أن هذا الحدث الذي لم نشهده من قبل بطريقته المعولمة التي نعايشها الآن، هو شيء يتجاوز فكرة التعميم السياسيّ لحالة الطوارئ (على النحو الذي اقترحه ج.أغامبين)، أو اختزاله في ضرورة تجاوز الرأسمالية (كما هو موقف سلافوي جيجيك)، والاكتفاء بالمطالبة بإظهار فشل نيوليبرالية الدولة المختزلة التي تترك صحة الشعب في يد السوق والرأسمال الخاص، وغير ذلك من الآراء المُهمّة. إننا نعتقد أننا نشهد لأوّل مرّة في تاريخ الكون والإنسانيّة أعراض الإنهاك الشديد على الحداثة باعتبارها مرحلة أخيرة من عصر الأنثروبوسين، وهو ما يسنح لنا بإلقاء إطلالة على عصرٍ عالميّ جديد، هو عصر الحداثة العابرة، والذي عرضنا لبعض خصائصه في مقالاتٍ وكُتبٍ أخرى، حيث يتحتَّم على الإنسانية أن تتعلَّم من أخطاء الحداثة لولوج عصر جديد للعالم، يفترض علينا خلالها أن نستفيد من ثقافة الموت (necro-culture) التي سادت خلال القرون الخمسة الأخيرة، لنؤكّد قبل كلّ شيء على أولوية الحياة على الرأسمال والكولونيالية والباترياركية، وباقي التحدّيات المُدمِّرة للشروط الكونية لإعادة إنتاج الحياة على الأرض، وهذا تحدٍّ يتطلّب نفَساً طويلاً لتحقيقه خلال القرن الحادي والعشرين الذي بدأناه للتو.

إننا في غمرة هذا الصمت الذي يُطبق على عزلتنا التي طالبتنا بها الحكومات كي لا تصيبنا عدوى علامة القيامة، في أمسّ الحاجة لأخذ وقتٍ كافٍ للتفكير في مصير الإنسانيّة مستقبلاً.

■ **إنريكي دوسيل** □ **ترجمة: البشير عبدالسلام**

هوامش:

1 - حسب فرضية غايا Gaya فإن أي نشاط بشريّ يؤثّر في البيئة في أي مكان من الكرة الأرضية يولّد ردّة فعل تلقائيّة معاكسة في المنظومة البيئيّة تهدف إلى إعادة التوازن.

2 - لعبة على شكل مثلث يتمُّ إطلاقها في الهواء لترجع في حركة تتطلّب تمرينات، وقد كانت تُستخدَم في الصيد أيضاً.

العُزلة الاجتماعيّة..

وجهٌ آخر للموت

ربَّما كان الوقت أحد أخطر التحدّيات التي تعترض سبيل العالم في مواجهة جائحة كورونا، لما يفرضه من عبءٍ مزدوج على المواطنين والحكومات في ظلّ التدابير القاسية التي تتَّبعها أغلب دول العالم أملاً في الحدِّ من أعداد الوفيات والمصابين. ربَّما كان هذا هو الدافع خلف الدعوات التي تعالت مؤخَّراً لوقف هذه الإجراءات الاحترازية، مثل حظر التجوال والتباعد الاجتماعيّ، وغيرها من الإجراءات التي تعيق مظاهر الحياة اليومية، الأمر الذي صار يطرح تساؤلاً حرجاً، ألا وهو: هل يتوجَّب علينا حماية أنفسنا من الفيروس المميت مهما كلفنا الأمر، أم أن العدوى ستصبح، عمّا قريب، جزءاً لا يتجزَّأ من الخطر اليومي الذي يُهدِّد الحياة؟

أصبح جليّاً للعيان أن الحياة لن تعود، دفعةً واحدة، لما كانت عليه قبل كورونا، ممّا سيضطرنا إلى الاستغناء عن العديد من مظاهر الرفاهية في حياتنا السابقة، ولو بصورةٍ مؤقَّتة، كإقامة الحفلات الموسيقيّة والمهرجانات أو القيام برحلاتٍ طويلة.. سيقتصر طموحنا البشريّ في الوقت الراهن على محاولة استعادة بديهيات الحياة

معضلة باتت تترعرع إلى جوار ذلك الفيروس القاتل، فكلّما جرى تمديد إجراءات احتواء الأزمة، اتّسعت هوة الصِّراع الأخلاقي وتولّدت المخاطر التي لا تقلّ ضراوة في فتكها بحياة الآخرين. تلجأ الحكومة الألمانيّة وأغلب حكومات دول العالم إلى تطبيق إجراءات التباعد الاجتماعيّ وحظر التجوُّل لتقليص عدد الإصابات اليومية الجديدة بفيروس كورونا. فلا يزال من غير المؤكَّد في الوقت الراهن متى سيتم تخفيف تلك التدابير وبأي كيفية؟ خاصّةً وأن منحنى الإصابات والوفيات لا يزال متصاعداً في القارة الأوروبية، ومن ثمَّ قرَّرت الحكومة الفيدرالية في ألمانيا أن يظلّ حظر التجوال ساري المفعول حتى بعد عطلة عيد الفصح.

على الجانب الآخر، تسبَّبت هذه الإجراءات الاحترازية في خسائر ليست هيّنة، حيث تَقدَّم مئات الآلاف من أصحاب الأعمال التجاريّة الصغيرة والفئات المُتضرِّرة مادياً، جرَّاء فرض حظر التجوُّل، بطلب الحصول على مساعدات حكوميّة، إذ لم يَسبِق تقليص ساعات العمل، بهذا الشكل، لعددٍ كبيرٍ من الشركات والإشغالات العامّة مثلما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية. كذلك تتسبَّب تدابير الاحتواء المُتبعة في الإضرار المُباشر بالصِّحة النفسيّة ونوعية الحياة لكثيرٍ من المواطنين، إذ تسوق العديد من الدراسات الوبائية أدلةً على أن الأزمة الاقتصاديّة التي شهدها العالم في عام 2008 فاقمت من معدَّلات الانتحار والمشاكل النفسيّة لدى بعض الفئات السكّانية. كذلك يمكن أن يكون للحجر الصحي تأثيرٌ سلبيٌّ على الصِّحة العقليّة للأفراد، فقد أظهر استطلاع إلكترونيّ حديث أجرته جامعة «إرفورت» أن الشباب في ألمانيا يعانون بالفعل من أعراض إجهادٍ نفسيٍّ حادّ، فضلاً عن إصابة أكثر من ثلثي المواطنين الألمان بالقلق والتوتر الشديدين من جائحة الفيروس التاجي القاتل.

والواقع أن الأمور تسير بالفعل على نحوٍ أكثر سوءاً مع الأشخاص الذين يعيشون، بالفعل، تحت وطأة ظروف حياتيّة صعبة من ذوي الدخول المنخفضة أو ممَنْ يعانون العنف الأُسري. وقد يكون الأمر أشدّ خطورةً بالنسبة لبعض الأطفال، إذ تشكِّل العُزلة المنزلية عنصر تهديد مباشر لحياتهم. كما أطلق ما يربو على 100 باحث رسائل تحذيرية مفتوحة للمواطنين تشير إلى أن «مقدِّمي خدمات رعاية الشباب حالياً ليست لديهم خيارات كافية لحماية المُراهقين من مشاعر الإهمال، أو سوء المعاملة، أو الإساءة».

ينبغي تعديل المسار في لحظة ما

كلما طال أمد هذه الإجراءات، اتّسعت هوة التساؤل.. ففي ظلّ ما تخلقه الإجراءات الحالية من مشكلاتٍ نفسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة ملموسة، هل يمكن محاربة فيروس كورونا باستدامة هذه القيود على حياة المواطنين خلال الأشهر القادمة لحمايتهم من الموت، أم أننا سنضطر في لحظةٍ ما لتغيير هذه الإجراءات؟

في هذا السياق أصدر «مجلس الأخلاقيات الألماني/ Der Deutsche Ethikrat» بياناً يحث الحكومة الاتحادية على ضرورة المُوازنة بين حماية الحياة من ناحيةٍ، والحرّيات من ناحيةٍ أخرى، فيما اعتبر مجلس مستشاري الحكومة الألمانية أن «إجراءات الحماية الضروريّة لحياة البشر لا يمكن تطبيقها بصورةٍ مطلقة، كما لا ينبغي أن تخضع كافة حقوق المُشاركة الاجتماعيّة لإجراءات الحماية المُتبعة. وعلى الجميع تَقبُّل

المخاطر التي تفرضها الحياة العامّة».

يقول فرانك ديتريش، أستاذ الفلسفة بجامعة هاينريش هاين لـ«مركز الإعلام العلميّ الألمانيّ»: «يواجه المواطنون، بصورةٍ يومية، مواقف تهدِّد حيواتهم. ومع ذلك، لا تحاول الدول حمايتهم منها بأي ثمن. وأفضل مثال على ذلك، حركة المرور التى لا تهدأ في المدن الألمانيّة، إذ يقدَّر ضحايا حوادث الطرق بنحو أكثر من 3000 شخص سنوياً. ومع ذلك لم تبدِ الدولة استعدادها لفرض قيود جذرية على حرّية الحركة المرورية، لما يترتَّب على ذلك من ضررٍ اقتصاديّ بالغ». هكذا تتجلَّى أهمِّية الحركة الشخصيّة الخاصّة بالأفراد أيضاً، فربَّما تصل رغبة البعض في فك حصار التباعد الاجتماعيّ ما يتجاوز بكثير أهمِّية الحماية غير المشروطة ضد الفيروس المميت.

هناك أيضاً أمرٌ بالغ الأهمِّية، وهو صعوبة الجزم إذا ما كانت الإجراءات المُتعلِّقة بحظر التجوُّل والتباعد الاجتماعيّ هي الأجدر على الحدِّ من تداعيات الأزمة بغض النظر عن الخسائر التي تترتَّب عليها. يقول «بيتر دابروك»، عضو في مجلس الأخلاقيات الألمانيّ: «إن الضرورة تفرض علينا، حتى الآن، اتباع هذه الإجراءات. ولكن، كلّما مرَّ الوقت، توجَّب الوصول سريعاً لإجراءات بديلة لحماية التجمُّعات من خطر انتشار الفيروس، مع الإبقاء على الحدِّ الأدنى من الحرّيات المدنية للأفراد بهدف الحفاظ على حالتهم النفسيّة المُتأثرة جرَّاء العزل وتدهور أوضاعهم الاقتصاديّة». تابع «دابروك» قوله: «ستبقى الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الفيدراليّة وحكومات الولايات سارية حتى 19 أبريل/نيسان لمنع النظام الصِّحيّ من الانهيار وحماية أكبر عدد ممكن من الأرواح من الفيروس التاجي الجديد. لكننا ندعو السياسيين إلى تبنّي استراتيجيّة مزدوجة، والاستعداد فعلياً لخلق هذا التحوُّل في مسار إدارة الأزمة، تمهيداً لإنهاء إجراءات الحظر فيما بعد».

في ذات السياق تقول «كريستيان ووبين»، رئيسة مجلس الأخلاقيات الأوروبيّ، وهو الهيئة الاستشاريّة للمفوضيّة الأوروبيّة: «الوضع الاجتماعيّ والسياسيّ الحالي في العالم يمكن مقاربته بما يشبه حالة الطوارئ داخل الجسم البشريّ. فإذا تعرَّض جسم الإنسان إلى صدمة جرَّاء توقُّف أحد أعضائه عن العمل، سيلجأ إلى تحفيز كافة الأعضاء الأخرى للإبقاء على عمل الوظائف الأساسيّة في الجسم، حتى وأن تعرَّضت أشياء أخرى في الجسم للإهمال من أجل الحفاظ على الحياة، وهو التشبيه الأقرب لما تقوم به حالياً أغلب الدول لمواجهة هذه الجائحة»، فيما لفتت «ووبين» إلى نقطة مهمّة للغاية، وهي، احتياج الأشخاص الذين يعانون من الحظر إلى دافع يجعلهم يستطيعون مواصلة هذه المعاناة. فمن الضروري أن تلوح في الأفق «حلول بديلة» عِوضاً عن هذه التدابير القاسية.

أي الدول أمكنها تقديم حلول مغايرة؟

تتوجَّه أنظار العالم قاطبة، هذه الأيام، إلى البحث عن حلٍّ مغاير. ولكن، تبدو الأوضاع هنا وهناك متشابهة ولا مجال للمُقامرة بأفعالٍ غير محسوبة النتائج. فعلى سبيل المثال، تسعى إيطاليا، فحسب، إلى ألّبقاء على قيد الحياة، مع إيقاف عجلة الاقتصاد- مؤقتاً- وفقاً لموافقة الغالبية العُظمى من السكّان، الذين اضطروا إلى البقاء في المنزل لعدّة أسابيع، خشية الموت الجماعي. بينما اتّبعت بريطانيا العُظمى في البداية نهجاً مغايراً

تماماً، ما سُمي بـ«مناعة القطيع»، حيث لم تفرض السُّلطات أي قيود على الحياة الاجتماعيّة، ما سمح بانتشار الفيروس بسهولة بين جموع المواطنين، كي يكتسبوا حصانةً سريعة ضد الفيروس. ولكن في ضوء ارتفاع أعداد الوفيات التي قاربت مئات الآلاف، اضطرَّت الحكومة البريطانيّة أن تتبنّى نهجاً مشابهاً لما يتبعه أغلب دول العالم من حظر اجتماعيّ.

أمّا السويد، فلم تفرض، في البداية، أي قيود على الحياة العامّة وأبقت على النمط المُعتاد للحياة اليومية في ظل وجود فيروس كورونا، لم يتم إغلاق المدارس أو الجامعات أو مراكز الرعاية النهارية، وكذلك المطاعم والمحلّات التجاريّة. يقول «غيرت هيلغيسون»، أستاذ في مركز ستوكهولم لأخلاقيّات الصِّحة: «تم تقييم التبعات الناجمة عن فرض قيود على أوجه الحياة في البلاد، وما يترتَّب على ذلك من ازدياد لحالات الانتحار والعنف المنزلي، ومن ثَمَّ، وضعنا ذلك في الاعتبار كجزءٍ أساسيّ ضمن استراتيجيّة التعامل مع أزمة كورونا». وتابع «هيلغيسون» قوله: «لدينا قناعة أنه من الأفضل تمكين المواطنين من مواصلة حياتهم اليوميّة، فالإنسان كائن اجتماعيّ بطبعه، وهناك استحالة في الإبقاء على إجراءات التباعد الاجتماعيّ على المدى الطويل. ولكن على أي حال، ربَّما اضطررنا لفرض مزيد من القيود حال تفاقمت الأوضاع».

علينا إيجاد استراتيجيّة للخروج من الدائرة المفرغة

عند النظر بصورة أكثر شمولية للعالم بأسره، يبدو أنه ليس هناك استراتيجيّة واحدة صحيحة متفق عليها للتعامل مع أزمة فيروس كورونا، خاصّة وأن الظروف التي تفرضها مقتضيات عودة الاقتصاد وما يترتَّب على ذلك من انتشار للوباء، تفرض أيضاً ضرورة التفكير في سبيلٍ آمن لإنهاء هذا الحظر، الأمر الذي يتطلَّب تشجيع المواطنين على مناقشة الأمر، بل وخلق نقاش مجتمعيّ موسَّع حول كيفية عودة الحياة إلى طبيعتها. كذلك يجب على كافة المُتخصّصين التفكير في ذلك، ليس فقط الأطباء، ولكن أيضاً علماء الاجتماع والاقتصاديّين وعلماء النفس والأخصائيّين الاجتماعيّين والفلاسفة سعياً لإيجاد مخرج «منطقي» وليس «اضطرارياً» يصعُب استدامته في حال لم تنتهِ الأزمة سريعاً. ففي النهاية تبدو جميع القرارات ليست كافية، إذ ينبغي التنسيق المشترك ما بين الباحثين والخبراء، وكذلك السياسيّين قبيل وضع استراتيجيّات جديدة للتعامل مع الأزمة.

من الضروري أيضاً تشكيل لجان استشارية تقدِّم المشورة للحكومات، للعمل بشكلٍ ثنائي على المستوى التنفيذي، فلابد أن تعكف كلّ دولة على تقييم وضعها الراهن، واضعةً في الاعتبار كافة أشكال المخاطر، سواء الطبيّة، أو الاجتماعيّة، أو الاقتصاديّة. وبناءً على هذا التقييم البانورامي، يتمُّ وضع أكثر من خطة للتصدّي للفيروس داخل الدولة الواحدة بحسب التقديرات الخاصّة بـ«بؤر الإصابة» الأعلى والأقلّ خطورة. مثلاً، يمكن السماح بعودة مظاهر الحياة العامّة، بشكلٍ تدريجي، في المناطق التي تسجل إصابات منخفضة. يُمكن، في البدايةً، استئناف الدراسة بالمدارس والجامعات، يليها فيما بعد استئناف العمل بالمتاجر والمطاعم، وذلك بالتوازي مع مراقبة حثيثة لمردود هذه الإجراءات على معدَّل الإصابات.

لقد أصبح جليّاً للعيان أن الحياة لن تعود، دفعةً واحدة، لما كانت عليه قبل كورونا، ممّا سيضطرنا إلى الاستغناء عن العديد من مظاهر الرفاهية في حياتنا السابقة، ولو بصورةٍ مؤقّتة، كإقامة الحفلات الموسيقيّة والمهرجانات أو القيام برحلاتٍ طويلة.. سيقتصر طموحنا البشريّ في الوقت الراهن على محاولة استعادة بديهيات الحياة على نحوٍ تدريجيّ.

■ **بينتا لوبان ولينداً فيشر** □ **ترجمة: شيرين ماهر**

المصدر: موقع «Die Zeit/ دي تسايت» الألماني 2020/4/5.

كتاب الدوحة

Doha Magazine aldoha_magazine @aldoha_magazine

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

UNE CERTAINE
IDÉE DE
L'EUROPE

إدغار موران:

علينا أنْ نتعوَّد على العيشِ باللايقين

حتى وهو في معزله الصِّحيّ ببيته بمدينة مونبلييه، يبقى الفيلسوف إدغار موران وفيّاً لنظرته الشموليّة للمجتمع. إنّ هذه الأزمة الوبائيّة، حسب تصريحه لنا، يجب أن نتعلّم منها كيف نفهم العِلمَ بشكلٍ أفضل، وأن نعيشَ باللايقين، وأن نستعيدَ شكلاً من الأنسنة.

يجب أن يذكّرنا هذا الفيروس بأن اللايقين يبقى العنصر الذي لا يمكن التغلُّب عليه في حالنا كبشر. كلّ التأمينات الاجتماعيّة التي يمكن أن نكتتبها، ليس بوسعها أن تضمن لنا عدم الإصابة بالمرض

ألقت جائحة الفيروس التاجيّ فجأة بالعِلم في قلب المجتمع. فهل سيخرج هذا الأخير مختلفاً من هذه الأزمة؟

- ما يثيرني هو أن قسماً واسعاً من الجمهور كان يعتبر العِلم سجلاً للحقائق القطعيّة واليقينيات غير القابلة للدحض. فقد كان الجميع مطمئناً وهو يرى الرئيس (الفرنسي) وقد أحاط نفسه بمجلسٍ علمي. لكن ما الذي حصل؟ لقد انتبهنا بعد برهةٍ إلى أن هؤلاء العُلماء يدافعون عن وجهات نظر متباعِدة جدّاً، بل أحياناً متناقِضة. سواء تعلَّق الأمر بالإجراءات الواجب اتخاذها، وبالعلاجات الجديدة المُحتمَلة للتعاطي مع حالة الطوارئ، ونجاعة هذا الدواء أو ذاك، والمدة الزمنيّة التي تستغرقها التجارُب العلاجيّة التي سيقع اعتمادها... كلّ هذه القضايا الخلافية تزرع الريبة في أذهان المواطنين.

هل تقصدون بأنه من المُحتمَل أن يفقد الجمهور الثقة في العِلم؟

- أبداً، إذا فهم (الجمهور) بأن العلوم تحيا وتتطوَّر بالجدل. فالنقاشات حول الكلوروكين، على سبيل المثال، سمحت لنا بالتساؤل حول الاختيار ما بين الاستعجال والاحتياط. لقد شهد الحقل العِلميّ فيما سبق خلافات حادة عند ظهور «السيدا» في الثمانينيات. والحال أن ما أوضحه لنا فلاسفة العلوم، هو أن القضايا الخلافية بالذات مسألة لا محيد عنها في البحث، وأن هذا الأخير يحتاج إلى هذه القضايا الخلافية ليتطوَّر.

مع كامل الأسف، قليلون هم العلماء الذين قرأوا (أعمال) كارل بوبر، الذي برهن على أن النظريّة العلميّة لا تستحق هذه الصفة إلّا إذا كانت قابلة للدحض، وغاستون باشلار، الذي طرح قضيّة المعرفة المُركَّبة، وكذلك توماس كون، الذي بيَّن أن تاريخ العلوم عبارة عن سيرورة متقطِّعة. كثير من العلماء يجهلون عطاءات هؤلاء الإبستمولوجيين الكبار ويواصلون عملهم بمنظورٍ وثوقي.

هل ستكون الأزمة الحالية من النوع الذي يغيِّر هذه النظرة إلى العِلم؟

- ليس بوسعي التكهن بهذا الأمر، لكنني أتمنى أن تساهم (الأزمة) في إبراز أن العِلم مسألة أكثر تركيباً ممّا نودُّ اعتقاده، سواء كنا في جهة مَنْ يتصوَّرونه كسجلٍ لليقينيات، أو مَنْ لا يرون في العلماء سوى مجموعة من الدَّجالين (على غرار ديافواروس في مسرحية المريض المتوهم لموليير) يناقضون

أنفسهم بشكلٍ دائم.
إن العِلم معطًى بشريّ، مثله مثل الديموقراطية يستند إلى الجدل الفكريّ، هذا مع العلم بأن طرق التحقُّق أكثر صرامة. ولكن مع ذلك فإن النظريّات الكبرى المقبولة تنحو نحو اليقينية، ودائماً ما وجد كبار المُجدِّدين صعوبةً في الحصول على اعتراف باكتشافاتهم. إن الفترة التي نعيشها اليوم يمكن أن تكون الوقت الأنسب لتوعية المواطنين، والباحثين أنفسهم، بالحاجة إلى إدراك أن النظريّات العلميّة ليست مطلقة، بل قابلة للتحلل طبيعياً.

بالمقارنة بين الكارثة الصِّحيّة وحالة العزل الصِّحيّ غير المسبوقة التي نعيشها حالياً، أي الوضعيتين هي الأكثر تأثيراً؟

- لا مجال لإقامة تراتبية بين الوضعيتين ما دام أن هناك تعاقباً كرونولوجياً بينهما، يفضي إلى أزمة يمكن أن نقول إنها حضاريّة، لأنها تفرض علينا أن نغيِّر سلوكاتنا، كما أنها تغيِّر حياتنا على المستوى المحلّي، كما على المستوى الكوني. إن هذا كلّه مجموع مُركَّب. وإذا شئنا التعرُّض لها من وجهة نظر فلسفيّة، يجب أن نحاول الربط بين كلّ هذه الأزمات وأن نفكر قبل كلّ شيء في اللايقين الذي

هو الخاصيّة الأساسيّة المشتركة بينها.
والمُهمّ جدّاً في أزمة الفيروس التاجي، أنه ليس لدينا لحدِّ الآن أدنى يقين حتى حول أصل الفيروس، ولا حول أشكاله، ولا حول الفئات السكّانية التي يُهدِّدها، ودرجات خطورته... فنحن نجتاز مستوى عالياً من اللايقين حول كلّ تبعات الوباء في جميع المجالات، الاجتماعيّة والاقتصاديّة...

بأي معنى تشكّل هذه اللايقينيات، من وجهة نظركم، الرابط بين كلّ هذه الأزمات؟

- لأنه صار علينا أن نتعوَّد على تقبُّلها والعيش معها، علماً أن حضارتنا غرست فينا الحاجة إلى يقينيات لا تفتأ تتزايد حول المستقبل، وهي غالباً ما تكون وهمية، وأحياناً تافهة (حدث هذا) عندما وصفوا لنا بدقة ما سيقع لنا سنة 2025. يجب أن يذكِّرنا هذا الفيروس بأن اللايقين يبقى العنصر الذي لا يمكن التغلُّب عليه في حالنا كبشر. كلّ التأمينات الاجتماعيّة التي يمكننا أن نكتتبها، ليس بوسعها أن تضمن لنا عدم الإصابة بالمرض أو أن نتمتع بالسعادة في بيوتنا! نحن نسعى إلى إحاطة أنفسنا بأقصى ما يمكن من اليقينيات، لكن الحياة هي إبحار في محيط من الشكوك، تتخله جزر وأرخبيلات من اليقين التي نتزوَّد منها (لمواصلة الإبحار).

أهذه هي فلسفتكم في الحياة؟

- إنها بالأحرى حصيلة تجربتي. لقد عاينت في حياتي عدداً من الأحداث غير المُتوقَّعة بدءاً من المقاومة السوفياتيّة سنوات الثلاثينيات إلى انهيار الاتحاد السوفياتيّ، لكي نكتفي فقط بهذين الحدثين اللذين كانا غير متوقَّعين قبل حدوثهما- إلى درجة أن هذا الأمر أصبح جزءاً من كينونتي. أنا لا أعيش في قلق دائم، ولكني أتوقَّع حصول أحداث كارثيّة بدرجة ما. لا أقصد أنني توقَّعت حدوث الوباء الحالي. ولكني أقصد بأنه منذ سنوات، ومع تدهور محيطنا الحيويّ، كان علينا أن نستعدَّ للكوارث. وفعلاً هذا جزء من فلسفتي «توقّع ما ليس متوقَّعاً».
وفضلاً عن هذا فإنني منشغل بمصير العالم منذ أن استوعبت- أثناء قراءتي (لأعمال) هيدغر سنة 1960 - بأننا نعيش عصراً كونياً، ثم بعد سنة 2000 عندما استوعبت أن العولمة يمكنها أن تفضي إلى مزايا بنفس قدر ما تفضي إليه من رزايا. وألاحظ أيضاً تسارعاً مفرطاً للنمو التكنو - اقتصاديّ يُحرِّكه تهافت على الربح مدعوم من قِبَل سياسة نيوليبرالية مُعمَّمة أصبحت هدَّامة وتفضي إلى أزمات من كل الأصناف... منذ تلك اللحظة أصبحت مستعداً فكريّاً لمواجهة ما هو غير مُنتظَر، والتصدِّي للتقلُّبات.

حتى نبقى في فرنسا، كيف تُقيِّمون تدبير الوباء من طرف السُّلطات العموميّة؟

- يؤسفني أنه تمَّ إنكار بعض الاحتياجات، مثل استعمال القناع الطبيّ، فقط... للتستر على عدم توفره! كما قِيل أيضاً إن الاختبارات الطبيّة لا تفيد في شيء لإخفاء حقيقة عدم توفرها لدينا أيضاً. سيكون من الطبيعي الإقرار بأن أخطاءً قد ارتُكبت، وأننا سنقوم بتصحيحها. فالمسؤوليّة تقترن بالإقرار بالأخطاء. ومع ذلك فقد لاحظت بأنه منذ أوّل خطاب للأزمة لم يكتفِ الرئيس ماكرون بالحديث عن المقاولات، بل تحدَّث كذلك عن الأُجراء والعُمَّال.

ليس بوسعنا الحديث عن صحوة التضامن الإنسانيّ أو الكونيّ، علماً أننا ككائنات بشريّة في مختلف الأقطار كنا نواجه نفس المشاكل أمام تدهور البيئة أو الاستهتار الاقتصادي. واليوم، ونحن في حالة عزلٍ صحيّ من نيجيريا إلى نيوزيلاندا، يجب أن ندرك أن مصائرنا مرتبطة

وهذا أوّل تحوُّل. ونتمنى أن يتحرَّر في نهاية الأمر من عالم المال: والأكثر من ذلك أنه أثار إمكانية تغيير النموذج التنموي.

هل نسير إذن نحو تغيير اقتصاديّ؟

- إن نظامنا القائم على التنافسية والربح يفضي في الغالب إلى تأثيرات وخيمة على ظروف العمل. فالاعتماد المُكثف على العمل عن بعد الذي فرضه العزل الصِّحيّ من شأنه أن يساهم في تغيير طريقة اشتغال المقاولات التي لا زالت شديدة التراتبية، أو استبدادية. كما أن الأزمة الحالية من شأنها أن تُسرِّع العودة إلى الإنتاج المحلّي والتخلّي عن الصناعات التي تنتج مواد غير قابلة لإعادة الاستعمال. وتعيد فرص الشغل للحرفيين، وفي ذات الوقت لتجارة القرب. ففي هذه الفترة التي ضعفت فيها النقابات العُمَّاليّة، فإن هذه المبادرات الجماعيّة هي التي بمقدورها أن تضغط لتغيير ظروف العمل.

هل نحن بصدد تحوُّل سياسيّ تتغيَّر فيه العلاقات بين الفرد والجماعة؟

- لقد كانت المصلحة الفرديّة تهيمن على كلّ شيء، وها هي المُبادرات التضامنية تنهض من جديد. لننظر إلى مجال المستشفيات، لقد كان هذا القطاع في حالة من التصدُّع والاستياء العميقين، ولكنه أظهر أمام تدفُّق المرضى تضامناً منقطع النظير. وقد استوعب الناس ذلك جيّداً، حتى وهم في عزلٍ صحيّ، بالتصفيق كلّ مساء لكلّ هؤلاء الأشخاص الذين يتفانون في خدمتهم. وهذا يُعدُّ من دون أدنى شكّ لحظة تقدُّم، على الأقلّ على المستوى الوطنيّ.

لكن بكلّ أسف ليس بوسعنا الحديث عن صحوة التضامن الإنسانيّ أو الكونيّ، علماً أننا ككائنات بشريّة في مختلف الأقطار كنا نواجه نفس المشاكل أمام تدهور البيئة أو الاستهتار الاقتصادي. واليوم، ونحن في حالة عزلٍ صحيّ من نيجيريا إلى نيوزيلاندا، يجب أن ندرك أن مصائرنا مرتبطة، شِئنا ذلك أم أبيناه. وهذه هي اللحظة المناسبة لبعث الحيويّة في إنسانيتنا، فما دمنا لا ننظر إلى البشريّة كجماعة ذات مصير مشترك فلا يمكننا أن ندفع الحكومات في اتجاه منحى التجديد.

ماذا يمكن أن نستفيد منكم كفيلسوف لكي نقضي هذه الفترة الطويلة من العزل الصِّحيّ؟

- فعلاً، بالنسبة للكثيرين منّا- نحن الذين نقضي معظم الوقت خارج بيوتنا- هذا العزل الصِّحيّ المُباغت يمكن أن يشكِّل إزعاجاً لايحتمل. أعتقد أن هذه يمكن أن تكون مناسبة للتدبُّر، ولمراجعة الأمور التافهة، والتي لا فائدة منها في حياتنا. يجب أن لا يُفهَم من كلامي أن الحكمة تقتضي أن يبقى المرء حبيس غرفته طيلة حياته. أنا أقصد أن يعيد المرء التفكير في طريقة استهلاكه وفي تغذيته. لعلّها فرصة مناسبة للتخلص من كلّ هذه الثقافة الاصطناعيّة التي نعرف عيوبها، إنه الوقت الملائم للتخلص من الإدمان. وهي مناسبة سانحة لكي ندرك هذه الحقائق الإنسانيّة التي نعرفها جميعاً، والتي توارت في لا وعينا، ألا وهي الحبّ والصداقة والتلاحم والتضامن، وهي التي تمنح للحياةِ معنى.

■ **حوار: فرانسيس لوكونت** □ **ترجمة: عبداللطيف القرشي**

المصدر: صحيفة المعهد الوطني للبحث العلمي (CNRS)، تاريخ 6 أبريل 2020.

إدغار موران:

العولمة تشابك يفتقد للتضامن

في هذا الحوار يُحلّل إدغار موران أزمة الصِّحة العالميّة الراهنة، ويشرح، كيف أن «الحجر الصِّحيّ العام يمكن أن يكون مفيداً للتخلّص من السموم العالقة بأسلوب حياتنا المُعاصِر».

ما هو الدرس الرئيسيّ الذي يجب تعلّمه في هذه المرحلة من جائحة فيروس كورونا؟

- تبيّن لنا هذه الأزمة أن العولمة مجرَّد تشابك يخلو من كلّ تضامن. لقد أنتجت حركة العولمة بالتأكيد وحدة تقنية واقتصاديّة للكوكب، لكنها لم تعزّز التفاهم بين الشعوب. منذ بداية العولمة في التسعينيات، اشتعلت الحروب وتفاقمت الأزمات المالية. المخاطر الكونية- البيئة والأسلحة النووية والاقتصاد غير المنظّم- جعلت الشعوب أمام مصير مشترك، لكن البشر لم يدركوا ذلك بعد. اليوم وضعنا الفيروس على الفور وبشكلٍ مأساويٍ أمام هذا المصير المشترك. فهل استوعبنا الدرس أخيراً؟ بسبب فقدان التضامن الدوليّ وغياب الهيئات المشتركة التي تسمح باتخاذ تدابير على نطاق الجائحة، نرى اليوم هذا الانغلاق الأناني للدول على نفسها.

تحدّث الرئيس الفرنسي ماكرون في خطابه عن خطر «الانطواء القومي»...

- لأوّل مرّة، هذا خطاب رئيس حقيقيّ. لم يكن الأمر يتعلَّق بالاقتصاد والأعمال فحسب، بل أيضاً بمصير جميع الفرنسيين، المرضى والعاملين في المستشفيات، والعُمَّال الذين أجبروا على البطالة الجزئيّة. إن تلميحه إلى ضرورة تغيير نموذج التنمية بداية لمرحلة جديدة. ومع ذلك، مقابلة الانطواء القوميّ بالانطواء الأوروبيّ ليس القرار المناسب، لأن أوروبا غير قادرة على التوحد في هذا الشأن. ما نشهده هو بداية تشكُّل تضامن دوليّ كان قد بدأه أطباء وباحثون من جميع القارات.

ما هي التغييرات التي يجب إدخالها برأيك؟

- يبيّن لنا فيروس كورونا بوضوح أن البشريّة جمعاء يجب أن تبحث عن مسار جديد يقطع مع المذهب الليبرالي الجديد من أجل مشروع سياسيّ واجتماعيّ وبيئيّ جديد. مهمّته حماية المسار الجديد وتطوير الخدمات العامّة مثل المستشفيات في أوروبا التي عانت من تخفيضات مجنونة في ميزانياتها لسنوات. سوف يصحِّح هذا المسار الجديد آثار العولمة من خلال إنشاء مناطق غير معولمة من شأنها حماية الاستقلال الذاتي الأساسيّ...

ما المقصود بـ «الحكم الذاتيّ الأساسيّ»؟

- أوّلاً، الاكتفاء الذاتي من الغذاء. في وقت الاحتلال الألماني مثلاً، كانت لدينا زراعة فرنسيّة متنوّعة جعلت من الممكن إطعام جميع السكان دون خوف من الجوع رغم الهجمات الألمانيّة. اليوم نحن بحاجة إلى إعادة التنويع. ثم نتحدَّث عن استقلالية صحيّة. اليوم، يتمُّ تصنيع الكثير من الأدوية في الهند والصين ونحن معرّضون لخطر نقص الإمدادات. يجب علينا إعادة كلّ ما هو حيويّ للأمة.

هل تؤدّي العولمة إلى تفاقم الأزمة الصّحيّة إلى أزمةٍ عامّة؟

- نحن نعيشها بالفعل. عندما يقرِّر بوتين الحفاظ على إنتاج النفط الروسيّ، هذا يؤدّي إلى انخفاض الأسعار في المملكة العربيّة السعوديّة والولايات المتحدة، حيث من المُحتمل أن تواجه تكساس صعوبات خطيرة، وربَّما تتسبَّب في خسارة ترامب للانتخابات الرئاسيّة...
يؤثر الذعر أيضاً على المُمولين، ممّا يتسبَّب في انهيار سوق الأسهم. نحن لا نتحكّم في هذه التفاعلات المُتسلسلة. إن الأزمة التي سبّبها الفيروس قد فاقمت الأزمة العامّة للمجتمعات التي جرفتها القوى غير المحكومة بأي سلطة.

إذا قارنا الوضع الراهن «بالأنفلونزا الإسبانيّة» 1918 - 1919 التي كانت موضوعاً لأومرتا حقيقية من جانب السُّلطات، اختار حكّام اليوم التعامل مع الأزمة بشفافية... أليس هذا تأثيراً إيجابياً للعولمة؟

- في زمن الأنفلونزا الإسبانيّة، لم نكن نريد أن يعلم الناس، وخاصّة المقاتلين، بخطورة الآفة. هذا التعتيم مستحيل اليوم. حتى النظام الصينيّ لم يتمكن من حجب المعلومات من خلال معاقبة البطل الذي أطلق ناقوس الخطر... لقد مكّنتنا شبكات المعلومات من أن نكون على علم بتطوُّر الحالة الوبائية حسب البلد. لكن ذلك لم يفضي إلى تعاون على مستوى أعلى. هناك مبادرات تعاون دولية عفويّة من الباحثين والأطباء فقط. لا تستطيع منظَّمة الصِّحة العالمية أو الأمم المتحدة توفير وسائل المقاومة لأكثر البلدان حرماناً.

البقاء في المنزل للضرورة يمكن أن يساعدنا على التخلّص من السموم التي علقت بنمط حياتنا وأن ندرك أن العيش الأفضل يكمن في تحقيق الـ «أنا»، ولكن دائماً داخل «نحن» المُتنوّعة

«نحن في حالة حرب»: غالباً ما تُستعمل هذه العبارة لوصف الوضع في إيطاليا وفرنسا. باعتباركم شاهداً على هذه الفترة. ماذا يلهمك هذا التشبيه؟

- في ظل الاحتلال، كانت هناك ظواهر من العزل والحجر الصِّحيّ في المنازل، كانت هناك غيتوات... ولكن الاختلاف الكبير هو أن إجراءات العزل فرضها العدو، بينما الآن يفرضون تلك الإجراءات على العدو، أي الفيروس. بعد بضعة أشهر من الاحتلال الألمانيّ، بدأت القيود على حركة التموين والتزوُّد. لم نصل إلى تلك المرحلة بعد، على الرغم من أن هناك بوادر ذعر. ولكن إذا استمرت هذه الأزمة، مع انخفاض نقل البضائع على المستوى الدولي، يمكننا أن نتوقَّع عودة تقنين الغذاء. هناك ينتهي التشابه. نحن لسنا في حرب من هذا النوع.

لأوّل مرّة منذ عام 1940 يتم إغلاق المدارس والجامعات...

- نعم، ولكن في ذلك الوقت، كان الإغلاق مؤقتاً للغاية. وقع إلحاق الهزيمة بفرنسا في يونيو/حزيران، عندما بدأت الإجازات الصيفية. وفي أكتوبر/تشرين الأول، أعيد فتح المدارس.

ماذا يمكن أن نتوقَّع من إجراءات العزل والتباعد الاجتماعيّ؟ الخوف؟ عدم الثقة بين الأفراد؟ أو، على العكس من ذلك، تطوير علاقات جديدة مع الآخرين؟

- نحن في مجتمع يشهد تدهور هياكل التضامن التقليديّة. من بين التحدّيات الكبيرة استعادة التضامن، بين الجيران، بين العُمَّال، بين المواطنين... ومع القيود التي نمرُّ بها، سيتمُّ تعزيز التضامن بين الآباء والأبناء الذين لم يعودوا إلى المدارس، بين الجيران... حاجياتنا الاستهلاكيّة سوف تتأثر، ويجب علينا الاستفادة من هذا الوضع لإعادة التفكير في النزعة الاستهلاكيّة، وبعبارة أخرى الإدمان، «الاستهلاك المخدر»، أي التسمُّم بمنتجات بدون فائدة حقيقيّة، وتجنُّب استهلاك الوفرة على حساب الجودة.

ربَّما ستتغيّر علاقتنا بالزمن أيضاً...

- نعم بفضل المكوث في المنازل، وبفضل هذا الوقت الذي يتوفّر لدينا، والذي لم يعد مجزئاً، وعلى مدار الساعة، هذا الوقت الذي أفلت من تدافع مترو العمل، ذهاباً وإياباً، يمكننا أن نجد أنفسنا، ونرى ما هي احتياجاتنا الأساسيّة، أي الحب والصداقة والحنان والتضامن وشعر الحياة... البقاء في المنزل للضرورة يمكن أن يساعدنا على التخلّص من السموم التي علقت بنمط حياتنا وأن ندرك أن العيش الأفضل يكمن في تحقيق الـ «أنا»، ولكن دائماً داخل «نحن» المُتنوّعة.

وأخيراً، هل يمكن أن تكون هذه الأزمة مفيدة بشكلٍ عكسي؟

- لقد تأثرت للغاية لرؤية هؤلاء النساء الإيطاليّات، على شرفاتهن، يغنين ترنيمة الأخوة «Fratelli d'Italia» («إخوة إيطاليا»). يجب أن نؤسّس للتضامن الوطنيّ، بعيداً عن الانغلاق والأنانية، المنفتح على وحدة مصيرنا «الدنيوي» ... قبل ظهور الفيروس، كان البشر من جميع القارات يعانون من نفس المشاكل: تدهور المحيط الحيوي، انتشار الأسلحة النووية، والاقتصاد غير المُنظَم الذي يزيد من حالة عدم المساواة... وحدة المصير موجودة، ولكن بما أن العقول متلهفة، وبدلاً من أن تدرك قيمتها، فإنها تلجأ إلى الأنانية الوطنيّة أو الدينيّة. بالطبع، التضامن الوطني ضروري، ولكن إذا لم ندرك أننا بحاجة إلى وعي مشترك بمصير الإنسان، إذا لم نعزِّز التضامن، إذا لم نغيّر التفكير السياسيّ، فإن أزمة الإنسانيّة ستسوء بالتأكيد. رسالة فيروس كورونا واضحة، ومن المؤسف أننا لا نريد سماعها.

■ **حوار: ديفيد لو بايلي وسيلفان كوراج □ ترجمة: عبد الله بن محمد**

المصدر: مجلّة «L'OBS» عدد 19/03/2020.

ألان تورين:
نعيش في عالم بدون فاعلين

ألان تورين، عالم الاجتماع الفرنسيّ من جيل بصم الفكر الغربي بشكلٍ واضح، كما كان له كبير التأثير على العلوم الاجتماعيّة ابتداءً من النصف الثاني من القرن العشرين وصولاً إلى بداية القرن الحادي والعشرين. مجال اهتماماته ودراساته امتدَّ ليشمل المعامل بعد الحرب العالميّة الثانية، والتي أوصلت البلد إلى المجتمع ما بعد الصناعي، وأيضاً دراسة الحركات الاجتماعيّة في ظلّ أزمة الحداثة. لقد أصبح ألان تورين مرجعاً أساسيّاً في إطار ما يُسمَّى في فرنسا «اليسار الثاني» ذو الطابع الاجتماعي - الديموقراطي والمناهض بكل وضوح للأنظمة الشموليّة أو الكلّيانية، وذلك بفعل مداخلاته في النقاش العموميّ، ليس فقط في فرنسا، وإنما أيضاً في دول أوروبيّة أخرى مثل إسبانيا، وكذلك في أميركا اللاتينيّة. عالم الاجتماع هذا، الحاصل على جائزة «Prince d'Asturies» للتواصل والإنسانيّات سنة 2010، خصّ جريدة «إلباييس - El Pais» الإسبانية بهذا الحوار عبر الهاتف، من مقرِّ حَجْره الصِّحيّ بباريس.

يقول «ماكرون Macron» و«بيدرو سانشيز Pedro Sanchez» و«دونالد ترامب Donald Trump» بأننا في حرب.. هل هذا صحيح؟

- بالمعني التقنيّ للكلمة، تضع الحرب الجيش «أ» وجهاً لوجه أمام جيش البلد «ب» الذي تمَّ احتلاله. لا بد من توفُّر بلدين على الأقلّ، وأن تكون المُواجهة بين كائنات بشريّة. في حين، أن ما نشهده هنا هو مواجهة بين ما هو إنسانيّ، وما هو غير إنسانيّ. أنا لا أنتقد استخدام كلمة حرب، إلّا أن هذه الحرب هي من دون مقاتلين. لا يوجد خبير استراتيجيّات: الفيروس ليس رئيس حكومة. ومن جانب ما هو إنسانيّ، أعتقد أننا نعيش في عالم بدون فاعلين.

بدون فاعلين؟

- الولايات المتحدة الأميركية تخلّت عن دورها كقائدٍ عالميّ. اليوم، لا يوجد أي شيء من هذا. وإذا ركّزنا على الدول الأقوى في أوروبا، نجدها غائبةً كلّياً. لم يعد هناك أحدٌ في قمة الهرم.

وفي الأسفل؟

- لا توجد حركة شعبويّة، وما لدينا الآن هو سقوط ما كان يخلق المعنى إبّان المجتمع الصناعيّ: إنها الحركة العماليّة. يعني هذا أنه لا يوجد اليوم فاعلون اجتماعيّون، ولا فاعلون سياسيّون، سواء على المستوى العالميّ أو الوطنيّ أو الطبقيّ. لذلك فإن كلّ ما يحدث الآن هو مناقض للحرب، حيث لدينا من جهةٍ، آلة بيولوجيّة، ومن جهةٍ أخرى أشخاص وجماعات بدون أفكار، بدون اتجاه، بدون برنامج، بدون استراتيجيّة، بدون لغة. إنه الصمت.

كلّ ما يحدث الآن هو مناقض للحرب، حيث لدينا من جهةٍ، آلة بيولوجيّة، ومن جهةٍ أخرى أشخاص وجماعات بدون أفكار، بدون اتجاه، بدون برنامج، بدون استراتيجيّة، بدون لغة. إنه الصمت

هل تتذكَّرون لحظةً شبيهةً بهذه في حياتكم؟

- ربَّما وُجِدَ نفس الإحساس خلال أزمة سنة 1929، وكنت قد وُلدتُ قبلها بقليل: الكلّ كان يختفي ولم يكن هناك أحدٌ، لا في إطار اليسار ولا داخل الحكومات. لكن، يصح القول بأن هذا الفراغ سرعان ما سيملؤه السيد «أدولف هتلر Adolf Hitler». وما أستغرب له أكثر اليوم، هو أنني لم أحس بفراغ كهذا منذ زمن جد بعيد. هناك نقص في الفاعلين إن لم نقل غيابهم كلّياً، وكذلك غياب الأفكار وحتى الاهتمامات: أفضل ما يستهوي الفيروس هم الأشخاص المُسنّون. لا يوجد دواء ولا لقاح حتى. ليست لدينا أسلحة، نحن عُزّل، سجناء الوحدة، معزولون، مهملون. يُمنع الاتصال ويُفرض علينا التزام البيوت. هذه ليست حرباً!

في سنة 1940، مع بداية الحرب الحقيقيّة، الحرب العالميّة الثانية، كنتم تبلغون من العمر أربعة عشر عاماً.. هل تتذكَّرون هذه اللحظة؟

- لا. في تلك اللحظة، بالنسبة لفتى فرنسي في عمري آنذاك، لم يكن هناك أمر أكثر ابتذالاً من حرب فرنسية - ألمانية. حدثت مواجهات بينهما مرّات عديدة في السابق. بعد ذلك، نعم، ترك الاحتلال آثاره على مرحلة شبابي كاملة. اليوم، الأمر مختلف: نعيش في ظلّ الفراغ، وقد تمَّ اختزالنا إلى مجرَّد عدم محض. لا نتكلّم، لا يجب أن نتحرَّك ولا أن نفهم.

كيف وصلنا إلى هذه الحالة؟

- لقد عشنا قرنين كاملين في إطار المجتمع الصناعيّ، في عالم يهيمن عليه الغرب منذ حوالي خمسمئة عام. اليوم اعتقدنا، وهذا كان صحيحاً طيلة الخمسين سنة الماضية، أننا كنا نعيش في عالم أميركيّ. ربَّما الآن سنعيش في عالم صينيّ، لكنني لست متأكّداً تماماً من ذلك. أميركا تغرق، والصين في وضعية متناقضة، لا يمكن أن تدوم للأبد: إنها تريد ممارسة الشمولية أو الكلّيانية الماوية لتسيير النظام العالميّ الرأسماليّ. نجد أنفسنا في عمقٍ وسط اللاشيء، في انتقال عنيفٍ ومفاجئ لم نستعد له بما يلزم ولم نفكّر فيه مسبقاً.

هل تتحدَّثون عن اللحظة الحالية، في ظلّ الحَجْر الصِّحيّ، أم عن عصرنا بشكلٍ عام؟

- أتحدَّث عنهما معاً. إلّا أنني أودُّ تقديم وجهة نظر شخص سجين. أنا نفسي لا أعرف أين أنا، ما دمت لا أملك حقّ الخروج إلى الشارع.

هل هذه الوضعية تبعثكم على القلق؟

- لا، لأن حياتي تقوم على البقاء بالبيت من أجل العمل. أشعر نوعاً ما، أنني محمي في ظلّ نفس الشروط، تماماً مثل الأيام الأخرى.

وأوروبا، أين هي من كلّ هذا؟

- هل سمعتم رسائل أوروبية كثيرة خلال هذه الأيام الأخيرة؟ أنا شخصيّاً لم أسمع. أنا من المُدافعين عن فكرة أوروبا حتى النخاع، وأحياناً بشكلٍ لا يخلو من مبالغة. إن انسحاب المملكة المتحدة ليس بالأمر الهيّن. وكذلك صعود معارضي الليبراليّة مثل «ماطيو سالفيني Matteo Salvini» في إيطاليا. هذا الوباء يأتي في مرحلة نجهل فيها أي شيء عن الـ«كيف» والـ«لماذا». ولعلّه من السابق لأوانه، معرفة ما يجب فعله فيما يخص الاقتصاد والسياسة، لا يُطلب منّا سوى أن نلزم بيوتنا. إننا نعيش في إطار اللامعنى، وأعتقد أن الكثير من الناس سيصبحون مجانين بسبب هذا اللامعنى.

في نظركم، هل ستكون هناك عودة للقوميّة والشعبويّة؟

- لكن كلّ هذا كان موجوداً سلفاً. اليوم، أمام أوروبا قراران أساسيّان. أوّلاً، التحرُّر من جانب النساء. يعني سقوط العقل في مركز الشخصيّة وإعادة تشكيل الانفعالات حول العقل والتواصل، أي مجتمع العناية (care). ثانياً، استقبال المهاجرين، والذي أعتبره مشكلاً وازناً. ذلك أن دولنا الأوروبيّة تتحدَّد اليوم بالنظر إلى موقفها من المهاجرين.

ألم يقلب الفيروس كلّ الأشياء رأساً على عقب؟ النتائج الاقتصاديّة، العادات الاجتماعيّة الجديدة مع المزيد من المسافة، أولويات أخرى...

- لا أعتقد. ستكون هناك كوارث أخرى. سيكون من المثير للاستغراب حقّاً عدم وقوع كوارث إيكولوجيّة على درجةٍ كبيرة من الخطورة خلال السنوات العشر القادمة، وهذه السنوات العشر الأخيرة كانت ضائعة. لننتبه، الأوبئة ليست هي كلّ شيء. وأعتقد أننا نلج مجتمعاً جديداً للخدمات، على حدِّ تعبير رجال الاقتصاد، لكنها خدمات بين البشر. هذه الأزمة ستبوّئ فئة المُعالجين مرتبةً أعلى: لا يجب الاستمرار في تلقيهم رواتب صغيرة ومتدنية. في نفس الوقت، ومع هذه الأزمة، هناك إمكانيات أو احتمالات كبيرة لأن تُحدث الصدمة الاقتصاديّة ردود فعل أصفها بأنها ذات طبيعة فاشيّة. لكنني لا أريد الحديث مطوّلاً وبإسهاب عن المستقبل، أُفضِّل، بدل ذلك، التركيز على الحاضر.

الآن، الفيروس هو الذي يحكمنا.

- لا، ليس الفيروس، وإنما عجزنا عن محاربته؛ إلّا أن ذلك سينتهي بمجرّد أن نوفّر لقاحاً مضاداً له.

□ ترجمة: محمد مروان

المصدر:

Nouveaux Latinos, 07 avril 202, traduit par Kaissa Aite.

فوكوياما:
سنعود إلى ليبرالية (1950 - 1960)

يحلل عالم السياسة الأميركي فرنسيس فوكوياما، استجابة الدول للجائحة، ونتائجها على مستقبل الديموقراطيّات. يعيش صاحب الكتاب الشهير «نهاية التاريخ»، في كاليفورنيا؛ أوّل ولاية أميركيّة وضع حاكمها في العزل الصِّحيّ. «فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama»، 68 سنة، كان في السابق مُقرَّباً من إدارة ريغان، يجر معه الشهرة المرهقة من كتابه الأوّل، نهاية التاريخ وخاتم البشر (1992)، الذي وُلِدَ من مقالٍ نشره غداة انهيار حائط برلين واختفاء الشيوعيّة. موضوعه يحتوي على تبسيطات متعدِّدة، واجهها صامويل هنتنغتون، الذي أجابه في 1993 بواسطة المقال «صدام الحضارات؟» الذي يحمل وجهة نظر مؤلمة وثقافيّة للتاريخ. لم يقدِّم نصّ فوكوياما مستقبلاً غريباً جدّاً وثابتاً كما قِيل: فقد أعلن فيه أن نموذج الديموقراطيّات الليبراليّة سيكون أفقاً من الصعب تجاوزه. في هذا الحوار، سنرى أنه ليس من المتحمسين لما تقدِّمه الصين من عروض أو ممَّنْ يرميهم بالحجارة. في كتابه الأخير: بداية التاريخ: في جذور السياسة إلى يومنا هذا، ألحَّ على البناء التدريجيّ للدولة: هذه هي عقيدته التي يؤكِّدها الوباء، وهي رؤية سياسيّة في الأساس مصحوبةً برفض النيوليبراليّة على طريقة الأب فريدمان.

قمتم بتشخيص انتصار الديموقراطيّات الليبراليّة بعد انهيار حائط برلين. ما الذي حدث لها لتقاوم الفيروس بشكلٍ سيئ؟

- لا أعتقد أن هناك ارتباطاً بين نوع النظام وجودة الاستجابة للفيروس. الاستثناء الوحيد هو الصين، التي خرجت منه بشكلٍ أفضل، لكن هناك شكّاً في الأرقام التي قدَّمتها، كما تركت الفيروس ينتشر خارج أراضيها. في داخل الأنظمة الديموقراطيّة، سيخرج البعض بشكلٍ جيّد، مثل كوريا الجنوبيّة، ألمانيا أو الدول الإسكندينافيّة، ودول أخرى بشكلٍ أسوأ، مثل إيطاليا، إسبانيا أو فرنسا. إذا كان من الضروري أن نبحث عن ارتباط، فيكون- بالأحرى- من جانب البلدان الشعوبيّة...

هل أنت متفاجئ من أن العدو الذي أضعف الغرب حقّاً هو «أنفلونزا»؟

- لا أعتقد أن الأمر مفاجئ، الأمر يتعلَّق- بالأحرى- بالأحداث المفاجئة التي لا نعلم متى تحدث، لكن حدوثها ممكن. يمكن مقارنة هذا النوع من الأحداث بالتغيُّر المناخي، حتى وإنْ كان إيقاع هذا الأخير أكثر بطئاً. يمكن أن نتخيَّل أن كلَّ بلد سيواجه صعوباتٍ كبيرة في معالجتها، مع العلم أنها جزءٌ من أفقنا.

أليس المعيار الأكبر في الاستجابة لهذه الجائحة هو قوة الدولة؟

- في الواقع، هذه هي النقطة الأساسيّة، كلُّ شيء يعتمد على قدرة الدول على تقديم إجابة تتعلَّق بالصِّحة العامّة والطوارئ، وأيضاً الثقة التي يضعها الشعب في هذه الدولة، في مسؤوليه وفي حكمتهم. يصبح السؤال من الآن فصاعداً: لماذا كانت بعض الديموقراطيّات سريعةً وفعَّالة، وأخرى لا؟ خط الانقسام الحقيقيّ سيرسم بين البلدان التي لها حكومة قويّة وسياسة صحيّة فعَّالة، مهما كان نهجها، والدول التي

لن نرمي من أيدينا النموذج الليبراليّ للاستسلام لصفارات أنظمة أكثر ديكتاتوريّة، لكن يجب تعديل التوازن بين الليبراليّة، الحماية الاجتماعيّة وتدخُّل الدولة مهما كان الثمن

لها حكومة ضعيفة، محرومة من تلك السياسة ستشهد كارثة...

نحن نعيش انتكاسة وحشية للعولمة، أي مستقبل تتوقَّع لها؟

- لقد وصلت العولمة أصلاً إلى حدودها قبل الجائحة، وكان هناك تفكير في كبحها، هذه الجائحة ستسرع هذا التفكير. إذا كانت عدّة مؤسَّسات ستعيد التفكير في سلاسل توريدها المتناثرة في زوايا العالم الأربع من أجل عقلنتها، سيكون سخيفاً الاعتقاد بأن كلّ المجال الاقتصادي سيعاود نشاطه للوصول إلى الاكتفاء الذاتي، العالم سيتراجع إلى مستوى التنمية الذي كان عليه قبل 50 سنة، وهو أمر غير ممكن. إن كان من المحتمل أن تنتكس العولمة، ستكون فقط مسألة درجة.

نشر جوزيف ستيغليتز مقالاً بعنوان «نهاية النيوليبراليّة وولادة جديدة للتاريخ». هل تؤمن بشفق هذا النظام؟

- في هذا المقال هاجمني ستيغليتز بجعلي أحد هؤلاء النيوليبراليّين، الأرجح بسبب كتابي نهاية التاريخ، ليس لأني وصفت هيمنة نظام - كما فعل الليبراليون الذين جعلوا الدولة عدواً لهم. أعتقد العكس، نحن نرى اليوم ذيل مذنب هذه النيوليبراليّة التي ماتت أصلاً، وسنعود إلى الليبراليّة التي وُجِدَتْ سنوات (1950 و 1960)، حيث تعايش اقتصاد السوق واحترام الملكية الخاصّة مع دولة فعَّالة تدخَّلت من أجل تقليص التفاوتات الاجتماعيّة والاقتصاديّة. مرّةً أخرى، ما كشفته هذه الجائحة، هو الحاجة لدولة قوية.

من أجل عكس عنوان كتابكم، سيكون إذن بداية تاريخ جديد؟

- يجب أن يكون الأمر محسوباً. لن نرمي من أيدينا النموذج الليبراليّ للاستسلام لصفارات أنظمة أكثر ديكتاتوريّة، لكن يجب تعديل التوازن بين الليبراليّة، الحماية الاجتماعيّة وتدخُّل الدولة مهما كان الثمن.

في عنوان كتابكم، «الرجل الأخير» إشارة إلى نيتشه، إلى الرجل العدميّ الذي ليست له «إرادة السُّلطة»، الذي يغرق في الملل والرفاهية الأمنيّة. هل نحن نعيش في هذا العالم؟

- هذا صحيح، خاصّة في المجتمعات الأوروبيّة أو الأميركيّة أين تبرز أنظمة أو محاولات شعبويّة. يعدون المجتمع بالوضع الراهن دون الاهتمام فعلاً بمخاوفه وكفاحه من أجل الحصول على وضع أفضل وعلى التقدير. حسب ما أعتقد، هذه الموجات الشعبويّة هي دليل إضافي على أننا نعيش «نهاية التاريخ»، لأنها تكرِّر أفكاراً كانت موجودة أصلاً، كالقوميّة والفاشيّة، بشكلٍ أضعف. لكن تكرار الأفكار هذا ينطبق أيضاً على الديموقراطيّة الاجتماعيّة.

شهدت فرنسا جدلاً واسعاً حول الأقنعة: تبعاً لأوامر منظمة الصِّحة العالميّة. لقد أهملنا سيادتنا في هذه المسألة ووجدنا أنفسنا نفتقر إليها. ماذا عن الو.م.أ؟

- لدينا نفس القلق، بل يبدو أسوأ. تمَّ تشخيص هذا الغياب للأقنعة وأجهزة التنفس منذ يناير/كانون الثاني، لكن لم يُتخذ أي قرار لإنتاجها. هذا دليل على أن الدولة من أجل أن تستمر بحاجة أولاً إلى خبراء، فريق عمل محايد مُخصَّص للصالح العام، ثم مسؤولين يسمعون إليهم ويقرِّرون بناءً على ذلك... □ **ترجمة: عثمان عثمانية**

العنوان الأصلي والمصدر:

Fukuyama: «Nous allons revenir à un libéralisme des années 1950 - 1960».
Propos recueillis par François-Guillaume Lorrain.
Le point, N° 2485 (9 Avril 2020): pp.91-93.

إيمانويل كوكيا:

الفيروس قوة فوضويّة للتحوُّل

منذ بداية وباء (كوفيد - 19)، غزت الفيروسات الأجساد والعقول. لكن أي نوع من الكائنات هي؟ بالنسبة لإيمانويل كوكيا، الفيلسوف والمحاضر في كلية الدراسات المتقدِّمة في العلوم الاجتماعيّة بفرنسا، فإن الفيروسات هي قبل كلّ شيء قوة تحوُّل. بانتقالها من مخلوقٍ إلى آخر، تشهد على أن أصل الحياة واحد. في هذه المقابلة، يطرح الفيلسوف فكرته من زاوية مختلفة، ربَّما للتخفيف من القلق جرَّاء العدوى.

إيمانويل كوكيا ▲

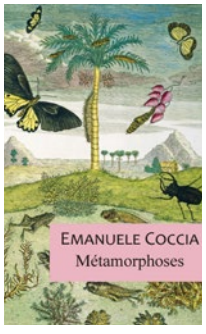

في كتابك الأخير «التحوُّلات»، تؤكِّد بأن جميع الكائنات الحيّة تنطلق من حياة واحدة، تتحوَّل إلى ما لا نهاية. أليس هذا ما نشهده جميعاً مع هذا الوباء؟

- آخر صفحتين من «التحوُّلات» خصّصتهما للفيروسات. أرى بأن الفيروسات هي الطريقة التي يتحقّق بها المستقبل في الحاضر. الفيروس، في الواقع، قوة نقية من التحوُّل الذي ينتقل من حياة إلى أخرى دون أن يقتصر على حدود الجسم. حر، فوضوي، غير مادي تقريباً، لا ينتمي إلى أي فرد، لديه القدرة على تحويل جميع الكائنات الحيّة ويسمح لها بتحقيق شكلها المُميَّز. أعتقد أن جزء من حمضنا النووي، ربَّما حوالي 8 %، من أصل فيروسي! الفيروسات هي قوة التجديد والتعديل والتحوُّل، ولديها إمكانية للاختراع الذي يلعب دوراً أساسياً في التطوُّر. إنها دليل على أن هويّاتنا الجينية كانت نتيجة لتداخلات متعدِّدة. أستحضر هنا ما ذكره جيل ديلوز، «نحن نصنع جذوراً مع فيروساتنا، أو بالأحرى فيروساتنا تجعلنا نمد الجذور مع الكائنات الأخرى». من وجهة النظر هذه، فإن المستقبل يشبه مرض الهويّة، وسرطان الحاضر: إنه يجبر كلّ الكائنات الحيّة على التحوُّل. عليك أن تمرض، وتسمح لنفسك بالتقاط العدوى، وربَّما الموت، حتى تمضي الحياة في مسارها وتصنع المستقبل.

قد تبدو هذه النظرة إلى الأشياء أكثر إزعاجاً بدلاً من الطمأنة...

- من الواضح أن القوة التحويلية للفيروسات لديها شيء مخيف في الوقت الذي نجح فيه (كوفيد - 19) في تغيير عالمنا بشكلٍ عميق. سيتمُّ التغلب على الأزمة الوبائية في نهاية المطاف، ولكن ظهور هذا الفيروس قد غيّر أنماط حياتنا وواقعنا الاجتماعيّ وتوازناتنا الجيوسياسيّة. ينتج الكثير من الألم الذي نعيشه اليوم عن إدراكنا بأن أصغر كائن حيّ قادر على شلّ أفضل حضارة بشريّة مجهزة من وجهة نظر تقنية. أعتقد أن هذه القوة التحويلية لكائن غير مرئي تثير تساؤلات حول نرجسيّة مجتمعاتنا.

بمعنى؟

- لا أفكر فقط في النرجسيّة التي تجعل الإنسان سيّد الطبيعة، ولكن أيضاً ما يقودنا إلى أن ننسب للإنسان قوة مدمّرة وحصريّة على التوازنات الطبيعيّة. نحن متميّزون ومختلفون واستثنائيون في الكون، هكذا نعتقد، رغم الضرر الذي نلحقه بالكائنات الحيّة الأخرى. ومع ذلك، فإن قوة التدمير هذه، تماماً مثل قوة التوالد، موزَّعة بشكلٍ عادل على جميع الكائنات الحيّة. الإنسان ليس الكائن الوحيد القادر على تغيير الطبيعة. أي بكتيريا أو فيروس أو حشرة يمكن أن يكون لها تأثيرٌ كبيرٌ على العالم.

هل ينبغي أن يدفعنا الوباء الحالي إلى تغيير تفكيرنا في الطبيعة؟

- لا تزال البيئة المُعاصِرة تتغذَّى من خيال تظهر فيه الأرض كمنزل الحياة. هذه الفكرة مُضمَّنة في كلمات علم البيئة والنظام البيئيّ: oikos، باليونانيّة، تعني المسكن، المجال المحليّ المُنظم جيداً. في الواقع، الطبيعة ليست مجال التوازن الدائم، حيث يكون الجميع في مكانهم. إنها مساحة للاختراع الدائم للكائنات الحيّة الجديدة التي تخلّ بالتوازن. تهاجر جميع الكائنات، وتحتلّ جميع الكائنات منازل الآخرين. هذا هو، في الأساس، جوهر الحياة.

أكثر من الخوف من الفيروس، هل يكشف المناخ الحالي عن الخوف من الموت بالنسبة لك؟

- بالتأكيد. من الطبيعيّ أن تخاف من الموت وتتجنّبه قدر الإمكان. ومن الطبيعيّ اتخاذ إجراءات لحماية المجتمع وخاصّةً أفراده الأكثر هشاشة. لكن ما وراء الأزمة التي نمر بها، تميل مجتمعاتنا إلى مكافحة الموت والتفكير في الحياة الفرديّة من حيث المطلق. ورغم ذلك، فإن الحياة التي نعيشها لا تبدأ بلحظة ميلادنا: إنها حياة أُمنا التي امتدَّت إلينا وستستمر مع أطفالنا. نحن نستمد الجسد، والنفس، والذرات من أمنا التي حملتنا في بطنها تسعة أشهر. تنتقل الحياة من جسدٍ إلى آخر، من الأنواع إلى الأنواع، من مملكة

إلى مملكة من خلال الولادة والتغذية، ولكن كذلك والأهم الموت. وبحكم النفس الذي نتقاسمه (البشر، والحيوانات، والنباتات، والفطريات، والفيروسات، وما إلى ذلك)، والموت الذي نفضي إليه: الحياة التي في داخلي يمكن أن تصبح حياة جديدة لكائن آخر بعد أن أفقدها.

إنه نهج تحرُّري، ولكنه مقلق في البداية، أليس كذلك؟

- الحياة بحدِّ ذاتها تثير القلق والغموض! كلّ الحياة هي إمكانية للخلق، والاختراع. كلّ حياة قادرة على فرض نظام جديد، منظور جديد، طريقة جديدة للوجود. لكن هذا الانفتاح على الجديد ينطوي دائماً على جزء مظلم ومدمّر. يكفي التفكير في الحقيقة الأولية للأكل: حياتنا مبنية حرفياً على جثث الأحياء. جسدنا مقبرة لعددٍ لا نهائي من الكائنات الأخرى. ونحن أنفسنا سنستهلك من قِبَل الأحياء الآخرين. مع الفيروس، ندرك أن هذه القوة المذهلة للحداثة لا ترتبط بميزة محدَّدة، على سبيل المثال في الحجم، أو في القدرات الدماغية. بمجرَّد أن تكون هناك حياة، بغض النظر عن مكانها في شجرة التطوُّر، فإننا نشهد على قوة هائلة قادرة على تغيير وجه الكوكب.

نحن لسنا كائناً حيّاً واحداً، بل شعباً، أشبه بحديقة حيوانات متنقّلة. والأعمق من ذلك، عدد كبير من الكائنات غير البشريّة- بدءاً بالفيروسات- ساهم في تشكيل الكائن البشريّ وشكله وبنيته

لذلك هل يجب أن نتخلّى عن الفكرة التقليديّة لتسلسل الأنواع؟

- بالطبع. نفترض تلقائياً أن الحيوان متفوِّق على النبات، والنبات على البكتيريا، وما إلى ذلك. ومع ذلك، فإن أصغر أشكال الحياة ليست هي الأشكال الأساسيّة أو الأكثر بدائية. لم يحتفظ أي كائن حيّ بالشكل الذي كان عليه منذ ملايين السنين. وراء كلّ كائن حيّ تاريخ الألفية الذي يشمل كائنات أخرى. يرتبط تطوُّر الفيروسات، على سبيل المثال، بتطوُّر الكائنات الحيّة الأخرى، لأنها تتغذَّى على أجزاء من الحمض النووي.

ما المُميّز في حالة الفيروسات؟

- بداية، هناك نقاشات أعتقد أنه لن يتمَّ الاتفاق بشأنها أبداً: هل الفيروسات كائنات حيّة؟ هذا النقاش النظريّ، في اعتقادي، سؤال ضعيف طرحه. في الواقع يوجد دائماً غير الأحياء في الأحياء. نحن مخلوقون من نفس مادة الأرض؛ لدينا بنية جزيئية تتكوَّن من عنصرٍ معدني. لذلك فإن كتاباً جميلاً للغاية من تأليف توماس هيمز يقترح التحدُّث عن «ما دون الأحياء» بدلاً من عدم الأحياء. يتم اختزال الفيروسات تقريباً إلى DNA أو RNA - باختصار، هي مادة وراثية. ليس لديها بنية خلية - النواة، الميتوكوندريا، وما إلى ذلك. هذا مدهش، لأن الخلية غالباً ما تمرُّ بالوحدة الأساسيّة المشتركة لجميع الكائنات الحيّة. حتى البكتيريا لها بنية خلويّة، رغم أنها محدّدة للغاية. ومع ذلك، تحتاج الفيروسات إلى الاعتماد على تركيبة بيولوجية أخرى أكبر للتكاثر: «تخترق» خلايا الكائنات الحيّة الأخرى وتعطيها تعليمات جينية جديدة لتتكاثر.

ما رأيك في استعارة فيروس الكمبيوتر؟

- أعتقد أنه يجب أن نقلبها: كلّ معلومة هي فيروس. جميع المعلومات تأتينا من مكانٍ آخر. بنفس المعنى، يمكن القول إن اللّغة والفكر منظمان مثل الجينات: كلّ فكر يمكن تقسيمه إلى عناصر بدرجاتٍ متفاوتة من التعقيد، ويمكن أن ننقلها، تماماً مثل الجينات. هذا يسمح لعقول أولئك الذين يستقبلونها بالتفكير في نفس الشيء، أو القيام بنفس الإيماءة - في سياقٍ جديد.

هل يجب أن نعترف بأن الفيروسات جزءٌ من الكائنات المُتعدِّدة التي تسكننا؟

- أجسامنا تحمل كميّة لا تصدَّق من البكتيريا والفيروسات والفطريات، كائنات غير بشريّة. 100 مليار بكتيريا من 500 إلى 1000 نوع تستقر فينا. أكثر من عدد الخلايا التي يتكوَّن منها الجسم بعشر مرّات. باختصار، نحن لسنا كائناً حيّاً واحداً، بل شعباً، أشبه بحديقة حيوانات متنقِّلة. والأعمق من ذلك، عدد كبير من الكائنات غير البشريّة- بدءاً بالفيروسات- ساهم في تشكيل الكائن البشريّ وشكله وبنيته. وبالتالي فإن ميتوكوندريا خلايانا، التي تنتج الطاقة، هي نتيجة دمج البكتيريا. يجب أن يقودنا هذا الدليل العلمي إلى التشكيك في جوهرية الفرد، والفكرة بأنه كيانٌ منطوٍ على نفسه، ومغلق على العالم والآخر، ولكن يجب علينا أيضاً التخلُّص من تعميم الأنواع...

■ حوار: أوكتاف لارمانياك - ماثرون □ ترجمة: مروى بن مسعود

المصدر:
مجلّة «Philosophie magazine» (مارس 2020)

في ظلال كوفيد

حق «الحياة العارية»

فيما يقبع ما يُقارب نصف سكّان العالم وراء جدران بيوتهم، وتُقفر الشوارع من سكانها، وتحطُّ الطائرات في مهاجعها، ويكفُّ العالم عن الحركة، تبدو البشريّة وكأنها على أهبة قطيعة تاريخيّة مع ماضيها وحاضرها. لقد أجبرها فيروس كورونا (حاكم الأرض الجديد كوفيد- 19) على تغيير عاداتها، والتنازل عن حرّيّاتها، وإدارة الظهر لمفهوم الحقوق الأساسيّة، الذي أشاعه التنوير الأوروبيّ، وصادقت عليه المبادئ التي وضعتها الأمم المتحدة.

فخري صالح

فما شهدناه، في إيطاليا وإسبانيا وبريطانيا وأميركا، وغيرها من الدول، من ترك كبار السنّ يموتون في بيوت المُسنين دون مدّ يد العون لهم، لأن النظام الصّحيّ يعاني من الانهيار، ومن الصعب توفير أجهزة تنفس لكلّ المرضى، يشير إلى حقيقة فاجعة - إضافة إلى حقائق عديدة أخرى على رأسها هشاشة الأنظمة الصّحيّة في بلدان العالم الأول- هي قدرة العالم المُعاصِر على غض البصر عن الالتزام بالمحافظة على حقِّ الحياة بوصفه الحقّ الأساسيّ الأوّل لكلّ إنسان يعيش على هذه الأرض، بغض النظر عن عرقه أو طبقته أو ديانته، أو معتقده الأيديولوجيّ؛ والأهمّ ممّا سبق كلّه، بغض النظر عن فئته العمرية، فالمُسن مثله مثل الشاب يتمتع بحقّ الحياة، وتُعَدُّ مساعدته للحفاظ على هذا الحقّ إلزاميّة. لكننا نشهد للأسف تضحية بهذا الحقّ في أعرق الديموقراطيّات الغربيّة، وكذلك في الدول التي تحكمها أنظمة ديكتاتوريّة أو شبه ديموقراطيّة. إننا نرى ونسمع عن آلاف المُسنين، وكذلك المُصابين بذبحاتٍ صدريّة حادة، يموتون لأن الجهاز الصّحيّ في بلدانهم على شفا الانهيار، وهو لا يملك مدّ يد المساعدة إليهم، فهناك مرضى أولى بالمُساعدة، ممَّنْ يقبعون في المشافي أو من الشباب الذين همّ الأقوى، و«الأصلح»، والأكثر قابلية للشفاء. إننا نعبر عصراً يتسلح بمفاهيم وقيم داروينية جديدة تضرب عرض الحائط بكلّ ما دعت إليه فلسفة الأنوار وشرعة حقوق الإنسان. وهو أمرٌ مخيفٌ، بل مثيرٌ للفزع، أن تنحدر الإنسانيّة إلى هذا الدرك من سُلَّم القيم. يجادل الفيلسوف الإيطالي «جورجيو أغامبين Giorgio Agamben» (مواليد 1942) في مدى أحقية تفضيل ما يسمّيه «الحياة البيولوجيّة» على بقية الحيوات الأخرى، السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، قائلاً إن ذلك يندرج ضمن التصوُّر الغربيّ لما يسمّيه «الاستثناء». يكتب أغامبين معترضاً: «إن أول الأشياء التي تكشف عنها هذه الموجة من الفزع التي أصابت بلادنا بالشلل هي أن مجتمعنا لم يعد يؤمن بأي شيء يتجاوز الحياة العارية... فنحن في هلعنا ذي الطابع الهستيريّ، نمارس جهداً جباراً لتجنُّب الأذى الجسدي. وبذلك عرَّضنا أنفسنا لخسارة نظام أرفع شأناً (من الحياة البيولوجيّة): لقد ضججنا بالعمل، والصداقة، والعائلات الممتدة، والطقوس الدينيّة (وعلى رأسها الجنازات)، والانتماءات السياسيّة. ونحن بذلك قد نحافظ على أنفسنا بيولوجيّاً، لكننا نضحي بكلّ ما يجعل للحياة معنى، بما يجعلها تستحق أن تُعاش».

بغض النظر عن وجاهة ما يقوله أغامبين بخصوص التضحية بأشكالٍ أساسيّة من الوجود الإنسانيّ لصالح ما يسميه «الوجود العاري»، المتمثّل، في الحفاظ على مجرَّد العيش واستمرارية الحياة، فإن ما يقوله يندرج ضمن نوع من الهرطقة النظريّة، التي تُعلي من شأن النظريّة على حساب الحقّ الأساسيّ في العيش. ففي الوقت الذي تتعرَّض فيه البشريّة لتهديد وجودي يتصل بفناء أعدادٍ كبيرة من أفرادها، سواء أكانوا مسنين أم شباباً، مرضى أم أصحاء، لا يكون هناك معنى للحديث عن «الحياة العارية» في مقابل أنواع من الحيوات أكثر غنى وتمثيلاً لمعنى الوجود الإنسانيّ. وإذا استعملنا نظريّة أغامبين نفسه فإن ما تمرُّ به البشريّة هو «الاستثناء» The Exception، فلكي نحافظ على أنواع الحيوات الأخرى «الأكثر غنى» علينا

أن نحافظ على الحياة البيولوجيّة، أو «الحياة العارية» Bare Life، إذ بانتفاء «الحياة العارية» لن تكون هناك حيوات أخرى، ويصبح الحديث عنها نوعاً من الهلوسة النظريّة التي يتَّسم بها النقاش الفلسفيّ في بعض مدارس ما بعد الحداثة.

صحيحٌ أن القوانين الاستثنائية التي تُفرض الآن، في طول العالم وعرضه، بل في أعرق الديموقراطيّات في العالم، تندرج في سمة «الاستثناء»، التي تمثِّل في فلسفة أغامبين طابع الحضارة الغربيّة، حيث تكتسب الأنظمة في أزمنة الأزمات سلطات أكثر قوة وتتعطل الحياة الدستوريّة. ويتمثل هذا «الاستثناء» في إجراءات الحَجْر الصِّحيّ، ومنع التجوُّل، ونزول قوات الأمن والجيوش إلى الشوارع، حيث يجري خنق الحرّيّات الأساسيّة وتقليصها والاعتداء عليها، بصورة من الصور، وإحلال قوانين عرفية محل القوانين الطبيعيّة. وهو الأمر الذي يجعل الفيلسوف السلوفيني «سلافوي جيجيك Slavoj Zizek» (مواليد 1949) يتخوَّف من وباء السلطويَّة وشيوع الاستبداد، متوقعاً أن تنشأ في أوروبا: «بربرية جديدة بوجهٍ إنسانيّ- حيث تُفرض قيودٌ صارمة لا ترحم من أجل البقاء- تلجأ إلى آراء الخبراء لاكتساب مشروعيتها». لكن مع أخذ ملاحظات كلّ من أغامبين وجيجيك في الحسبان، فالبشريّة كلّها، وعلى رأسها الديموقراطيّات الغربيّة، تواجه مرحلةً فاصلةً في تاريخها، والحفاظ على الحياة، بمعناها الأولي العاري المتصل بالوجود البيولوجيّ، يعلو على أي نقاشٍ آخر في هذه الفترة العصيبة التي تعبرها الإنسانيّة. وهو ما يشدِّد عليه الفيلسوف الألماني «يورغن هابرماس -jurgen Haber mas» (مواليد 1929) قائلاً إن حماية ما يسمّيه «الحياة الضروريّة» تمثّل الآن أولوية كونية تعلو على أي حسابات نفعيّة، أو أضرار اجتماعيّة أو سياسيّة أو اقتصاديّة قد تتسبب بها القوانين الاستثنائيّة التي تتخذها الدول للحفاظ على حياة الناس. «مع اتخاذ القرار بشأن الوقت المناسب لإنهاء الحَجْر الصِّحيّ، فإن حماية الحياة الضروريّة على المستوى الأخلاقيّ، وكذلك على المستوى القانونيّ، قد تبدو متناقضة مع منطق الحسابات النفعيّة، مما يعني أنه عند الموازنة بين الضرر الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ من جهةٍ، والوفيات التي يمكن تجنُّبها؛ يجب على السياسيّين مقاومة إغراء الحسابات النفعيّة». من جهةٍ أخرى فإن احتمال تحوُّل حالة الطوارئ إلى قاعدةٍ أمر يهدِّد الأنظمة السياسيّة الديموقراطيّة في العالم، وهو ما يجعل من الحفاظ على الحياة الضروريّة نوعاً من العبور إلى نظم استبداديّة وتوتاليتاريّات تتخذ من حماية حياة الناس جسراً للهيمنة والسيطرة على الحياة السياسيّة والاجتماعيّة لهؤلاء الناس. ولهذا يُنبِّه هابرماس إلى «أن تقييد عددٍ كبيرٍ من حقوق الحرّيّة المُهمَّة يجب أن يظلَّ مرتبطاً لمدة محدودة جدّاً، ولكنه إجراء مطلوب كأولوية للوصول إلى الحقِّ الأساسيّ في الحياة والسلامة الجسدية، وإنْ كان البعض قد يستغله لغايات سياسيّة».

رغم التحوُّطات السابقة التي يذكرها هابرماس، وهو الفيلسوف اللامع الذي قدَّم نقداً لاذعاً للحداثة، فإنه ينتصر لمبدأ الحياة الضروريّة، ويشدِّد على كون هذا الوضع، الذي تمرُّ به الإنسانية - في زمن انتشار (كوفيد - 19) الأسطوريّ، والكارثيّ، الذي يصعب تخيُّله قبل تصديقه، في جهات الأرض الأربع، عابراً حدود الدول، التي اضطرَّت إلى عزل نفسها وغلق حدودها، وكذلك منع الحركة بين مدنها، من جهةٍ، وبين مدنها وأريافها، من جهةٍ أخرى- هو الاستثناء لا القاعدة. لكن هل يتحقَّق بالفعل توقع هابرماس، أو أمله، أو رغبته، في عودة الإنسانيّة إلى ما كانت تعده «طبيعيّاً»؟ أم أننا نعبر إلى زمن تكون فيه الإنسانيّة قد عادت القهقرى إلى عصورِ الاستبداد التي تُخنَق فيها الحرّيّات وتسود فيها الصراعات التي قد يشعلها الجوع وفقدان الوظائف وازدياد التقاتل على الموارد في عالم تبدو فيه الديموقراطيّة مجرَّد قشرة خارجيّة طوَّح بها وباء كورونا إلى عالم النسيان؟ إنها أسئلة برسم المُستقبل القريب.

إصدارات واكبت الجائحة

الأوبئة: مخاطر حقيقيّة وإنذارات كاذبة

(ديدييه راوول)

الجمرة الخبيثة، الشيكونغونيا، الإيبولا، أنفلونزا الطيور، السارس، كورونا ... جميع التكهنات في كلّ هذه الأوبئة كانت تشير إلى ملايين الوفيات: لكن لم يسجّل إلّا القليل. فهل الأمر مختلف مع فيروس كورونا الذي يرعب العالم؟

حالة الذعر تعود بالأساس إلى المبالغة والتهويل في الإعلام، الذي يدرك جيّداً أن الخوف «يُباع» بسهولة. لكن عندما نرى قادة العالم يركبون بدورهم موجة الأسوأ، حينها يمكن أن تكون العواقب بعيدة المدى وخيمة. نحن نتعامل مع الأحداث التي يكافح العلم لتفسيرها، مثل الانتقال السريع للأوبئة في بدايتها، واختلافها الموسمي واختفائها التلقائي دون سببٍ واضح. في ظلّ هذه الظروف، فإن التصريح بعدد الحالات الجديدة والوفيات كلّ يوم يكون مثل الفزاعة، لا يؤدّي إلّا إلى إثارة ردود فعل غير متناسبة مع المخاطر الحقيقيّة التي، رغم ذلك، لا يجب تجاهلها في نفس الوقت.

أميركا في زمن الكورونا

(جان إريك برانا)

في 20 يناير/كانون الثاني 2020 نشرة الأخبار تُذاع ولا أحد تقريباً يبالي بما يحدث: في مدينة ووهان وسط الصين القارية، والتي يبلغ عدد سكّانها 11 مليون نسمة، فيروس غامض يقتل شخصاً ثالثاً. ورغم ذلك، لا أحد ينتبه للخطر. والمسؤولون يؤكّدون بأن خطر انتقال الفيروس من شخص لآخر «منخفض».

تبدأ شرطة الحدود الأميركية إجراءات الرقابة على الرحلات الجوية من الصين، خاصّة إلى سان فرانسيسكو ومطار كينيدي في نيويورك.

ولكن بالنسبة لعامّة الأميركيين، فإن الوباء الناشئ في الصين ليس موضوع حديث، ودونالد ترامب بعيد جدّاً عن المواضيع الصّحيّة أو الطبيّة في دافوس، مشيداً بنجاحاته الاقتصاديّة، ومفاخراً بكونه على رأس بلد «اقتصاده يزدهر أكثر من أي وقتٍ مضى».

وبسرعة تصبح الأرقام جديّة، ثم مقلقة، حيث ينتشر الفيروس الغامض في جميع أنحاء الكوكب. إيران، وإيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وقادة جميع الدول غارقون، الواحد تلو الآخر، وبدأ القلق يتصاعد أيضاً بين الأميركيين. وأخيراً غرَّد دونالد ترامب برسالة وحيدة: «لا تقلقوا!» لكن الأحداث المتسارعة قد تجاوزته. الخوف في كلّ مكان، والعالم أيقن أخيراً أن (كوفيد- 19) لن تكون له عواقب صحيّة فقط: يمكن أن يغيِّر خارطة المجتمع الأميركي بالكامل، ومستقبل القوّة في النهاية...

الربيع سوف يعود، أعدكم

(بابسي بيزيو)

وباء من الصين يستقرُّ في أركان العالم الأربعة، وفي خضم سوء الفهم العام، معظم سكّان العالم في منازلهم محاصرون. كلّ ذلك بسبب بانجولين أو ثلاثة خفافيش؟ لا أحد يصدق ذلك... نحن نواجه وباء الأكاذيب والرقابة... بين حرب الأسهم والذهان العام، تواجه البشريّة حالة لا مثيل لها في المئة سنة الأخيرة... التكهنات التآمرية في كلّ مكان، هل هذا الوباء القاتل اختبار؟ تجربة؟ عرض للقوة؟ هل صنع هذا الفيروس في المختبر؟ هل نحن تحت تهديد هجوم كيميائي حيوي؟ هل ضغط الإرهابيون البيولوجيون على الزر؟ هل انطلقت الحرب العالمية الثالثة؟ كلّ أوجه عدم المساواة بين البشر في مواجهة هذه الأزمة... شيء واحد مؤكّد، لهذا الوباء نهاية كارثية. هل من خلاص؟ هل هو درس لكوكب الأرض؟ أم انتقام من الطبيعة؟ تدرك الشعوب أخيراً أن الإنسانية تركب في نفس القارب... صفعة للرأسمالية، حتى في الدول العظمى يفتقرون إلى كلّ شيء... إعادة التفكير في عالم جديد أمر لا مفرّ منه... عجز الدول الكبرى والمختبرات الكبرى... لا خطة «ب»، لا خطة ملموسة، ماذا لو كان هذا الفيروس متحوِّلاً بشكلٍ أكثر ضراوة... ثم السؤال الحقيقي: مَنْ سيدفن آخر القتلى؟

«كوفيد - 19».. الأكاذيب والحقائق

(ميشيل مولر)

في نهاية عام 2019، ظهر فيروس كورونا في سوق للحيوانات في ووهان. غزا مقاطعة صينية ثم آسيا. بعد شهرين، انتشر الوباء إلى إيطاليا وتحوَّل إلى جائحة. ثلاثة مليارات شخص محاصرون. إنها واحدة من أكبر الفضائح الصّحيّة التي عرفتها البشريّة. تتسبَّب الحيوانات البرية التي يتمُّ تربيتها أو بيعها في أسواق غير صحيّة في انتشار الأوبئة المُتكرِّرة في الصين. لم تتعلَّم الحكومات الغربية من الأوبئة الماضية ولم تعد لها ما يلزم. في فرنسا، أكّدت السُّلطات أن الأقنعة عديمة الفائدة للمرضى، ولا يمكنها حماية الشرطة والمصرفيين وحرَّاس الأمن وجميع المسؤولين الحكوميين الذين يتواصلون مع العامّة. الأمل الوحيد يكمن في اكتشاف البروفيسور ديدييه راوول عن علاج تعطيل الفيروس. لكن البروفيسور كان بدوره ضحية تشويه من بعض زملائه ممَّنْ يرغبون في إثبات عدم جدوى العلاج. وأخيراً تدخَّل إيمانويل ماكرون لبدء التجارب السريرية على الحالات المُبكِّرة. يستنكر المؤلِّف قصر نظر صُنَّاع القرار وتردّدهم في بداية الوباء. أدَّت القرارات المتأخِّرة إلى اندفاع المواطنين إلى المتاجر وازدحام في المحطات، حتى انتقل هذا الفيروس، بسبب حركة النزوح، إلى المناطق النائية التي تفتقر للنظم الصّحيّة.

رفع الحجاب بسقوط الأقنعة

(أورليان ميلو)

العالم في حالة توقُّف مؤقَّت، لكن الكوكب يواصل الدوران. لقد حان الوقت لفترة من

التأمُّل في ما لا يبدو أنه يسير على ما يُرام. يحمل فيروس العولمة الآن اسماً مشهوراً: كورونا. ورغم ذلك، فهذه مجرَّد أعراض مرتبطة بمجتمع يبدو أنه يتأثر بالسرطان المُعمّم في مرحلته النهائية. بمساعدة الطب الصينيّ التقليديّ، سننشئ تشخيصاً عالمياً بسبب اختلال في التوازن على جميع المستويات: الاقتصاديّ والاجتماعيّ والبيئيّ. «نهاية العالم» تعني «النبوءة»، ورفع الحجاب، يعني الوهم. ويرى أورليان ميلو أن التفكير بوضوح في الواقع خطوة أولى على طريق التعافي. يستهل المؤلِّف كتابه باندفاعة عميقة للأمل، يتمنّى الكاتب أن تكون معدية قدر الإمكان. اليوم، أصبح للإنسانية تاريخٌ مع إنسانيتها.

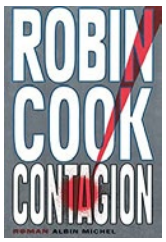

عندما ينتشر الوباء غير المبرَّر

(روبن كوك وبرنارد فيري)

عدوى: عندما ينتشر الوباء غير المُبرَّر بسبب واضح، يجعلنا نعيش حرباً لا ترحم، حرباً لا تتردّد فيها بيئة المستشفى، المهووسة بالربحية، في استخدام أساليب المافيا، حيث يتخذ البحث عن المرضى باهظي الثمن أشكالاً مقزّزة حقّاً. حرب الطب التي ربّما بدأت مع هذا الوباء أيضاً...

روبن كوك مؤلِّف الروايات الأكثر مبيعاً- مثل «المرحلة النهائية» أو «علاج قاتل» أو «خطر مميت»- أثبت أنه سيد التشويق الطبيّ بلا منازع، من خلال المُغامرات المُثيرة المُتعلِّقة بالتحدّيات الهائلة للطب الحالي، الفاسد بسبب فساد وحماقات علم بلا ضمير. لكنه اليوم، يدق ناقوس الخطر محذِّرا للمرّة الأخيرة.

■ **مروى بن مسعود**

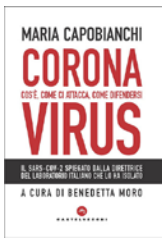

فيروس كورونا. ما هو؟، كيف يهاجمنا؟

(ماريا كابوبيانكي)

ما هو الفيروس التاجيّ؟ ما هي المخاطر التي تنطوي عليه؟ كيف يمكنك الدفاع عن نفسك؟ لماذا الصين القويّة لشي جين بينغ تعود لتكون بؤرة لاندلاع مرض خطير، بعد سنوات قليلة من كارثة السارس؟ هذه بعض الأسئلة التي تُجيب عنها ماريا كابوبيانكي، الإخصائيّة في علم الأحياء، التي تمكّنت مع فريقها في مختبر الفيروسات التابع لمعهد «سبالانتساني» في روما من عزل الفيروس التاجيّ ، ووضعه تحت الاختبار من أجل إيجاد دواء ناجع ضده. تحاول «كابوبيانكي» في هذا الكتاب إلقاء الضوء على الجائحة الجديدة والمُهدِّدة، بوضوح ودقة علميّة، وتشرح مخاطر المرض، وكيف يمكننا مكافحته، وفي نفس الوقت تدحض العديد من المعلومات والأخبار المُزيَّفة المُتداولة عن الفيروس التاجيّ التي أثارت، وما تزال تثير الذعر والارتباك بين الناس.

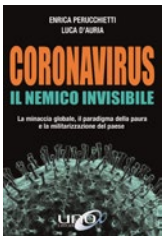

العدو غير المرئي

(إنريكا بيروكيتّي ولوكا داوريا)

من الجائحة الإسبانيّة في عام 1918 إلى يومنا هذا، لم يتمكّن أي عدو غير مرئي أن يكون له كل هذا التأثير على حياة البشريّة. فخلال بضعة أشهر فقط، تسبَّب فيروس (كوفيد - 19) في إصابة ووفاة آلاف الأشخاص، ودفع منظَّمة الصِّحة العالميّة إلى إعلان الجائحة العالميّة. منذ البداية، ساهمت وسائل وشبكة الإنترنت في انتشار الذعر، فقد تمكّن الذهان على نطاقٍ واسع من سكّان العالم، ووضع عاداتهم وحياتهم على المحك، إلى حدّ أنهم ارتضوا بالعزل والتخلّي عن حرّيّاتهم مقابل الوقاية الصِّحيّة.

على عكس الدول الأخرى، اختارت الحكومة الإيطاليّة فرض العُزلة الذاتيّة، مُقسِّمة الرأي العام إلى قسمين، بين مؤيدي ومعارضي هذا الإجراء الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد. في الماضي، كانت ثمَّة حالات مماثلة مع فيروسات السارس والطيور والخنازير، الحصبة أو الإيبولا: ظواهر تمَّ تحديد مواقعها في بعض الجغرافيّات المُعيَّنة التي تحوَّلت إلى «زلازل كوكبية» حقيقيّة. إنما لا شيء يماثل جائحة الفيروس التاجيّ الحالي: لقد تحوَّلت حياتنا جميعاً، ربما إلى الأبد، إلى واقع «افتراضيّ» ألغى ألفي عام من التاريخ البشريّ. مع هذا الكتاب نكتشف النظريّات البديلة لمنشأ وانتشار فيروس (كوفيد - 19)، تأثيره على طريق الحرير واتهامات الصين للولايات المتحدة، نظريّة الصدمة و«تصور» لتهديد عالميّ مُحتمَل، التدابير المختلفة في أوروبا وقيود الحرّيّة الشخصيّة لأسباب صحيّة، خطر هجوم طائش، وانتقال الإنسان من مرتبة الحيوان الاجتماعيّ إلى مرتبة الكائن الافتراضيّ... وأكثر من ذلك بكثير.

ليلى والفيروس التاجيّ

(نيكول فاسكوتّو)

تشرح نيكول فاسكوتّو في مقابلة صحافيّة كيف نشأت فكرة كتاب «ليلى والفيروس التاجيّ»، قائلة: «في بداية الجائحة، نشرت منشوراً بالصدفة تقريباً، على فيسبوك، بغرض شرح فيروس كورونا للأطفال. وقد نشأت هذه الحاجة، لأنه عند البحث عن معلومات عبر الإنترنت، لم أعثر سوى على إرشادات للبالغين، مقالات جميلة ومثيرة للاهتمام، موجَّهة إلى آباء الأطفال الأكبر سنّاً، ولكن لم أجد شيئاً حول كيفيّة التعامل مع الأطفال.

هناك الآن العديد من المبادئ التوجيهيّة لشرح ما هي، وما تفعله قواعد النظافة التي يجب اتّباعها. لديّ ابنة لم تكمل عامها الثاني بعد، لكنني أتساءل في كثير من الأحيان، كيف يمكنني التحدُّث إليها حول بعض القضايا عندما تبدأ بطرح الأسئلة. هكذا وُلدت قصّة ليلى المُصوَّرة، التي أتخيَّل فيها ابنتي في غضون سنواتٍ قليلة، متوقِّدة النشاط وفضوليّة، تطرح أسئلةً حول ما يحيط بها». حقَّق المنشور نجاحاً كبيراً، وتمَّت مشاركته، طوال فترة التمهيد، من قِبل البلديات والمدارس والصيدليّات وعلماء النفس والجمعيّات الرياضيّة والعاملين في عالم الطفولة.

تمَّت كتابة النصوص بناءً على إرشادات وزارة الصِّحة وبمشورة علميّة من مجموعة من الباحثين من معهد الرعاية الطبيّة يوجينيو ميديا دي بوسيسيو بارينى، الذين يتعاملون مع تحليل جينومات الفيروسات المُرتبطة بالأمراض البشريّة. الكتاب مؤلَّف من 48 صفحة، مع توسيع المواضيع التي تمَّت معالجتها في البداية، وإدراج مفاهيم مثل التضامن والضمير الجماعيّ.

50 سؤالاً حول فيروس كورونا

(سيمونا رافيتسا)

«طغت حالة فيروس كورونا على الدولة ووسائل الإعلام، مما تسبَّب في ردود أفعال معاكسة ونشر المُعتقدات التي لا تتماشى في كثيرٍ من الأحيان مع البيانات العلميّة. بين شبكَات التواصل الاجتماعيّ والأخبار المُزيَّفة وصدامات الآراء، من الصعب الاعتماد على أحد، حتى على شيءٍ بالغ الأهميّة في حياة الأفراد والبلاد»، تقول سيمونا رافيتسا، التي تابعت أنباء الوباء لحساب صحيفة «الكوريري ديلا سيرا». ستة خبراء موثوقين، تعامل كلٌّ واحد منهم مع الوباء في نشاطه السريريّ والبحثيّ، وذلك بطرح أسئلة تدور في رؤوس المواطنين، وتتعلَّق بالوقاية والعلاج، ومنطق تدابير السياسة العامة.

والنتيجة هو مجلد رشيق بإجاباتٍ واضحة وموثَّقة، تقدِّم لنا في النهاية صورةً كاملة للظاهرة التي تؤثِّر على حياة الجميع. التنسيق العلميّ لسيرجيو هراري، ومساهمات كلّ من: الدكتور رفائيل برونو، أخصائيّ الأمراض المُعدية في مستشفى سان ماتيو في بافيا. البروفيسور سيرجيو هراري، أخصائيّ أمراض الرئة في مستشفى القديس يوسف في ميلانو. الدكتور ألبرتو مانطوفاني، أخصائيّ المناعة، في مستشفى هومانيتاس. الدكتور جوزيبي ريموتسي، مدير معهد البحوث الدوائية ماريو نيغري، عضو المجلس الصِّحيّ الأعلى. الدكتور ميكيل ريفا، باحث في تاريخ الطب، خبير الوقاية في جامعة ميلانو بيكوكّا. الدكتور جان فينتشينسو زوكّوتّي، طبيب أطفال في مستشفى الأطفال في بوتسي في ميلانو.

الفيروس - التحدي الكبير

(روبرتو بوريوني)

في نهاية عام 2019، واجه أطباء المستشفيات في ووهان، بوسط الصين، متلازمة تنفسيّة غريبة تبدو أنها مرتبطة بسوق السمك الكبير في المدينة، حيث، بالإضافة إلى الأسماك، يتمُّ فيه بيع جميع أنواع الحيوانات الصالحة للأكل، حيَّة أو ميِّتة. وبينما كان عدد المرضى يتضاعف ويعاني بعضهم من التهابٍ رئويّ فيروسيّ حاد، قامت المُختبرات بعزل المسؤول عن المرض بسرعة، ليتبيَّن أنه فيروس تاجيّ جديد، شبيه بفيروس السارس الذي نشر الذعر في العالم عامي 2002 - 2003. بالمقارنة مع السارس، فإن المرض الجديد أقلّ فتكاً، ولكنه أكثر عدوى. سرعان ما اضطرت الصين للتعامل مع ذاك الذي بدا للسُّلطات «أخطر حالة صحيّة في تاريخ الجمهوريّة الشعبيّة»، بينما اعتبرتها منظمة الصِّحة العالميّة «تهديداً أسوأ من الإرهاب». وأمام العدوى والوفيات الناجمة عن الفيروس التاجيّ ، اضطرت إيطاليا أيضاً إلى اتخاذ إجراءات غير مسبوقة لوقف الوباء.

في هذا الكتاب، يعتمد روبرتو بوريوني، جنباً إلى جنب مع خبير الأوبئة بيير لويجي لوبالكو، على خبرته الطويلة كطبيب وباحث لإظهار طبيعة وعمل الفيروسات، وفيضها أو انتقالها (Spillo-ver) من الحيوانات إلى البشر، تطوُّر المعرفة العلميّة، الآثار المُدمّرة للأوبئة في تاريخ البشريّة، والمعارك التي خاضتها في القرن الماضي ضد أصغر أعدائنا وأكثرهم شراسة.

الصِّحة بلا حدود

(باولو فينييس)

في ظلِّ العولمة التي تتغيَّر باستمرار، حيث بات من السهل التنقُّل، ولكن بفوضى وصعوبة أكبر في السيطرة، بدأت مفاهيم الصِّحة والمرض تتغيَّر أيضاً: فلم تعد عمليّات بيولوجيّة بسيطة، ولكن ظواهر مُعقَّدة تؤثِّر على البيئة وعلى الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة في جميع أنحاء العالم. اليوم، يعتبر تغيُّر المناخ، وتدفقات الهجرة، والأزمة الاقتصاديّة، وتصنيع إنتاج الغذاء، من العوامل الأساسيّة لفهم حالة رفاهية (أو توعُّك) السكّان. يرسم باولو فينييس، عَالِم الأوبئة في «Imperial College» في لندن، صورةً كاملة للجوانب التي تشكِّل الصِّحة العالميّة، ويقترح أطروحةً قويّة على المستوى السياسيّ: في مثل هذا المشهد المُتنقل والمُعقَّد، يمكن للصِّحة العالميّة أن تعاني من تدهور مماثل لما يحدث في الاقتصاد. صدر هذا الكتاب قبل سنوات من انتشار وباء فيروس كورونا، وستصدر منه نسخة جديدة مُحدَّثة في الخريف القادم.

■ **يوسف وقاص**

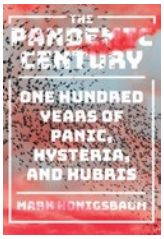

قرن الأوبئة: مئة عام من الذعر

(مارك هونيغسبوم)

منذ جائحة الأنفلونزا الإسبانيّة عام 1918، حلم العلماء بالتصدِّي للأمراض المُعدية والأوبئة. لكن رغم التقدُّم النسبيّ، إلّا أن الكوارث الفيروسيّة والبكتيريّة لا تزال تفاجئنا. من الأنفلونزا الإسبانيّة إلى الطاعون الرئويّ عام 1924 إلى «حمى البغاء» في 1930، وأوبئة (سارز، وإيبولا، وزيكا)، اتّسمت المئة عام الماضية بسلسلةٍ من الإنذارات الوبائيّة غير المُتوقَّعة.

في «قرن الأوبئة»، يجمع «مارك هونيغسبوم» بين الريبورتاج وتاريخ العلوم وعلم الاجتماع الطبيّ لإعادة فهم الألغاز الوبائيّة وإيكولوجيا الأمراض المُعدية مع عددٍ من المُحقِّقين المُتخصِّصين في الأمراض، وقادة عاجزين أو غير أكفاء في مجال الصِّحة العامّة، وعلماء غالباً ما تعميهم معرفتهم بالبكتيريا والفيروسات عن الفهم الدقيق. ويكشف، في جانب آخر، أن الخوف من العدوى غالباً ما يؤدّي إلى تفاقم التوترات العرقيّة والدينيّة - رغم تأكيد علماء الوبائيّات، مثل مالك بيريس ويي جوان، أن «الطبيعة تظلّ أكبر تهديد إرهابيّ بيولوجيّ للبشريّة». كأسماك قرش تتصيَّد الإنسان، تظلّ مسببات الأمراض المُفترسة كامنة دائماً في الطبيعة، تنتظر ساعة الهجوم. عندما يُهزَم أحدها، تظهر أخرى. تذكّرنا الأوبئة بحدود معرفتنا العلميّة، ودور سلوك البشر في تفشّي الأمراض الميكروبيّة.

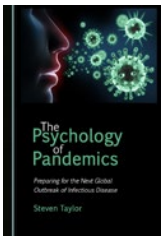

سيكولوجيّة الأوبئة

(ستيفن تايلور)

يتوقَّع علماء الفيروسات أن يخلّف الوباء التالي، ربما شكل من أشكال الأنفلونزا،

آثاراً مُدمِّرة. التلاقيح، إن توفرت، والسلوكيات الصحيحة ضرورية لوقف انتشار العدوى. لكن العوامل النفسيّة التي تؤثِّر على انتشار العدوى الوبائيّة وما يرتبط بها من اضطرابات اجتماعيّة وعاطفيّة لم تنل سوى القليل من الاهتمام. العوامل النفسيّة مهمَّة لأسبابٍ عديدة. بدءاً بعدم الالتزام ببرامج التطعيم والنظافة، واستخفاف البعض بخطر العدوى وما ينتج عن ذلك من خسائر. وفي جانب آخر، العوامل النفسيّة مهمَّة لفهم وإدارة المشاكل المجتمعيّة المُرتبطة بالأوبئة، مثل انتشار الخوف المُفرط والوصم وكراهية الأجانب التي تزداد مع تهديدات العدوى. يقدِّم هذا الكتاب أوّل تحليل شامل لعلم نفس الأوبئة، ويصف ردود الفعل النفسيّة للأوبئة، بما في ذلك السلوكيات غير المُتكيِّفة، والعواطف، وردود الفعل الدفاعيّة، ويستعرض عوامل الضعف النفسيّ التي تساهم في انتشار المرض والشعور بالضيق. كما يُعدِّد الأساليب المُجرَّبة لمعالجة هذه المشاكل، ويحدِّد الآثار المُترتبة على سياسات الصِّحة العامة.

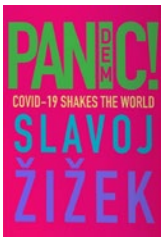

وباءة «كوفيد- 19» يهزّ العالم!

(سلافوي جيجك)

عند الحديث عن جائحة عالميّة غير مسبوقة تجتاح الكوكب، مَنْ أفضل مِن الفيلسوف السلوفينيّ، سلافوي جيجك للكشف عن معانيها العميقة، والتأمُّل في مفارقاتها المُحيِّرة، والتكهن بعمق عواقبها، وكلّ ذلك بأسلوبٍ مثير ومقنع. نحن نعيش في لحظة يكون فيها أعظم عمل للحبّ بالابتعاد عن مَنْ تحب. عندما تقرِّر الحكومات، التي عُرِفَتْ بتخفيضات غير مسبوقة في الإنفاق العام، إنفاق التريليونات فجأة. عندما يصبح ورق التواليت سلعةً ثمينةً مثل الماس. وعندما يكون شكلٌ جديدٌ من الشيوعيّة الطريقةَ الوحيدة لتجنُّب الانحدار إلى البربريّة العالميّة. في هذا الكتاب، يقدِّم سلافوي جيجك، بحماسته المُعتادة وحبه للقياسات في الثقافة الشعبيّة، صورةً موجزة ومثيرة للأزمة المُستفحلة، والتي لا تكاد تستثني أحداً.

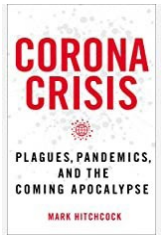

أزمة كورونا: ونهاية العالم القادمة

(مارك هيتشكوك)

لم يشهد العالم مثل هذا الوباء منذ أجيال. وبينما يحارب العالم (كوفيد - 19)، يحفّز تفشي الفيروس الحالي بعض النبوءات عن نهاية العالم. في «أزمة كورونا»، يشرح البروفيسور مارك هيتشكوك كيف يرتبط تفشي الفيروس الحالي بالنبوءات الكتابية حول الأوبئة والكوارث.

يعتقد الكثيرون أن الأوبئة تأتي من الحيوانات، كما رأينا في العقود الأخيرة مع الإيدز، والسارس، ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسيّة، وأنفلونزا الطيور، وأنفلونزا الخنازير، والآن (كوفيد - 19). لكن هيتشكوك لا يعتبر فيروس كورونا نتيجةً لأعمالنا اليوم، بل علامةً لما ينتظرنا مستقبلاً. انطلاقاً من الوضع الراهن، يعود كتاب «أزمة كورونا» للتذكير بالأوبئة السابقة، مثل الأنفلونزا الإسبانيّة، ويقدِّم العلامات الرئيسيّة لنهاية العالم. ويناقش، في جانب آخر، أثر العولمة في انتشار الأوبئة. في بيئتنا العالميّة، يمكن أن نشهد أحداثاً مفاجئة ستكون لها موجات صادمة حول العالم.

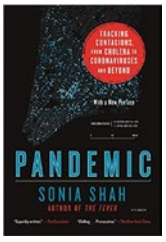

الوباء: تتبع العدوى

(سونيا شاه)

يقدِّم الكتاب فحصاً مذهلاً للأوبئة التي دمَّرت البشريّة - وتاريخ الإنسان في مواجهة أخطر حالات الطوارئ الصِّحيّة تطرفاً في عصرنا. على مدى الخمسين عاماً الماضية، ظهر أكثر من ثلاثمئة نوع من الأمراض المُعدية. وقبل سنوات من انتشار (كوفيد - 19) المفاجئ، تسعون في المئة من علماء الأوبئة كانوا يتوقعون ظهور وباء قاتل في وقتٍ ما خلال الجيلين القادمين، قد يكون الإيبولا، أو أنفلونزا الطيور، أو جرثومة فائقة مقاومة للأدوية، أو شيئاً جديداً تماماً، مثل فيروس (كوفيد - 19)، الذي نشهده اليوم. في «الوباء: تتبع العدوى، من الكوليرا إلى الإيبولا وما بعدها»، يجمع المُؤلِّف بين التاريخ، والتقارير الأصليّة، والسرد الشخصيّ لاستكشاف أصول الأوبئة، ورسم أوجه التشابه بين الكوليرا- واحدة من أكثر مسببات الأمراض فتكاً وإثارة للأوبئة- والأمراض المُستجَدة التي تطارد البشريّة اليوم.

بالخوض في العلوم المُعقَّدة، والسياسة الغريبة، والتاريخ المُتقلِّب لأكثر الأمراض فتكاً في العالم، يُعَدُّ «الوباء» عملاً متميِّزاً في التاريخ الوبائيّ، وغنيّاً بالدروس العاجلة لواقعنا.

فيروس كورونا: الفوضى

(إريك لويس)

في الأسابيع الأخيرة من عام 2019، ذُهِلَ العالم من تفشّي عدوٍ غير مرئيّ، غامض في أصوله ولا يتوقَّف في تدميره. أقوى بعشر مرات من الأنفلونزا، ويبدو أنه محصَّن ضد العلاج، (كوفيد - 19)، أو فيروس كورونا المُستجَد كما يُعرَف، تسبَّب في جائحةٍ عالميّة ويدفع بكوكب الأرض إلى حافةِ الكارثة. يمثّل هذا الكتاب رواية من منظورٍ شخصيّ عن الأزمة التي تكشَّفت لنا، مع تعليقٍ واسع على القضايا والأطراف الفاعلة في الوقت الحالي. «فيروس كورونا: الفوضى»، رواية شاهد عيان على حدث ألهم تحوُّلات غير مسبوقة، وغيَّر حياتنا بطرقٍ لا يمكننا تخيُّلها.

من الموت الأسود إلى اليوم

(فرانك م. سنودن)

يتضمَّن الكتاب دراسةً واسعةَ النطاق تكشف العلاقة بين الأمراض الوبائيّة والتغييرات المجتمعيّة، من الموت الأسود إلى الإيبولا. كما يدرس أثر الأمراض الوبائيّة في تشكيل الفاشيات المُعدية في المجتمعات عبر التاريخ. بأسلوب خالٍ من التعقيد، لا يكشف فرانك م. سنودن عن الطرق التي تؤثِّر بها الأمراض على العلوم الطبيّة والصِّحة العامّة فحسب، بل حتى التغيُّرات في مجالات الفنون والدين والتاريخ الفكريّ والحرب.

الكتاب في شكل تحقيق متعدِّد التخصُّصات والمُقارنات للتاريخ الطبيّ والاجتماعيّ للأوبئة الرئيسيّة، يتطرَّق لمواضيع مثل تطوُّر العلاج الطبيّ، وأدب الطاعون، والفقر، والبيئة، والهستيريا الجماعيّة، بالإضافة إلى شرحٍ تاريخيّ للأمراض، مثل الجدري والكوليرا والسل، ودراسة تداعيات الأوبئة الأخيرة كفيروس نقص المناعة المُكتسبة، والسارس، والإيبولا، ومدى استعدادنا للجيل القادم من الأمراض.

■ **عبدالله بن محمد**

كورونا: كلّ ما تحتاج إلى معرفته

أحد أهمّ الكُتب الصادرة في ألمانيا عن فيروس كورونا، الذي تحوَّل إلى جائحةٍ عالميّة في غضون أسابيع قليلة، حيث صدرت النسخة الإلكترونيّة منه في الثاني عشر من مارس/ أذار عن دار نشر «Gräfe & Unzer» بعد أن تعاظمت أهمية وجود نوعية من الكتب القائمة على التوعية والتأهيل المعلوماتيّ. الكتاب بمثابة دليل طبيّ يستند إلى فحوى مقابلة مطوَّلة مع الأستاذ الدكتور «هندريك ستريك»، أحد أشهر علماء الفيروسات في ألمانيا ومدير معهد أبحاث الفيروسات وفيروس نقص المناعة البشريّة في كلّية الطب بجامعة بون، حيث يجيب خلالها عن أهم الأسئلة التي قد تدور في الأذهان حول الفيروس وكيفيّة الحماية منه. يضمُّ الكتاب أيضاً مُقدِّمة تشمل معلومات تعريفيّة عن الأمراض الفيروسيّة، فضلاً عن مجموعة من النصائح العلميّة حول كيفية تعزيز جهاز المناعة بوسائل طبيعيّة وتحفيز الخلايا المناعية المُسمَّاة بـ«قاتلي الفيروسات الطبيعيّة»، وهو ما أسماه «ستريك» بالاستعداد الأمثل لمواجهة مثل هذه الأمراض المجهرية. يشمل الكتاب أيضاً وصفات عمليّة لكيفية تصنيع المُطهرات في المنزل بطريقةٍ علميّة وآمنة.

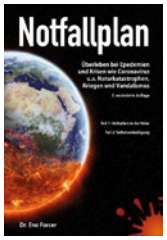

خطة طوارئ للتعايش مع الأوبئة والأزمات»

للدكتور «إينو فورسير»، أخصائي الحماية المدنيّة، الذي يستعرض مفهوم الكوارث بصورةٍ أكثر شموليّة بغض النظر عن نوعها، سواء كانت طبيعيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة، فهي في النهاية تشبه زلزالاً حياتيّاً يقلب عالمنا رأساً على عقب. لا يتطرَّق الكتاب بصورةٍ مباشرة إلى المُحفِّزات المختلفة للكوارث، وإنما يبلور القاسم المشترك الأدنى بينها مع التركيز على البعد النفسي والتأهيلي في مثل هذه الأوقات، كما أنه يسلط الضوء على الأزمات التي تتولَّد إلى جوار الكارثة الأصليّة، والتي لا تقلّ ضراوة عنها، خاصّة، عندما تبدأ الأنظمة في الانهيار، وتغرق الحكومات في الأعباء التي ربَّما عرَّضت الأفراد أنفسهم لخطرٍ يفوق خطر الكارثة الفعليّة. يقدِّم الكِتاب خُطواتٍ تساعد الأفراد على حماية أنفسهم وذويهم، والخروج بأقلّ خسائر ممكنة عبر تبنِّي خطة طوارئ يتمُّ خلالها تطويع العقل للتعامل مع الوضع الراهن، وتهيئته- فقط- لإدارة الأمر على نحوٍ جيِّد.

كورونا الموت الخفي

في السابع عشر من فبراير/ شباط عن دار نشر (Epubli) للكاتب «Rene Piechowski»، حيث يستعرض خلاله حالة الإثارة التي بات يعيشها العالم مع هذا الفيروس، والتهديدات اللامتناهية التي تنذر بسيناريو أسوأ في حال حدوث طفرة جينيّة للفيروس وظهور وباء جديد إذا لم يتحرَّك العالم سريعاً لاحتواء الأمر. يرى الكاتب أن الأرقام الواقعيّة للمصابين والموتى جرَّاء فيروس كورونا ليست معروفة بدقة على مستوى العالم، كما يعتقد أن الحالات الفعليّة تفوق المعلنة بصورةٍ كبيرة. الكتاب يحمل طابعاً توثيقيّاً بالأكثر، وهو مدعَّم بأحدث الإحصائيات والمعلومات والبيانات المتاحة عن الفيروس حتى وقت صدوره.

كورونا يجعل الأرض تتطهَّر

عن دار نشر «WerbeAgentu, InternetA-gentur» للكاتب «جيرهارد كوبلر» بالتعاون مع دكتور ميد. أندرياس فايس، أستاذ طب التخدير والعناية المركزة. يقدِّم الكتاب كلّ ما يجب معرفته عن فيروس كورونا، وكيفية الحماية منه بشكلٍ فعَّال. كما يفنِّد مجموعة من الحقائق التوثيقيّة الجديدة بالمعرفة عن مفهوم «وباء عالمي» استناداً إلى أحداث سابقة شهدها العالم كـ«الأنفلونزا الإسبانيّة» لتضييق مساحة الصدمة لدى البعض ممَّنْ وجدوا ما نعيشه اليوم أمراً بعيداً عن التوقُّع بالنظر للذاكرة الجمعية القريبة. يتناول الكتاب أيضاً الجانب الأيكولوجي الإيجابي للكارثة، والمتمثِّل في تعافي الطبيعة من بعض وعكاتها بعد أن توقَّف النشاط الاقتصاديّ والبشريّ خلال فترات الحَجْر الصِّحيّ، مما أدى لانخفاض معدل الانبعاثات الكربونيّة وعودة الحياة البحريّة من جديد في بحيرة فينيسيا، وغيرها من المُؤشّرات التي انطوت على جوانب إيجابيّة للكارثة، انعكست على الطبيعة رغم شقاء الإنسان.

دليل فيروس كورونا: كيف تحمي نفسك بشكلٍ صحيح؟

عن دار نشر «ريفا»، وهو من تأليف مجموعة من الأطباء والمُتخصِّصين؛ من أهمِّهم، الأستاذ الدكتور ميد زو وانج، خبير في مجال علم الأوبئة والسيطرة على الأمراض المُعدية وكبير الأطباء في مركز ووهان لمكافحة الأمراض والوقاية منها. والأستاذ الدكتور ميد زونغ نانشان، مكتشف فيروس سارس، الذي طوَّر أوّل علاج فعَّال للفيروس في عام 2003.

يلخِّص هذا الدليل، الوضع الحالي للوباء في صورة كتالوج واضح وموجز مكوَّن من 128 صفحة، تضم كل ما يجب معرفته حول سُبل الحياة مع الوباء بطريقةٍ صحيحة، مثل كيفية الانتقال والتشخيص والحَجْر الصِّحيّ ومسار المرض وفرص الشفاء والمخاطر والالتهابات غير العرضيّة وتدابير الحماية مع الإصابات النشطة والسلبيّة في المنزل.. وكيفيّة العمل الآمن في الأماكن العامة وأثناء السفر وفي العمل. باختصار هو دليل لا غِنى عنه لأي شخصٍ يريد حماية نفسه من الفيروس دون الدخول في حالة من الفزع.

■ **شيرين ماهر**

كتاب الدوحة

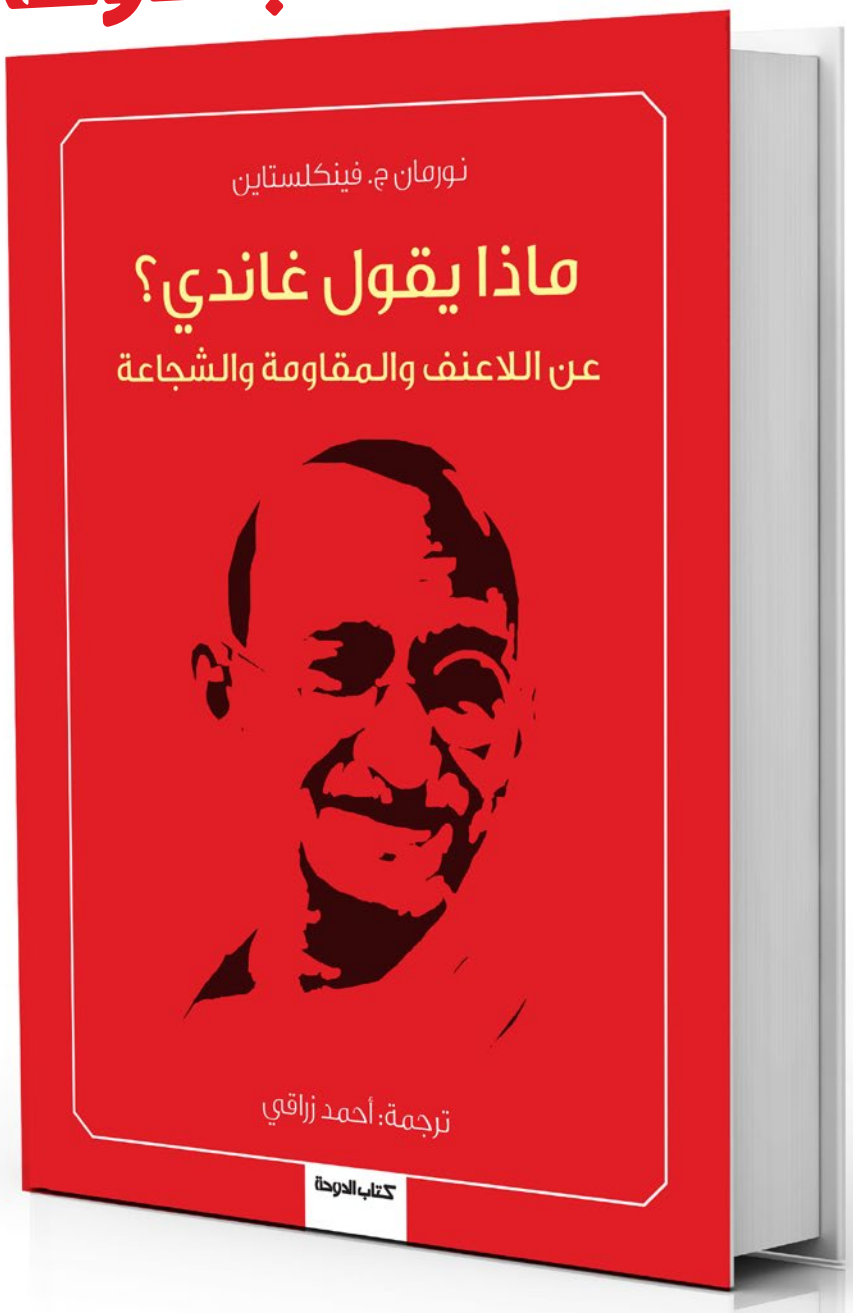

Doha Magazine aldoha_magazine @aldoha_magazine

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

الخيال الوبائي

روايات لمستقبل بشري محتمل

في سياق حالة الحجر، والحظر، والطوارئ الصحية، التي يعيشها العالم اليوم، طفت على سطح المشهد الثقافي، في الآونة الأخيرة، بعض الأعمال الروائية التي أثارت اهتمام المنابر الإعلامية والثقافية الدولية، بقدرتها العجيبة على توقّع واستشراف ما يُشبه الجائحة الوبائية الحالية، منذ سنوات وعقود، قبل أن يشهد الناس هذه «الكورونا» التي تزحف على العالم وتحاصره منذ شهور. وليس المقصود هنا ذلك الصنف من الروايات التي تناولت أوبئة وجوائح «حقيقية» عمّت البشرية ذات فترة من تاريخها العليل، كرواية (الجبل السحري)، 1924، للألماني «طوماس مان»، و (الطاعون)، 1947، للفرنسي «ألبير كامو»، و(حب في زمن الكوليرا)، 1985، للكولومبي «غابرييل غارسيا ماركيز»؛ فمثل هذه الروايات الخالدة، إنما تقدّم واقعاً داهمته- بالفعل- أوبئة حقيقية، كالسل والطاعون والكوليرا. بينما الروايات التي يتناولها هذا المقال تحكي عن مستقبل بشري يُحتمل أن يعمّه مثل هذا الوباء، لذلك فهي روايات لا «تحاكي» واقع الوباء، وإنّما «تستبق» وقوع الوباء، وتستشرفه، وتُنذر بحصوله. إنها روايات الخيال «الوبائي»، على غرار قصص وحكايات الخيال «العلمي» التي دأبت على تخييل أحداث ووقائع محتملة قد تصير، في المستقبل، حقائق واقعية.

تأتي رواية (نهاية العالم) للكاتب الأميركي الشهير «ستيفن كينغ»، في مقدّمة هذه الروايات الاستشرافية التي لفتت انتباه القرّاء عبر العالم في هذه الأيام، نظراً لما لمحوه فيها من تشابه واضح بين ما ترويه أحداثها، وبين ما يجري الآن؛ فعلى غرار ما يفعله بالعالم اليوم فايروس «كوفيد 19»، تحكي الرواية عن جيل رهيب من فيروس الإنفلونزا، يتسرّب من إحدى المختبرات العسكرية، ليفتك بأكثر من تسعين في المائة من سكان العالم.

(نهاية العالم) الصادرة سنة 1979، رواية ضخمة بصفحاتها التي تصل الألف وخمسمئة صفحة، وتشابك حبكاتها الرئيسية والفرعية، وتعدّد شخصياتها وفضاءاتها. وهي من الكلاسيكيات السردية الرائدة لـ«ستيفن كينغ»، ومن الروايات الاستباقية لما يعيشه العالم اليوم من وباء. إنها بمثابة «كوريغرافيا» لانهيار عالم لا يحتلّ فيه البشر سوى موقع أقلّ من فيروس قذر.

(نهاية العالم) التي أصبحت مطلب القرّاء ومبتغاهم في هذه الأيام، من أجل استكشاف مجاهل الوباء، وكسر روتين الحجر المنزلي. اعتُبرت (نهاية العالم) من أكثر الروايات اقتراباً وتطابقاً، في بعض مظاهرها، مع واقع الوباء الحالي. وهذا ما دفع بـ«ستيفن كينغ» إلى التدخل عبر حسابه الشخصي على التويتر، لينفي كلّ تشابه مطلق بين الفيروس الذي تخيّله في روايته، وبين الذي يدمّر العالم اليوم، منبّهاً قرّاءه بقوله: (لا، الكورونا ليس كما الوباء الذي أحكي عنه في «نهاية العالم»، فهو لا يصل بتاتاً إلى خطورته. الوباء الحالي يمكن تجاوزه قريباً، فلا تجزعوا، وخذوا ما يلزم من حذركم). نفس الرأي، سبق أن عبّر عنه «كينغ» خلال مقابلة تليفزيونية، خصّ بها شبكة CNN، قال فيها: (منذ سنوات، كتبت «نهاية العالم»، وهي رواية تحكي عن وباء أباد غالبية الجنس البشري. نحمد الله، أن الوباء الحالي ليس بهذه الدرجة من الشراسة، ولكن منذ أن كتبتُ ذلك في العام 1979، لم نفعل شيئاً غير أن ننتظر؛ ليأتينا الوباء). وهو بهذا الكلام، إنما يتوجّه بالنقد إلى خصمه اللدود، الرئيس الأميركي «دونالد ترامب»، محمّلاً إياه مسؤولية التردّد والتأخّر في تدبير أزمة الكورونا بالولايات المتحدة.

سنتان بعد ظهور (نهاية العالم)، ينشر «دين كونتز»،

المنافس العنيد لـ«ستيفن كينغ» في مجال الكتابة السردية التي تتلاعب بهواجس القارئ ومخاوفه، روايته المثيرة (عيون الظلام)، الصادرة سنة 1981. وهي رواية لا يملك حيالها القارئ سوى أن يفغر فاه، وهو يتابع وقائعها التي تجري عند نهاية 2019 وبداية 2020. تقول الرواية في بعض فقراتها: (عالم صيني يفرّ من بلده، ويلجأ إلى الولايات المتحدة، حاملاً معه أسرار أخطر سلاح بيولوجي صيني، تمّ ابتكاره في العقود الأخيرة يُدعى «يوهان 400». وإنما سُمّي كذلك لأن تطويره تمّ داخل مختبرات تقع بضواحي المدينة التي يحمل اسمها). وتضيف الرواية: («يوهان 400» سلاح فتّاك، لا يُصيب غير الجنس البشري، ولا يُمكن لكائن آخر أن يحمل عدواه. وهو شبيه بداء «الزهري»، إذ لا يستطيع فيروس هذا الوباء أن يعيش خارج الجسم الإنساني أكثر من دقيقة واحدة). بل إن رواية (عيون الظلام) استطاعت أن تستبق حتى أطروحة «المؤامرة» التي تتردّد بقوة هذه الأيام على هامش الأزمة الصحية العالمية التي تسبّب فيها فايروس «كوفيد 19»، إذ يرد على لسان أحد شخصيات الرواية قوله: (حسب ما فهمت، يمكن للصينيين، بواسطة «يوهان 400»، أن يدمّروا مدينة أو دولة بكاملها. وعندها لن يحتاجوا في غزوهم للعالم إلى عمليات ترميم، وإعادة بناء مكلّفة، وطويلة المدى).

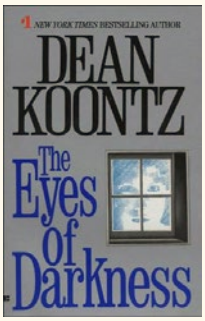

ومع ذلك، لم تحظَ (عيون الظلام) منذ صدورها، سنة 1981، بأدنى اهتمام قرائي أو نقدي، إلى أن حلّت بنا جائحة «كورونا» لتضع الرواية على واجهة العناية الإعلامية، وعلى رأس ما تتداوله مواقع التواصل الاجتماعي من مواد فنّيّة وأدبيّة تلبّي تطلعات الجمهور في ظروف الاجتياح الوبائي والحجر الصحي. وهكذا أصبحت (عيون الظلام)، التي لم تكن مصنفة من ضمن لوائح الروايات المرغوب في اقتنائها، هاجس ملايين القرّاء عبر العالم، ممّا رفع من ثمن النسخة الواحدة منها إلى مئات الدولارات، بعدما كانت بعض طبعاتها الاقتصادية لا تتعدّى الدولارين أو الثلاثة دولارات. وقد بلغت إحدى نسخ طبعتها الأولى، الموقّعة بخط يد كاتبها، ألف دولار، في حين تجاوز ثمن نسخة نادرة من الرواية، منشورة سنة 1989، وملفوفة داخل علبة خشبية أنيقة، الألفي دولار.

الكاتب الأميركي «دين كونتز»، وإن لم يكن من الأسماء المتداولة بكثرة خارج الولايات المتحدة، إلّا أنّه أحد العلامات الرائجة داخل سوق النشر الأميركي في صنف روايات الرعب والخيال العلمي. ومن أشهر أعماله، رواية (الأشباح) التي تم تحويلها، على يد السيناريست والمُخرج الأميركي «جو شابيل»، إلى فيلم سينمائي عام 1998. وهي من الأعمال التي يتكهّن فيه «كونتز»- أيضاً- بوباء خطير من فصيلة بيولوجية كيميائية.

أمّا رواية «حجر صحّي»، للصحافي والسيناريست الإسكتلاندي «بيتر ماي»، التي كُتبت قبل خمس عشرة سنة، ولم تُنشر إلّا قبل أيام قليلة فقط في نسخ إلكترونية متوفّرة على كبريات مواقع المكتبات الرقمية، فلربَّما كانت أكثر هذه الروايات إثارة وتشويقاً للقرّاء عبر ربوع العالم، ليس لأنها تتجاوز سابقتيها في توقّع الوباء، والاقتراب بسردها وأحداثها إلى ما يعيشه العالم اليوم، وإنما لحكايتها الغريبة مع مغامرة النشر والطباعة.

ففي سنة 2005، كتب «بيتر ماي» رواية حول جائحة وبائية تعيث في الأرض موتاً وخراباً، وخلالها تبدو مدينة «لندن» كبؤرة للوباء الذي يغزو العالم. وقتها، وُصِفَت مخطوطة الرواية بأنها «لا واقعية» و«غير منطقية»، وبالتالي رفضتها كلّ دور النشر؛ بداعي طابعها «السوداوي» القاتم. اليوم، وبعد مرور عقد ونصف من الزمن، تعود رواية (حجر صحي) لتتصدّر واجهات الإصدارات الروائية داخل المشهد الثقافي «الموبوء» الذي يعيشه العالم حالياً.

وكان «بيتر ماي»، بعد أن تمّ رفض روايته، قد أهمل مسودّتها داخل أحد أدراج مكتبه، إلى أن اتصل به- مؤخّراً- أحد الناشرين، يطلب منه أن يكتب شيئاً عن وباء «كورونا» الذي يجتاح العالم في هذه الأيام، وما أن روى الكاتب للناشر قصّة الرواية، حتى كاد هذا الأخير أن يقع من فوق كرسيّه، حسب وصف « بيتر ماي»، في حوار له مع الموقع الإخباري الإلكتروني «إي نيوز». وبعد أن قرأ الناشر الرواية في ليلة واحدة، قرّر نشرها في اليوم التالي على الفور.

وقد عبَّر الكاتب، نفسه، عن «اندهاشه» للتشابه الكبير بين الأزمة الوبائية الحالية، وبين ما ورد في روايته؛ إذ يقول (فعندما عدت لقراءة المسودّة، فاجأتني شدّة دقتها في وصف العزلة المنزلية، وكيفية تطبيق حالة الطوارئ الصحية، فكلّ شيء فيها كان يتطابق- إلى حدّ كبير- مع ما يجري أمام أعيننا الآن).

وفي تصريح لشبكة (CNN)، حاول «بيتر ماي» تفنيد تهمة (الإغراق في اللاواقعية واللامنطق) التي حرمت روايته (حجر صحي) من رؤية نور النشر، والخروج بالتالي إلى القرّاء، وذلك بالقول إنه قد حرص كلّ الحرص، أثناء كتابته للرواية على ألّا تعوزه هذه «الواقعية»، وذلك باستناده إلى وثائق رسمية صادرة عن السلطات البريطانية والأميركية، تتضمَّن الاستعدادات والإجراءات التي يُمكن اتخاذها في حالة اجتياح وبائي محتمل، كان يحذّر، من عاقبة وقوعه، العلماء والخبراء في تلك الفترة. وفي هذا الصدد يقول «ماي»: (لقد كانت فرضية مرعبة، لكنها حقيقة محتملة الوقوع، حسب ما استنتجته بعد بحث معمّق في الموضوع، وهذا ما أوحى لي بالفكرة التالية: ماذا لو انطلق الوباء من لندن؟ وماذا لو وجدت مدينة كهذه نفسها داخل حصار صحي شامل؟).

ولعلّ من أكبر المفارقات التي يصادفها قارئ هذه الرواية، تكمن في ذلك المشهد الرهيب الذي يصوّر مدينة «لندن» وهي ترزح تحت وطأة إنفلونزا كاسحة تسمّى بـ«H5N1»، لتُجبر سلطات المدينة على تحويل (إكسيل)، مركز المعارض الفنية الشهير بالعاصمة البريطانية، إلى مجمع استشفائي للطوارئ، يضمّ أربعة آلاف سرير طبّي. وهو نفس المشهد الذي رأى فيه الناشرون قبل خمس عشرة سنة (تمثيلاً غير مستساغ لـ«لندن»، ولا يُمكن للمدينة أن تكون كذلك أبداً) !.

تلكم- إذن- أهمّ روايات التخييل «الوبائي» التي شغلت القرّاء، وتصدّرت واجهات المنابر الثقافية، ومنصّات التواصل الاجتماعي، في هذه الأيام الموسومة بالوباء وبالحجر الصحي الإجباري. وهي روايات أدّى الفضول الشديد لمعرفة حقيقة توقّعاتها وتفاصيل تكهّناتها، إلى طرح عدد من الأسئلة الجوهرية، من قبيل: هل يتعلّق الأمر- فعلاً- بـ«مؤامرة» تدبّرها القوى العالمية الكبرى في إطار لعبة السيطرة على العالم، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون محض «تشابه بالصدفة»، ما دام أن التاريخ يكرّر نفسه، بشكل أو بآخر؟ ■ **رشيد الأشقر**

القراءة والكتابة مفيدة لحياتنا

هل يمكن للكُتَّاب أن يُغيّروا العالَم؟

يُؤكّد العديد من الكُتّاب، في سياق الأزمة، على مَنْفعَتهم الاجتماعية، مقتنعين بأنَّ بإمكانهم، من خلال قصصهم، تحسين الحياة العادية وإصلاح مجتمع ينهار. هل هذا خطأ أم صواب؟ هل يُمكن للأدب أنْ يُصلح العالَم؟ لقد تمَّ الإجماع الآن على هذه الفكرة، وتتبلور بطرائقٍ مختلفة. (فيكامب Fécamp : سيرة ذاتية، تَجمع كلمات المرضى في أواخر حياتهم)، وتَضع Le Parisien عنواناً (صيدلية شعرية فتحت أبوابها من أجل رفاهية الجميع)، وتحكي Actualité «الروايات التي تساعدنا على العيش»، ويُعزِّز برنامج «France Inter» «أنّه يمكن للحكايات التي تُقرأ للأطفال أن تجعلهم أكثر عاطفية»، ويتقدم Slate «كيف نقرأ كُتباً تساعد على العيش مدة أطول» تُوضّح Santé magazine ... القراءة والكتابة وتقاسم المقروء: هي من الأنشطة الكثيرة التي يعتبرها مجتمعنا الآن مفيدة لحياتنا، لأنها تمنحها المعنى والقوة.

كان العصر الكلاسيكي يَسْعَدُ لِجَعْل الحروف الجميلة شَكلاً من أشكال التربية والتعليم الأخلاقي؛ المتعلّقة بالفلسفة السَّامية. لقد جعلت الرومانسية من الأدب شكلاً من أشكال المتعة القصوى.

في حين يبدو أنَّ عصرنا هو عصر متعة وقلق على حدٍّ سواء، يريد، بالنسبة له، ربط الأدب بمبدأ الرفاه الفردي والجماعي.

سواء كنّا نعتمد على سيكولوجية القراءة، أو التحليل النفسي أو على العلوم المعرفية في المقابل، فقد حان الوقت للإعلان عن المكاسب الفردية للأدب، وعن منفعته الاجتماعية للدفاع عن الإنتاجية الأخلاقية للخيال ولثمار السخرية الانعكاسية. في حين كان يُنظَر للأدب- سابقاً- بوصفه تَرْجيَّة وقت عديم الفائدة، واليوم يُنظر للكُتَّاب بوصفهم أطرافاً فاعلة- في حدِّ ذاتها- ضرورية لحياتنا ومُدننا. أطلق «فاليري لاربو Valery Larbaud»، منذ قرن على «العلاج بالمكتبة»، وإنتاج القصص في المستشفيات أو دور المسنين، وورشات الكتابة، ومجموعات القراءة، وإقامة الكُتَّاب، واللقاءات في المكتبات المتقاربة من أجل التبرير والتشجيع والتمويل، «مُتعةً بلا عقاب»، إلى درجة أنّ الحدود الفاصلة الآن بين الأدب والطبّ، وبين الأدب والفعل الاجتماعي، وبين الأدب والصداقة، وبين الأدب والأخلاق، تتداخل في بعض الأحيان.

لقد تمَّ تعبئة المفهوم القديم للتطهير النفسي، والمبدأ النفسي للتعريف بالشخصيات، وحتى المفهوم الأخلاقي للتعاطف لفهم آثار الأدب. واهتم مجموعة من الباحثين الهولنديين في مقال صادر في الجريدة المرموقة «Plos One» بقدرة الخيال على تطوير تعاطفنا عن طريق نقلنا إلى حياة أخرى، في حين تنشر المجلّة الشهيرة «Science» دراسةً تسلط الضوء على المكاسب من ناحية الكفاءة الاجتماعية، وفهم الآخر.

تقليد فلسفي عريق

إنَّ مكاسب الأدب فردية بالدرجة الأولى. ويوجد حولها تقليد فلسفي عميق، لا يتوقع إعادة اكتشاف علم الأعصاب، ولا يتوقع مُنظّري التنمية الذاتية وتحسين الذات في سياق الليبيرالية الجديدة. لنعد إلى مفهوم إنساني للقراءة هو مفهوم مونتين، Montaigne، ولنرجع لـ«آنا أرونت Annah Arendt»، في فكرة أن الحياة يجب أن تُعاد صياغتها بناءً على الخيال لعيش حياة كاملةً، واقترح «بول ريكور Paul Ricoeur»، مفهوم (الهوية السردية)، وهو مفشهوم فلسفي يسمح بربط تفسير الموضوع بالقصص الأدبية.

من جانب آخر، فبناء الموضوع هو عملية سرديّة أقرب إلى الخيال، تجعل كلّ واحدٍ نوعاً من الرُّواة لحياته الشخصية (يكتب ريكور: «تستمر قصة الحياة في تجديدها من خلال جميع القصص الحقيقية أو الخياليّة التي يرويها الموضوع عن نفسه»)، من جانب آخر فهذا البناء، الذي يجب إعادة بنائه دائماً، (L'autopoisis) يقترض نماذجه من السرد التاريخي والخيالي: إنَّه يتغذى على الحكايات. وتكمن قيمة القراءة، مثلما هو الأمر بالنسبة للكتابة الأدبية، في تبريرات الفلسفة الأخلاقيّة الأكثر صرامة. لا يهدف الخيال الأدبي إلى تعطيل سلوكيّات حياتنا من خلال تَسْلِيّتنا أو إبعادنا عن أنفسنا: وعلى العكس من ذلك فإنَّه يشارك في معرفة الذّات، ويُسهم في التطوُّر الأخلاقي، ويضيء الطريق، ويساعد على تضميد جراحنا الفرديَّة والجماعيَّة.

تَشهد القصة الرائعة لـ«فليب لانسون Phillipe Lançon»، (لامبو)، Le Lambeau، علة إعادة البناء في الأدب، وبواسطة أدب هذا الصّحافي الذي أُصيب في هجوم «شارلي إيبدو - Charlie Hebdo». إنَّها تُظهر بشكل هائل قوة الفنّ في تجاوز صدمة فرديَّة. وتَنضمُّ في هذا إلى تقليد كامل في النصوص التي تجعل من الحكي جدار الحماية من المرض ومن الجراح، ومن الاغتصاب، ومن الفجيعة، ابتداءً من «آني إرنو Annie Ernaux»، إلى «كريستين أنكوت Christine Angot»، مروراً بـ«شلوي دولوم Chloé Delaume»، أو «كاميل لورانس Camille Laurens».

لكنّ وراء الآثار النفسية للكتابة والقراءة هناك مشروع أكبر للتَّدخل والعمل حيث يُفتَرض أنْ يتحمَّل فيه الأدب العالَمَ، ليس وفقاً للشعار الوجودي أو السياسي للرومانسية الثورية، لكن بشكل أكثر سريّة؛ من خلال قدرته على الكشف عن الحقائق وتحليلها، وإعادة تشكيلها، وتنظيمها، لتحديد الخطابات وانتقادها، وإعادة صياغتها عن طريق رسم مسارات التحوُّل بواسطة قدرته على خلق مجتمعات افتراضية، وعلى رسم مُمْكناتٍ في الشعر أو الخيال.

كشفٌ وإصلاحٌ

يسعى الأدب لمساعدتنا على العيش بشكل أفضل في حياتنا العادية، كما يسعى لمساعدتنا على مواجهة العالَم، وحسن التصرُّف، والتغلُّب على المعاناة الاجتماعية. سيكون (تَصالُحِيّاً) أولاً؛ لأنّه يضع الكلمات على الآلام، ويسمح للأفراد والجماعات باستعادة قصصهم، بإعادة الصيغة

المُسْتَعارة من الإنسَانيَّة اليهودية «إزاك لوريا Issac Louria»، التي أثارت المهمة العظمى لـ(إصلاح العالم) (tikkun olam) والتي أعادتها رواية «مايليز دو كيرنجال - Maylis de Kérangal»، في عنوان ظلّ مشهوراً وهو «إصلاح الأحياء - 2014) ،«Réparer les vivants). وفي دراسة منشورة في 2017، «إصلاح العالم - Réparer le monde»، أفْتُرض أنّ الوعد بأدب من شأنه أنْ يُشفي وأنْ يُعالج وأنْ يساعد ويُنقذ، أو على الأقلّ «من شأنه أن يفعل الخير»، قد عاد إلى الأدب الفرنسي المُعاصر. كلّ شيء يحدث، كما يبدو لي، وكأنَّ في ديموقراطياتنا المحرومة من الأطر التَّفسيريَّة والروحيّة الجماعية، يَعِدُ السرد الأدبي بالتفكير المفرد، وبتَذكُّر الموتى، وإعطاء معنىً للهويَّات المتعدِّدة من خلال تكوين المجتمعات: بوَضْع ملاحظات، كما يفعل، مثلاً، «فرونسوا بون François Bon»، حول انحسار التصنيع (Doewoo، 2004)، أو عن طريق استحضار حياة الفلاحين الصّغار خارج المراكز في المقاطعات، مثل «ماري هيلين لافون Marie-Hélène Lafon»، فالكُتَّاب سوف يعيدون إحياء المناطق. ومن خلال استكشاف الثغرات في التاريخ الرسمي وعجزه ورفضه، سيسمح الأدب بملء السرد الوطني بجعل أصواتاً غير مرئيَّة مسموعة أو بكشف الزوايا الجانبيَّة فيه: سيُظهر «إريك فويلارد Eric Vuillard»، الإهانات الفرنسية لعام 1963 (L'ordre du jour, 2017)، و«سيَنْبشُ باتريك موديانو Patrick Modiano»، عن اسم «دورا بريدر Dora Bruder»، في رواية تَحمل الاسم ذاته، وسيعود «لورون موفينيي Laurent Mauvignier»، إلى الممثِّلين المَنْسيِّين في الحرب الجزائرية (Des hommes, 2009).

سيُحاول الكُتَّاب، في مواجهة الحاضر والعولمة والليبيرالية الاقتصادية، فَهمَ مستقبل أشكال حياتنا، سواء كان ذلك بالتفكير في حياة أُطر الشركات المتعدّدة الجنسيات، مثل «Eric Reinhardt إريك رانهارد» (Le Système Victoria,2011)، ومرافقة مُشْتَغِل مُضْرِب في مَسْلَخ صِناعيّ مع «Arno Bertina أرنو برتينا»، (Des châteaux qui brulent,2017)، أو الاهتمام بالحياة اليوميّة لهؤلاء الذين يعملون في الدِّفاع مع «Vincent Message فانسون ميساج»، (Coradans la spirale, 2019).

فرونسوا بون ▲

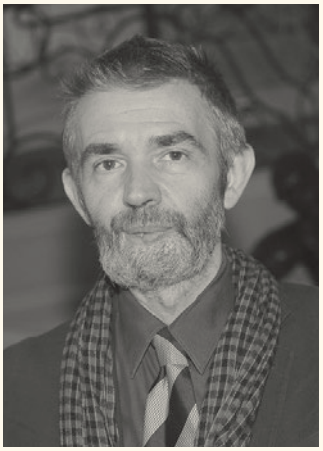
فليب لانسون ▲

إريك رانهارد ▲

مايليز دو كيرنجال ▲

سياساتُ الأدب

يُولي الكُتَّابُ الحاليّون اهتماماً خاصّاً لقضية الهشاشة الخاصّة بالمُشرَّدين أو المهاجرين، سواء من خلال استخدام التحقيق الوثائقي (Le Quai de Quistreham لـ Florence Aubenas 2010)، والتَّأمُّل الشّخصي (A ce stade de la nuit لـ de Maylis de Kérangal 2015)، أو الخيال الخالص (La Mer à l'envers) لـ (Marie Darrieussecq 2019). ويمكننا اكتشاف حالة نهائيّة من اليَقَظة و (العدالة الشعريَّة) لاستعارة صيغة الفضائل الأخلاقيَّة للرواية من المُنَظِّرَة الأميركية «مارتا نيسبوم Mrtha Nuss-baum». أمّا القصص العديدة المرتبطة بالبيئة، فهي تُعبِّر عن الرغبة في الحفاظ عليها من خلال تذَكُّر الأماكن التي دمَّرها الأنثروبوسين (An-thropocène)، مثلاً (Les méditations sur les espèces sauvages) لـ (Jean-Loup Trassard)، وفي ذلك رغبة في أن تكون مُدافعة عن المساحات البريّة، وأنْ تُقدّم من خلال الأدب اهتماماً واسعاً بالإنسان، بل وَحْدة الوجود الجديدة التي تُدْمج العالم الطبيعي في العالم البشري. لن يُحفّز الأدب انتباهنا فقط من خلال إنتاج «ديستوبياس Dystoies»، ولن ينحصر في إغناء تفكيرنا حول العوالم المُضادَّة، (contrefactuels)، بل سيجعلنا نحسُّ بالغَيْر، العادي الذي نُجَاور: الحياة العادية أو المُتذبذِبَة، والحياة الهشَّة وغير المرئيَّة أو المُهدَّدة.

هل يمكن لهذه المحاولات أن تُغَيِّر العالم حقّاً؟ أليست هذه التَّدخُّلات الأدبيَّة المَولُودة، في الوقت نفسه مع الأزمة، هي الملاذ الأخير، عندما تُصبح أدوات التحوُّل الاجتماعي مستحيلةً؟ ماذا نظنُّ بأشكال التدخّل المباشر للكَاتِب في المدينة: مُطالبة الكُتَّاب بمرافقة العاطلين عن العمل، والذهاب للمستشفيات، ورعاية المهاجرين غير الشَّرعيين، أليست هذه طريقة للتَّخلّي عن العمل والسِّياسة، ونسيان الأفق الاجتماعي والأطر العامة اللازمة للتفكير في المشاكل الاجتماعية أو البيئيَّة؟ والأسوأ من ذلك أن يُطْلَب من الرِّواية توفير الرَّفاهيَّة والمشاركة في التنميّة الشخصيَّة. ألَا يُطلب من الأدب، انطلاقاً من خدعة الليبيرالية الحديثة، أنْ يُشارك في أداء الموضوع لِقُدرته على التَّكيّف مع الوَحشيَّة الاقتصاديَّة، والاشتراك في برنامج مُجْتَمعي يَفرض المرونة؟.

هل يجب على الأدب أن يُصبح مفيداً؟

يَدَّعي تقليد الفنّ من أجل الفن الاستقلاليَّة المطلقة للمجال الأدبي، كما يُبيّن «بيير بورديو Pierre Bourdieu»، في «قواعد الفن - Les Règles de l'art) 1992). والإشْكَالُ ليس فرنسيّاً فقط، فهل يمكن لمُؤَلِّف أنْ يُنتج- في الوقت ذاته- شكلاً أصْليّاً وأسلوباً وتحليلاً سليمَين وتوقُّعات سياسية ذات الصِّلة؟ تتساءل وَرقة حديثة في New york، بقلم «لي سيكال Lee Siegel»، هل «يجب على الأدب أن يُصبح مفيداً».

وتبقى الفكرة الكَانْتِيَّة بأنَّ الفنّ «غاية بلا نهاية» هي الأساس الذي يُبنى عليه الفنّ الحديث، ممّا يُبعد أيّ مُهمَّة لإنتاج الأخلاق. ولكن يبدو- الآن- أنّها لا تتوافق مع الممارسات المعاصرة التي تضع الأعمال الأدبية في خدمة التحليل الاجتماعي، والجَبْر التاريخي، وفَهْم الهُويَّات، والمطالب البيئيَّة: سواء ضاع الأدب في هذا المُنعطف الأخلاقي والسياسي أو رَبح دِقَّةً وَصْفيَّة وأهمّيّة بالغة، مما يعطيه شَرعيَّة جديدة، وسواء ذاب أو تحوَّل في البحث عن رفاهيَّة الإنسانيَّة والعيش معاً، فمن المؤكَّد أنَّ السُّؤال المركزي لمناقشاتنا المُستقبَليَّة سيكون حول الطبيعة ودور الفن.

■ **أليكسندر جيفن** □ **ترجمة: أسماء كريم**

المصدر:

مجلة العلوم الإنسانية الفرنسية «Sciences Humaines»، العدد (321)، يناير، 2020.

نجيب العوفي:

ليست غاية الأدب أن يتنبّأ

منذ بدء أزمة كورونا تم التفكير في الأدب من جهتين؛ الأولى بحثاً عن آثار لهذه الجائحة فيه حيث بدا لكثيرين أن هناك أعمالاً روائية أو فنّيّة تنبأت من قبل بما يحدث للعالم اليوم، ومن جهة أخرى تم اللجوء للأدب لأنه صديق العزلة وخير مؤنس في الحجر الصحي الذي دخله العالم كُرهاً ودون سابق إعداد. في هذا الحوار نحمل أسئلة العزلة والأدب؛ للأديب والناقد المغربي نجيب العوفي (1948)، الذي يُعتبر من المؤسّسين الأوائل للثقافة النقدية الحديثة بالمغرب، اشتغل أستاذاً للأدب في كلّ من جامعة «فاس» و«الرباط»، وواكب صنوف التجارب الإبداعية المغربية والعربية منذ السبعينيات بأجيالها المختلفة. أصدر العوفي مؤلّفات منها: «متخيل القصة والرواية بين المغرب والمشرق»، و«درجة الوعي في الكتابة»، و«جدل القراءة»، و«مساءلة الحداثة».

لنبدأ بسؤال شخصي.. كيف تعيش حالة الحجر الصحي التي فرضتها هذه الأزمة؟

- أعيش هذه الحالة كما يعيشها الملايين من إخوتنا في الإنسانية على امتداد كوكبنا الأرضي، مع فارق في الأجناس والبيئات والعادات والاهتمامات. و«المصيبة إذا عمّت هانت» كما يقال. وقد أصبحنا- الآن- سواسية أمام فيروس كورونا الجائح - الجامح، لا فرق بين سيد ومسُود، ورئيس ومرؤوس، وغني وفقير، ومتعلّم وجاهل، وأبيض وأسود.. وحّدتنا كورونا ووحّدنا الحجْر الصحي في معتقل واحد حتى لا أقول في منزل واحد، لأن هناك مراتب و«منازل» في المنازل. أصبحنا بعبارة أخرى، أمام «اشتراكية وبائية»، حيث عزّت واستعْصت كلّ اشتراكياتنا الطوباوية. فنحن- إذن- في معتقل جماعي عالمي، نقدّم الدليل الساطع الفاجع على «العوْلمة» والآثار الوخيمة التي نتجت عنها، ونحن نستقبل هذا الرقم النّكد 2020 من حياة البشرية.

كيف أعيش حالة حَجْري؟ أعترف أن العزلة ليست غريبة عليّ، ولستُ غريباً عليها. فهي شيء ألفته في حياتي، ونُجْعة ألوذ بها باستمرار، بحكم هذا الهمّ الذي ابتُليت به كما ابتلي به غيري ممن أدركتهم حرفة الأدب، وهو القراءة والكتابة. وهذا الهم رفيق جيّد في هذا الحجر. إضافة إلى الحضور الموازي الكثيف لمحطات وقنوات الإذاعة والتلفزة وشبكات التواصل الاجتماعي/الإنترنت.

وبين هذا وذاك، إطلالات من شرفة منزلي بتطوان على سفوح جبل «غُزْغيز»، لاقْتناص نسمة هواء ولمْسة شمس.

ربَّما الزمن هو أوّل ما ينتبه له المرء في تجربة الحجر، الأمر يشبه كثيراً ما قاله أحدهم عن الزنزانة حيث يعاني المسجون قلّة في المكان وفائضاً في الزمان. ما رأيك؟

- صحيح، يشكِّل الزمن الفائض المُراوح في المكان، مشكلة ثقيلة بالنسبة للمواطن المأسُور بيْن جدران هذا الحجر الصحي المفروض عليه، حيث تغدو المعادلة غير متكافئة.

تماماً في المعتقل المنزلي بين المكان والزمان. بين محدودية المكان التي قد لا تتجاوز أمتاراً معدودات في الغالب الأعمّ، وسيولة الزمان ونهْريته التي لا تنتهي إلّا بمجيء النوم، «العدم المؤقت» بتعبير سارتر. وهذا يُقَرِّبُ جدران المنازل من جدران السجون والمعتقلات، كما يساوي بين المأسورين داخل المنازل والمأسورين داخل السجون.

ومعلوم أن «الوقت» هو العدو اللدود للمواطن العادي الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لا يدري ما يفعل به، ولا كيف يتصرَّف فيه، وبخاصّة بعد اتساع رقعة العاطلين

والبطاليين وأبناء السبيل في العقود الأخيرة. ومن ثَمَّ راجت على ألسن الناس وعبر قاموسنا الشعبي المقولة المأثورة «قتل الوقت» و«هيا لنقتل الوقت»، وكانت المقاهي، والنوادي، والحانات، وأماكن الترفيه مراتع ومُنتجعات خصبة للتنفيس الاجتماعي و«قتل الوقت» في الصفقات والنّمائم والمؤامرات والمناقشات.. انعكست الآية الآن تماماً في منازل الحجْر الصحي. إذ بدل أن يقتل المواطن الوقت، أصبح الوقت هو الذي يقتل المواطن. في سياق هذه المعادلة غير المتكافئة بين محدودية المكان وسُيولة الزمان؛ يصبح الإبداع الإنساني خير وسيلة لمواجهة رتابة وروتين هذا الاعتقال وخير مؤنس للعليل، سواء أكان هذا الإبداع كتاباً أو فيلماً أو أغنية وموسيقى أو لوحة وتشكيلاً أو رقصاً.. كما تصبح وسائل ووسائط التواصل الاجتماعي التقليدية والحديثة كالإذاعة والتلفزة والإنترنت؛ هي الميادين والنوادي والمقاهي الأثيرية - والافتراضية التي يلتقي فيها الناس ويتواصلون ويستعيدون بعض الدفء الاجتماعي المفقود. وأنا أفتح وأتصفّح في هذه الظروف الاستثنائية العصيبة؛ شبكات التواصل الاجتماعي التي ارتفعت درجة حرارتها؛ تبدو لي جَلِيَّة وبهيّة أهمّية هذه الشبكات التواصلية في تقريب الشُّقّة، وتجْسير الفجوة، وتخفيف الكُرْبة، وتبادل الرأي والمشورة، بين معتقلي كورونا. وقد كانت هذه الشبكات التواصلية في أحايين كثيرة عرضة للنقد. هذه هي المفارقة التراجيكوميدية للعولمة / أن تأتينا بخير حضاري عميم، وأن تأتينا- أيضاً- بِشَرٍّ حضاري وخيم.

الأدب لا يَقْرَأُ الكفّ أو الفنجان، ولا يَرْصُدُ أحوال الطقس الآتية. الأدب يتحسّس نبض الإنسان والمجتمع والتاريخ، ويزرع حُدوسه في مجاري النصوص بشاعرية وجمالية، وبلا جلبة تحليلية - ومفهومية

منذ بدء الأزمة؛ تم النبش في الروايات والأعمال الإبداعية على اختلافها.. وفي كلّ يوم نجد من يقول إن العمل الفلاني تنبأ بما يحدث الآن. هل صحيح أن الأديب أو الإبداع يمكن أن يتنبأ فعلاً بشيء ضخم قد يغير مسار الإنسانية ؟

- ليست غاية الأدب ووظيفته أن يتنبّأ ويتكهّن بالغيب ويَشُقَّ حُجب المستقبل، مع إقرارنا بوجود أدب تخييلي قائم بذاته، وهو أدب الخيال العلمي، وهو ضرب من الفراسة الإبداعية. الأدب لا يَقْرَأُ الكفّ أو الفنجان، ولا يَرْصُدُ أحوال الطقس الآتية. الأدب يتحسّس نبض الإنسان والمجتمع والتاريخ، ويزرع حُدوسه في مجاري النصوص بشاعرية وجمالية، وبلا جلبة تحليلية - ومفهومية. هو حسب الشاعر الفرنسي «رينيه شار»، كشف عن عالم يظل في حاجة مستمرة إلى الكشف.

وبما أن الإبداع الأصيل هو الذي يلتحم بشرطه الإنساني، ويُصيخ السمع جيّداً لإيقاع مرحلته التاريخية، فقد تأتي أعمال إبداعية - روائية بخاصّة، مُرْهصة بالآتي. أو يأتي هذا الآتي مُوَافِقاً أو مطابقاً لبعض الأعمال. ولعلّ المثال الشهير المستحضر هنا، هو رواية «1984» للكاتب الإنجليزي «جورج أوريل»، التي صَوَّرَ فيها استقواء النظام الرأسمالي الشمولي بعد الحرب العالمية الثانية تحت إمرة وسيطرة «الأخ الأكبر». وإذا احتسبنا الفارق الزمني القليل

بين زمن الرواية «1984» وزمن الكتابة (1949)، تأكّد لنا بأن «جورج أورويل» لم يكن يقوم بكهانة روائية، بقدر ما كان يتحسّس نبض وإيقاع لحظته التاريخية الرأسمالية - الصاعدة. جاعلاً الديستوبيا (المستقبل الفاجع) في مقابل اليوتوبيا (المستقبل الفاضل). وكثير من الأحداث التاريخية التي زعم بعض روائيينا أنهم تنبّؤوا بها كانت أقرب إليهم من أرْنبات أنوفهم. إن الأديب بعبارة أخرى هو ضمير أمّته وعينها الرائية التي ترى إلى الأبعد، وهي تتفرَّس في الأقرب، متطلّعة دوماً إلى غد أفضل، والكاتب الذي يزعم أن روايته كانت تتنبأ- حصْراً- بهذا الحدث أو ذاك، هو كاتب يضع الكَهانة في مقابل الإبداع.

التواصل الإنساني ومعرفة الآخر كان هو غاية الأدب والفنّ عموماً.. ماذا يعني أن تصير القطيعة والعزلة هي الإمكانية الوحيدة للمرحلة؟

- القطيعة والعزلة هما قدر الإنسان المعاصر من قبل هُبوب وباء كورونا، بل هما ناجمتان أساساً مع هبوب رياح العولمة العاتية - الناعمة التي زجّت بالإنسان المعاصر في قوْقعته الفردية، وجعلته ذا بعد واحد. كما انتبه إلى ذلك مفكّرون كـ«هربرت ماركوز» في كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد». ثمّة- باستمرار- مُفارقات عدة مُنْزرعة في مجرى العولمة، ولنأخذ أقربها؛ فبواسطة الهواتف المحمولة وشبكات التواصل، صَرمت العولمة حبْل التواصل الأسري الحميم، وتحت طائلة فيروس كورونا، وهو ثمرة سامّة للعولمة، تستعيد العلاقات الأسرية دفأها وحضورها. هذه هي مفارقة الوقت التراجيكوميدية. إذ طالما اشتكى الناس من تفكك الأواصر والوشائج الأسرية في غمرة العولمة والليبرالية المتوحشة، وها هي جائحة كورونا تلمّ شمل الأسر المفكَّكة، وتجمعها تحت سقف المنازل التي أضحت معتقلات أسرية تحت الحجر، مع ما يترتَّب عن هذا الحجر من عواقب وآثار وخيمة، نتيجة القطيعة الجديدة والجبرية مع المجتمع والحياة الاجتماعية اليومية، وهكذا دواليك من قطيعة لأخرى. الآداب والفنون- على الدوام- هي التي ترتق فُتوق هذه القطائع المختلفة على مدار التاريخ. الأدب بخاصّة، هو الشفرة الروحية والرمزية التي يتفاهم ويتواصل بها الناس مهما تباعدت واختلفت الأمكنة والأزمنة، واشتدت الكوارث والأوبئة. هناك عبارة جميلة للكاتب والروائي ماريو فارغاس يوسا «إن الأدب هو أفضل ما تم اختراعه للوقاية من التعاسة». وما أحوجنا في هذه الظروف العصيبة التعيسة إلى هذا الواقي- الراقي الجميل. وفي إمكان وسائط التواصل الحديثة والمتطورة أن تصبح حاملاً جيّداً سريعاً وناجعاً للأدب. وقد سرّنا كثيراً في هذه الظروف الحجرية العصيبة، هذا التواصل الأدبي الرائع على شبكة الإنترنت. إنها عبقرية الإنسان الذي يجد له من الضيق- دائماً- مخرجاً.

طالما كانت العزلة هي ورشة المفكِّر والمبدع التي يُخرج منها تجربته للناس.. ما الذي يمكن للإنسانية أن تتعلَّمه من تجربة العزلة التي دخلتها قسراً؟

- هناك أدبيات كثيرة في مديح العزلة والتغنّي بأفضالها ومنافعها، قديماً وحديثاً، لما تتيحه من سكينة نفس وصفاء ذهن وخاصّة في حياتنا المعاصرة اللاهثة التي لا تترك للمرء فرصة لينصت لنفسه، ويخلو لعظامه، كما نقول. أستعين هنا قول صفي الدين الحلي:

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة // يَقِرّ بها قلبي ويصْفو بها ذهني

العزلة بالنسبة للمبدع والمفكِّر حديقة خلفية أساسية، يفيء إليها لفترات قد تطول أو تقصر، ليتأمَّل ذاته، ويتأمَّل العالم من حوله، ويعْكف على قراءاته وكتاباته. ولذلك للعزلة زمن خاص وضروري للأديب يقتطعه من زمنه العام ليتفرغ لزمنه الإبداعي الأثير. ومن ثَمَّ راجت على الألسن والأقلام مقولة (البرج العاجي) بالنسبة للأديب المختلي لعزلته الأدبية. وكثيراً ما استعمل النقَّاد هذه المقولة للتفرقة بين الأدب الخالص والأدب الملتزم. لكن في جميع الحالات، تبقى العزلة قاسماً مشتركاً بين الأدباء.

أستحضر في هذا السياق كلمة معبِّرة لميخائيل نعيمة، يقول فيها: «ولا بدّ لي من ساعات أعتزل فيها الناس، لأهضم الساعات التي صرفتُها في مخالطة الناس». لذلك فالعزلة هي الفرصة التي تسمح بالخروج من الغابة البشرية لتأمُّلها عن بعد وبهدوء.

وأظن أن كلّ واحد منّا في حاجة إلى هامش من العزلة ليهضم الساعات التي صرفها في مخالطة الناس. وقد صرف كثير من الأدباء والمفكِّرين حيواتهم أو أشطاراً من حيواتهم في العزلة الخلاّقة. ولعلّ رهين المحبَسَيْن، أبا العلاء المعري، أحد الرموز الكبيرة لهذه العزلة الخلاقة. وثمّة أدباء كبار كانت العزلة هي مملكتهم الإبداعية الصاخبة. وصدق الشاعر الإسباني رفائيل ألبرتي حين قال «أنت في وحدتك بلد مزدحم».

ومن جدران السجون والمعتقلات- أيضاً- خرج أدب بهيّ، وأيْنعت كتب ومؤلَّفات مضيئة.

فالأدب إذن، مقاومة للفراغ والرتابة والفناء وقبح العالم. وقراءة الأدب هي إحدى وسائلنا الراقية للتحرّر من أسْر المكان والزمان.

في نظرك ما هي المسلّمات التي قد تطرحها هذه الأزمة للمساءلة؟

- بكلّ تأكيد، فإن زمن الكورونا سيترك نُدوبه العميقة على الأزمنة القادمة. وبكلّ تأكيد أيضاً، فإن هناك ثلاثة أزمنة متقاطعة، زمن ما قبل كورونا، وزمن كورونا، وزمن ما بعد كورونا. هذه الأزمنة الثلاثة ستكون موضوعاً للمساءلة والمراجعة والتفكير بشكلٍ جديد منقح ومزيد، من طرف علماء البيولوجيا والطب والاجتماع والنفس والاقتصاد والحضارة والسياسة وغيرهم لغربلة ما كان، واستشراف ما سيكون.

زمن الكورونا سيزيد، لا محالة، من وتائر التفكير النقدي - العقلاني، وسيطيح بكثير من المسلّمات والثوابت والعوائد البالية. وربَّما سيحفّز الخُطى نحو عصر تنويري جديد. وهذا الحراك الفكري العالمي لن يمرّ بسهولة، ولكنه سَيَلْقَى في الطريق- دائماً- أباطرة العالم الرأسمالي وكهنة المعبد القديم، يستميتون في الدفاع عن حصونهم المتداعية. ■ **حوار: محمد عبد الصمد الإدريسي**

زمن الكورونا سيزيد، لا محالة، من وتائر التفكير النقدي - العقلاني، وسيطيح بكثير من المسلّمات والثوابت والعوائد البالية. وربَّما سيحفّز الخُطى نحو عصر تنويري جديد. وهذا الحراك الفكري العالمي لن يمرّ بسهولة، ولكنه سَيَلْقَى في الطريق- دائماً- أباطرة العالم الرأسمالي

volkanakmese (تركيا) shutterstock

لوكليزيو

لا أحنُّ إلى الماضي

نلتقي في باريس، قُبَيْلَ فرض الحجر الصحي، مع «جون ماري جوستاف لو كليزيو--Jean Marie Gus tave le Clézio» الحائز على جائزة نوبل للآداب، والمناسبة صدور كتابه الموسوم بـ«أغرودة البروتون - bretonne Chanson». يحدثنا الكاتب، في هذا الحوار، عن طفولته في بلاده البيغودين - Bigouden، وكذلك عن الصين حيث يُدَرِّسُ، يحدثنا عن قراءاته، وعن جائزة (رونودو) التي سيغادر عضويتها، حتماً.

جرى اللقاء، ذات يومِ أربعاء، منتصف شهر مارس/آذار، قبل فرض الحجر الصحي على نطاق واسع. يَرْتَجِعُ صدى الخطوات داخل أحد صالونات دار النشر «غاليمار» فوق أرضية الغرفة العتيقة، والمنظرُ يُشرف على حديقة الفندق الخاصّ، وهي فضاء من الطبيعة مَصون في قلب باريس، فيه عشب ونرجس بري وأشجار خوخ مزهرة. كانت الشمس ساطعة وثوب الأريكة المُخملي العتيق يتماشى مع لون السماء، هو أثر مرآويّ من خلال نظرة تكاد تكون نظرة باهتة لـ«جون ماري جوستاف لو كليزيو» ذي العينين الزرقاوين زرقة المحيط. وهو على مشارف الثمانين من عمره، ينشر الكاتب «أغرودة البروتون»، يليها «الطفل والحرب - L'enfant et la Guerre»، وهي احتفاء مشرق بأرض الأسلاف. وهو يَعْبُرُ العاصمة، قام الكاتب الرَّحّال بتعليق رحلاته إلى الولايات المتحدة وإلى الصين، التي يتردَّد عليها بانتظام.

وفي ظلّ الفوضى التي تعمّ كوكبنا، نلتقي، في لحظة من اللحظات التي قلما يجود بمثلها الزمان، مع رجل وَضَّاح يحتفي بالطفولة وبالإجازات الصيفية وبالنساء، بمشاعرهن، وشجاعتهن، وبالاحترام الذي نكنّه لهن.

الصين بلد خَبَرْتَهُ جيّداً، لكونك اشتغلت فيه بالتدريس، و- على وجه التحديد- سبق لك أن ألقيت محاضرات في (ووهان).

- إنها عاصمة جميلة، تقطنها 11 مليون نسمة، وتقع على ضفاف نهر اليانغتسي الأزرق. لستُ أُدَرِّسُ فيها بالمعنى المتعارف عليه، بل أقوم بتبادل المعرفة حول الفلسفة والفنّ والأدب، باللّغة الإنجليزية فقط، فعندما أُدْعَى إلى الصين أنتهز الفرصة لزيارة ما يسترعي اهتمامي، وما يسترعي اهتمامي، في هذه الآونة، هو زيارة أسرة «تانغ - 618-) «Tang 907). إنني بصدد تأليف كتاب صغير حول هذه الحضارة، حضارة من بين الحضارات المهمة والوحيدة التي حكمتها إمبراطورة اسمها «وو تسه تيان-705-624) «Wu Zetian)، وقد كانت امرأة مستبدة، إلّا أنها كانت مُتَّزنة إلى حدّ كبير، كما كان أوّل إجراء اتخذته أن أمرت بتأليف مختارات من الشعر النسائي، وهو قرار متقدِّم جدّاً في عصر، لم تكن النسوة تحظين فيه بحقّ إبداء الرأي والمشاركة في صنع القرار، في معظم بلدان العالم.

بالفعل، إنها خطوة شجاعة، وإنني لأراك أنت نفسك تستشهد، في معظم الأحيان، بكَاتبات مثل كوليت، وناتالي ساروت، وفلانيري أوكونور...

- لقد أَخَذْتُ عن جدتي «أَلِيسْ»، من جهة أمي، الأدب والحركة النسوية، وقد كانت شخصية بارزة ومدهشة بأصالتها ومُخَيِّلَتِها. وُلِدَتْ جدتي في حضن أسرة عريقة من مزارعي الشمندر في شرق فرنسا، فعندما ذهب أبي إلى إفريقيا كانت هي المشرفة المباشرة على تربيتنا، أنا وأخي، وكانت أمّي تساعدها في ذلك. لقد علَّمتنا الخياطة والحياكة تزامناً مع القراءة والكتابة، إذ إنها لم تكن ترى من حائلٍ يحول دون تعلُّم الرجال تلك الأمور؛ فبفضلها أصبحت أتقن الحياكة، كما ربَّت فينا الإحساس العالي بالعدالة تجاه النساء.

الأدب يُسعف راهننا... كما هو الحال مع رواية «الطاعون» لـ«كامي»، والتي حقَّقت مبيعاتها، في الآونة الأخيرة، ارتفاعاً كبيراً...

- إنه لكتاب جميل كتاب «كامي»، غير أن «يوميات سنة الطاعون- Journal de l'année de la Peste» لـ«دانييل ديفو» كتاب مدهش أكثر، إذ يحكي فيه مُؤَلِّفُ «روبنسون كروزو»، اليوم تِلو الآخر، ضراوة جائحة الطاعون الأسود الذي ضرب لندن سنة 1665، وفيه نشهد تصاعد القلق أمام مرض مجهول، وسلوكات مغرقة في العبث، وأناساً اتخذوا من المراكب في أعالي نهر التّمز ملاجئ لهم، ونقوداً غُطِست داخل دِلاء الخل... كلّ ذلك ذو راهنية كبيرة اليوم. وبخلاف الحروب التي تضع أوزارها في نهاية مطافها، تظلّ أزمة فيروس (كورونا) حدثاً مفتوحاً على جميع الاحتمالات، وإن أكثر ما يقلق المرءَ هو عدم معرفة كيف سينتهي الأمر.

في ظلّ هذا المشهد المقلق، يعمل كتابك «أغرودة البروتون» عملَ ترياق.

- لقد استبدت بي رغبة حَكْي شيءٍ مُبهِج، وإن ذكريات «منطقة بروتاني- Bretagne» كلّها ذكريات إيجابية إلى أبعد الحدود، هي سعادة كنت أحسها كلّ لحظة، إذ قادتني إلى الإخبار، في «الطفل والحرب»، عن الفترة الصعبة التي سبقته.خلال طفولتي الباكرة في «روكوبيير» في أقاصي منطقة «نيس»، عانيتُ من الجوع، ولا يمكنني نسيان تلك المعاناة أبداً، كما عانيت- أيضاً- من المَحبس، ودون أن أستطيع تحديد

كنهه؛ لأنني كنت طفلاً، إلّا أننا كنّا نعلم أن الخطورة تكمن في الخارج، هناك حيث يمكن أن يقضي المرء نحبه. وعندما بلغت من العمر ستة أو ثمانية أعوام، بدت لي منطقة بروتاني، وقد ازدانت سعادة، لقد لقّنتني درساً في التفاؤل، و- من ثَمَّ- رغبتُ في وضع الإحساسين، جنباً إلى جنب، بين دفتي هذا الكتاب.

فيما بين زمن الحرب في منطقة نيس النائية ومنطقة بروتاني، ثمّة إفريقيا، وكذا اللقاء مع أبيك الذي يغيب عن هذا النصّ.

- كانت منطقة بروتاني تمثل ربط صِلة أمي، من جديد، مع هذا البلد الذي طالما تصوَّرَته منشأ أسرتنا، فقد كانت أمي واحدة من الشابات اليافعات، في ثلاثينيات القرن الماضي، اللائي كُنَّ يركبن دراجات هوائية والرياح تلاعب شعورهن، وَكُنَّ يمارسن السباحة شتاءً وصيفاً. لقد كانت موطناً يسكنها، وقد زرعت فينا، أنا وأخي، حبها لذلك الوطن، فأصبحنا نزوره كثيراً لقضاء إجازات سعيدة فيه، ولكي نستعيد الصلة مع ماضينا الغابر، ماضي أسلافنا، وهو ما يمكن اعتباره نوعاً من الحجّ العاطفي.

وبما أنها ذكريات سعيدة، للغاية. لماذا لم تتحدَّث- إذاً- عن منطقة «بروتاني» إلّا قليلاً، حتى الآن؟

- إن منطقة «بروتاني» توجد بين ثنايا السطور، ففي خِضم عائلة كانت تروم، في كلّ حين، مغادرة المكان الذي كانت توجد فيه، إلى مكان آخر، تظل منطقة «بروتاني» مُستقرّي الوحيد خلال حياتي كلّها؛ لهذا السبب وجدتني أمام نضوب كبير في اللّغة والثقافة البروتانية عند عودتي إليها في سنّ الرشد، وكأن أحدهم جردني من عناصر وجودي الثابتة والمتمثِّلة في طمأنينتي.

هل تشغل- إذاً- منطقة «بروتاني» مكانة مهمّة جدّاً في خريطتك الشخصية، والأدبية؟

- لقد وهبتني منطقة «بروتاني» الثقة في نفسي، والثقة في القدرة على الوجود وعلى إثبات فردانيتي وهويّتي؛ الهويّة التي خلقتها لنفسي، فهي حصني وعالمي الصغير. مع أني آسف على ما قد وَلَّى، أن انطباع الانتشاء بَاقٍ، وباقية معه السعادة العارمة؛ كوني تعرفت على تلك المشاهد وعلى تلك المُزارِعة، وعلى رئيس الصيادين الذي كان يرسم لوحات يوم الأحد. كلّ ذلك كان مدهشاً جدّاً؛ ما أشعل بداخلي الرغبة في أن يستمر هذا الأمر، وسبيلي الوحيد يكمن في تدوينِهِ.

غير أن منجزك خالٍ من الحنين إلى الماضي!.

- لا أحس بنزوع نحو الحنين إلى الماضي، والطفولة مرحلة عزيزة على قلبي؛ لأنني أعتقد كما تعتقد «فلانري أوكونور» أن ما نعبر عنه خلال حياتنا، قد تشكَّل ابتداءً من اللحظة التي اكتمل فيها وعينا؛ أي من السابعة والثامنة من العمر وحتى مرحلة المراهقة نحو الثالثة عشرة والرابعة عشرة منه، وهي فترة تعتبر عِماداً لكلّ ما سيليها. يقول بروست: «لا وجود للخيال، وحدها الذاكرة موجودة»، والذاكرة هي، في جل الأوقات، ذاكرة مبتكرة، أُنشِئَت من جديد. فالأمر، هنا، لا يتعلق بحكاية ذات سرد أفقي قد نتتبّع من خلاله طفلاً انطلاقاً من عمر معيَّن إلى آخر، فلا وجود لعنصر نفسيّ يشهد على التغيّرات التي تَعْتَمِلُ داخله، فالأمر هنا عبارة عن أمور متوالية لا تَفاضل فيها بين الصواب والخطأ، وبين الكذب والصدق.

على غرار ما يحدث في الحكايات؟

- لقد كنت مولَعاً بهذه الصيغة، فمنطقة «بروتاني» تنسكب داخلها. إنني أحب الكِتابات التي تمزج بين الحياة والمتخيَّل والأساطير، أحب أن أعبّر عن أحاسيسي من خلال الصور مثلما فعل شعراء فترة التانغ في تعاطيهم مع الطبيعة. والطبيعة في منطقة «بروتاني» كانت طبيعة تبعث على الاطمئنان، لا عدوان فيها ولا شر، بل هي سحر من الجمال والامتلاء، بالإضافة إلى جانب سلبي من الأوضاع غير المستقرة، متمثِّل في ترك المواليد للمراضِع المربيات، وإدمان الكحول، فخلف سحر المشهد يثوي مشهد قاتم. لكن، هل هذا المشهد سيتحوَّل، فعلاً، إلى مشهد ساحر؟

أنت عضو في لجنة جائزة رونودو وهي اللجنة التي منحت جابرييل ماتزنيف الجائزة...

- لقد اعترضتُ اعتراضاً شديداً على ذلك الاختيار، إلّا أن أحداً لم يصغِ إليَّ. رواية «سيرافين، إنها النهاية! - Séraphin, c’est la fin!» هي دفاع عن الاغتصاب، وقد قرأتها بكثير من التقزّز.

لقد انسحب «جيروم جارسان» من اللجنة، وهو يأمل أن تحلّ محلّه امرأة...

سأحذو حذوه، فمنذ سنوات وأنا أقترح أن تُطَعَّمَ اللجنة بعناصر نسوية، لكن كلّ اللوائح التي تقدمت بها تمّ رفضها.

■ **حوار: إيزابيل سباك □ ترجمة: معاذ جمرادي**

العنوان الأصلي والمصدر:

جريدة لوفيجارو الفرنسية «Le Figaro»، العدد 523 23، الخميس: 2 نيسان/ أبريل، 2020، ص 15.

فنسان جوف

لماذا نحبّ الحكايات؟

منذ خمسينيات القرن الماضي، أخذ مُنظّرو الأدب في فرنسا موقعاً أساسياً من الحياة الثقافية، ولم يعودوا مجرَّد أتباع للمؤلّفين، وهم الذين تجاوزوا مفهوم الناقد إلى رؤية أوسع للظاهرة الأدبية وأركانها. كان أشهر هؤلاء جيرار جينيت، ورولان بارت، قبل أن تصعد أسماء أخرى مثل فيليب لوجون، وتزفيتان تودوروف، وفيليب هامون، انشغل كل واحد من هؤلاء بمنطقة من الظاهرة الأدبية، فانبرى لوجون يطوّر نظرية حول السيرة الذاتية والتباسها بالرواية، وانكبّ تودوروف في البداية على الأدب العجائبي ثمّ على نقل التراث التنظيري من الروسية، واهتم هامون بالوصف داخل الرواية. وبعد هؤلاء ظهر جيل ثالث كان أحد أبرز أسمائه فنسان جوف، مواليد 1963، وهو الذي جعل من الشخصية الأدبية محور تفكيره منذ دراساته الجامعية.

حقّق جوف موقعاً أساسياً في خارطة النظرية الأدبية منذ تسعينيات القرن الماضي بفضل ثلاثة أعمال؛ الأول صدر في العام 1992 بعنوان «الأثر - الشخصية» وهو عمل بات مرجعاً في تحليل الشخصيات الأدبية وموقع القارئ من الأدب، والعمل الثاني كان بعنوان «القراءة»، وصدر في العام 1993، ويضع القارئ في قلب العملية الإبداعية، وهو ما يمثّل ثورة داخل منطق تناول الآثار الأدبية، علماً أنّه عمله الوحيد المترجم إلى العربيّة، ومن المفارقات أنّه عُرّب في مناسبتين الأولى عن «دار رؤية» بترجمة محمد آيت لعميم وشكير نصر الدين، والثانية عن «دار سناترا» بترجمة سعاد التريكي. وأمّا كتابه المرجعي الثالث فصدر بعنوان «شعرية الرواية» سنة 1998، وفيه يقدّم جوف حوصلة للنظريات التي تناولت جميع عناصر الرواية من العنوان إلى دراسة الحكاية داخلها.

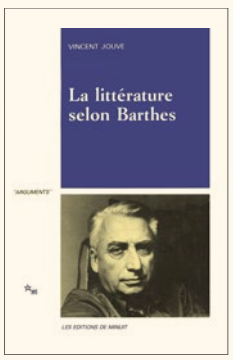

بقيت التسعينيات الفترة الأكثر خصوبة في منتج جوف، حيث قلّت إصداراته ولم يحقّق من الشهرة الكثير على خطى جيل أساتذته، فقد برز له في القرن الجديد كتاب وحيد بعنوان «لماذا ندرس الأدب» عام 2010، وها هو يعود في نهاية 2019 ليصدر كتاباً جديداً بعنوان «سلطات التخييل: لماذا نحب الحكايات؟» (منشورات أرمان كولان)، ليطرح أسئلة راهنة، وكأن سنوات الغياب لم تكن سوى مسافة لتأمّل المشهد، ليس الأدبي فحسب بل- أيضاً- خارجه من سينما ومسلسلات وبرامج تليفزيونية تعتمد الحكي.

يجيب الكتاب على سؤال دارج منذ عقود: لماذا أخذت الرواية، كجنس أدبي، مساحة موسّعة على حساب الأجناس الأدبية الأخرى من شعر ومسرح وقصّة وغيرهم؟ اهتمام لا يقف عند شرائح المتلقين، فالرواية تجد- أيضاً- الأبواب مشرعة لدى الناشرين كما لا تجدها أنواع الكتابة الأخرى، ثم تتلقّفها قراءات الصحافيين ثم النقّاد والجامعيين أكثر من أي شكل آخر. ينتبه جوف إلى أن ظواهر مشابهة حدثت في مجالات أخرى حيث يقف على استثمارات خيالية في تنفيذ أفلام ومسلسلات قائمة على التخييل ثم إقبال جماهيري كبير في استهلاكها، وبموازاة ذلك تبعث مجلّات ومواقع إلكترونية للتقييم والدعاية، وهو ما يشير إلى منظومة متكاملة باتت تجعل من التخييل محورها.

يُسند جوف ملاحظاته على معطيات إحصائية، ولا تهمه هنا النسب الشاملة لكلّ الإصدارات، فلا معنى لأن نقول بأنّ نصف الكتب التي نُشرت في سنة من السنوات هي من صنف الرواية حين نعرف أن نسبة كبيرة جدّاً من الكتب تظل غير مقروءة. اختار جوف من الإحصائيات ما يتعلّق بقوائم الأكثر مبيعاً، وبالتالي ما يفترض أن يكون الأكثر مقروئية، وهنا يلاحظ أن ثلثي الكتب التي حضرت في قوائم الأكثر مبيعاً سنة 2016 كانت من الروايات. هذا الوضع هو بالنسبة لجوف مستحدث في تاريخ البشرية، فما الذي يجعل من المُتخيَّل مادة استهلاك بهذا الحجم؟

طوال مسيرته، انتصر جوف- مثله مثل أمبرتو إيكو- للقارئ

فنسان جوف ▲

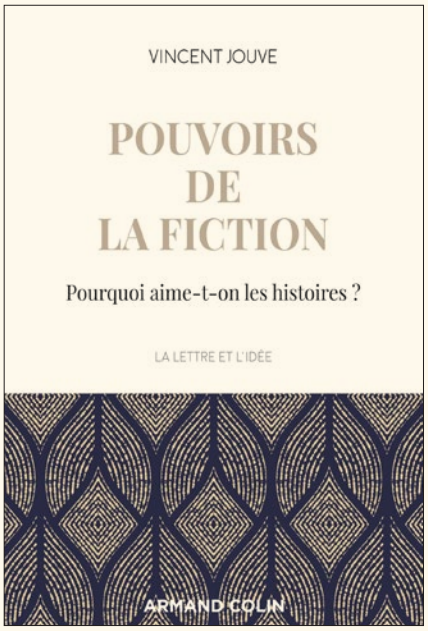

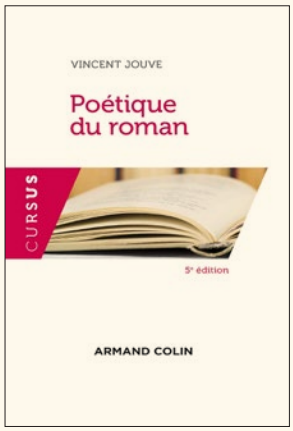

طوال مسيرته، انتصر جوف- مثله مثل أمبرتو إيكو- للقارئ باعتباره عنصراً أساسياً في العمل الفنّي السؤال الذي يتصدّى له ظلّ بلا إجابات شافية لأن البحث انصبّ في الغالب على النصّ، وهو ما أخفى ما هو أبعد من ذلك، وهو المجتمعات التي ينهل منها المبدعون نصوصهم

باعتباره عنصراً أساسياً في العمل الفنّي، وهو هنا يذهب عكس معظم النقَّاد والأكاديميين، وفي كتاب «سلطات التخييل» يعتبر أن السؤال الذي يتصدّى له من أجل تفسير «شرعية» هذه السلطات ظلّ بلا إجابات شافية لأن البحث انصبّ في الغالب على النصّ، وهو ما أخفى ما هو أبعد من ذلك، وهو المجتمعات التي ينهل منها المبدعون نصوصهم أو مشاهدهم ثم يتوجّهون بما أنتجوه إليها، وإن الحاجيات والميولات التي تعتمل في هذه المجتمعات هي من العناصر الأساسية لفهم الظواهر التي تخترقها، ومن هذه الظواهر ذلك الصعود المثير للمتخيّل ضمن المادة الاستهلاكية.

فمن أين تأتي هذه الجاذبية التي تكتنف الحكايات المتخيّلة سواء أتت في شكل رواية أو فيلم أو مسلسل أو مسرحية؟ وما الذي يبحث عنه الإنسان حين يفتح رواية أو يدخل إلى قاعة سينما؟ وكيف لعالم لا يمتّ بصلة إلى الواقع أن يشدّ اهتمامنا؟ هنا يقترح جوف مفهوم «الإغواء السردي» Séduction narrative للإجابة عن أسئلته التي تتتابع على طول العمل، وهو يخرج هنا بشكل واضح من خلفياته كمنظّر أدبي، فيستفيد من أدوات أتت من حقول معرفية متنوعة مثل الأنثروبولوجيا، والفلسفة، وعلم الاجتماع.

يرى جوف أن المواد التخييلية ليست سوى استجابة لطلب اجتماعي، إذ تتيح الحكاية وضع رغبات كثيرة يشطبها المجتمع خصوصاً مع صعود نموذج الحياة المعقلنة التي حاولت تقليد النموذج الصناعي منذ قرنين في كلّ مجالات العمل وفي المدرسة وحتى في الفنّ والثقافة. هذه الحياة المعقلنة يقلّ فيها حضور اللامتوقع، وهو ما يفتح رغبة لحضور هذا العنصر الذي يهزّ بعضاً من روتينية الحياة، لكن الإنسان نفسه يفضّل أن يأتيه اللامتوقع ضمن منتج ثقافي حيث يكون في مأمن وهو يلعب دور القارئ أو المتفرّج، بالتالي فإن الروايات والأفلام والمسلسلات والمسرحيات تُشبع تلك الرغبة في اللامتوقع، وتلبّي- في نفس الوقت- حاجيات الطمأنينة إلى عدم سلب مكتسبات أخرى من الحياة الاجتماعية، وهذا الشعور بالطمأنينة يزيد في متعة المُتلقي، ومع نهاية استهلاك المنتج الثقافي يكون مُهيَّأً لاستهلاك غيره مع اختبار ثنائية الحاجة إلى اللامتوقع وطمأنينة دخوله دون أضرار.

يفكّك جوف مفهوم الاهتمام بالمادة التخييلية إلى ثلاثة عناصر هي: الانتباه، وحبّ الاطلاع، والقيمة. وهي المحركات الثلاثة للإغواء السردي، فإلى جانب منتجي المادة التخييلية من روائيين ومخرجين يوجد معهم مساعدون هم من يربطون المجتمعات بهذه الصناعة، ومن هؤلاء: الصحافيون، والنقَّاد، ومنجزو الجينريك، والموزّعون، وحتى أصحاب قاعات السينما أو المكتبات، لكلّ طرف من هؤلاء مصلحة في جلب القارئ أو المتفرّج، وبالتالي فهم يوجّهون انتباهه أو يحرّضون حب الاطلاع لديه، ويرفعون من قيمة المنتج الذي يقدّمه الروائي أو المُخرج، هكذا تصبح تلك

العلاقة، التي طالما اختصرت في كاتب/ قارئ أو مخرج/ متفرج، عبارة عن نظام إيكولوجي متكامل العناصر، تحضر فيه كلّ الرهانات الاجتماعية.

لكنّ إضاءة المنظومة في مجملها لا يمنع جوف من محاولة فهم العلاقة التي تنبني بعد نجاح محاولات الاستقطاب، أي حين يبدأ القارئ أو المتفرّج في استهلاك المادة التخييلية. يرى جوف أنه ومنذ أن يلقي المؤلّف بعناصر عالمه التخييلي حتى يبدأ المتلقّي في طرح الأسئلة، وهذا كافٍ للدخول في حالة من الاهتمام، فمثلاً حين يعلن المؤلّف أن روبنسون كروزو قد نجا من غرق السفينة، واستقر به الحال في جزيرة بمفرده، سيتساءل المتفرّج ضمنياً: ترى كيف سيتدبّر أمر حياته؟ بفضل هكذا سؤال يعترف الإنسان- المتفرج- القارئ بعالم ليس عالمه، وهذا الاعتراف يعني التورّط فيه، ومرّة أخرى يعتمد جوف على فكرة اللامتوقع، حيث يرى أن الفتنة التي تصاحب استهلاك العمل التخييلي مرتبطة بكون نسبة حضور اللامتوقع أعلى من الحياة العادية، وهذه النسبة تتيح مزيداً من الاهتمام، وهي تتزايد مع تقلّص منطقة اللايقين في حياتنا، وذلك يفسّر صعود جماهيرية التخييل لما هو اجتماعي تاريخيٌّ شامل.

على مستوى آخر، يشير جوف إلى أن التخييل يسمح بتلبية الحاجة العاطفية، والتي تمثّل- في حدّ ذاتها- محرّكاً نشطاً للإغراء السردي، فأن تعرف بأنك تستطيع اختبار مشاعر من قبيل الحب أو الفرح أو الاندفاع أو الكآبة وأنت جالس في مقعد مريح، هو أمر كافٍ لتجديد التجربة في كلّ مرّة، إضافة لدور آخر تلعبه الحكايات وهو تعويض النقص الشعوري في الحياة اليومية، فلا يمكن مثلاً أن نحبّ كل أسبوع، غير أنه من الممكن أن نتابع مسلسلاً عاطفياً كلّ يوم.

هذه الحاجة مرتبطة بمسألة قريبة من اهتمامات جوف النظرية، فلا ينبغي أن يغيب عن اعتباراتنا أن وراء المؤلّف يقف جهاز نظري طوّره على مدى عقود، وهو بذلك يُحسن تفسير مسألة تلبية الحاجة العاطفية التي تقوم على مبدأ

يشير جوف إلى أن الحكاية تلعب دوراً في العالم الحديث لتعويض النقص المعرفي، ففي ظلّ تضخّم كتلة المعلومات بشكلها الجاف يتيح السرد معالجة أفضل لاستهلاك المعرفة، فأن نقرأ رواية لتوماس مان يعني أن نعوّض النقص المعرفي حول ألمانيا في مرحلة ما من تاريخها، وأن نتفرّج على مسلسل «كازا دي بابل» يعوّض نقص المعرفة بعالم الجريمة الذي لا يمكننا الاحتكاك به في حياتنا اليومية دون خسائر جمة

«الولوج النفسي»، أي القدرة على تلبّس حالة شخصية من الشخصيات المتخيّلة، مثل تعذيب الضمير الذي يعيشه راسكلونيكوف بطل رواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي، أو الفزع الذي تعيشه شخصيات أفلام هيتشكوك أو روايات كافكا، ومن خلال هذا الطرح يبدو جوف وقد أجاب على سؤاله القديم في كتاب «الأثر - الشخصية»: كيف يمكن أن تصاحبنا شخصية أدبية، وتستمر في الحياة معنا بعد أن نغلق الكتاب دونها؟.

في «سلطات التخييل»، يعمّم جوف هذه المصاحبة، فنحن لا نلج- فقط- إلى الشخصيات المتخيلة بل- أيضاً- إلى فضاءات جغرافية لا نعرفها، فمع دونكيشوت نتعرّف على جغرافية إسبانيا، كما نلج إلى مراحل تاريخية فنكون في نهاية القرن التاسع عشر مع إميل زولا، وفي كلّ مرّة نخرج من الرواية أو الفيلم بهذه الآثار معنا لتصاحبنا في بقية حياتنا. ومرّة أخرى، يشير المنظّر الفرنسي إلى أن القارئ أو المتفرّج يستمتع بكونه قادراً على تجارب من هذا النوع دون وجود أي خسارة محتملة، ناهيك عن المتعة الجمالية.

يرى جوف أن الحكايات التخييلية ذات قدرة على محاكاة القرب لا تتمتَّع بها الحكايات الواقعية، فمثلاً تصنع أفلام الكوارث حالة من التعاطف مع الضحايا لا تصنعها نشرات الأخبار، فيكفي لمتابع فرنسي أو أميركي أن يعرف بأنّ كارثة وقعت في الصين أو البرازيل كي يشعر بمسافة هي المسافة الجغرافية كما هي في الواقع، بينما تسقط هذه المسافة داخل العوالم التخييلية فلا فرق أن تدور الأحداث في فرنسا أو في الصين.

يشير جوف- أيضاً- إلى أن الحكاية تلعب دوراً في العالم الحديث لتعويض النقص المعرفي، ففي ظلّ تضخّم كتلة المعلومات بشكلها الجاف يتيح السرد معالجة أفضل لاستهلاك المعرفة، فأن نقرأ رواية لتوماس مان يعني أن نعوّض النقص المعرفي حول ألمانيا في مرحلة ما من تاريخها، وأن نتفرّج على مسلسل «كازا دي بابل» يعوّض نقص المعرفة بعالم الجريمة الذي لا يمكننا الاحتكاك به في حياتنا اليومية دون خسائر جمة.

أمّا ركيزة «الإغواء السردي» فتتمثَّل بالنسبة لجوف في توفير تلبية لطلب المعنى. فالحكاية سواء كانت مقروءة أو مشاهدة تقترح سلسلة من الأحداث المتتابعة والمترابطة كي تصل إلى نقطة نهاية، إنها محاكاة لصناعة المعنى. يقول جوف: «كم هو مطمئن هذا الشعور بوجود نهاية»، وهو، كما لا يخفى، شعور لا يمكن أن توفّره الحياة؛ نهاية معايشة نصّ سرديّ أو عالم تخييلي في فيلم أمر لا يمكن أن نختبره في الحياة، وهو عامل آخر من عوامل ازدهار الحكايات.

هكذا، يرسم جوف مشهداً للثقافة المعاصرة، وهو يتصدى لتفسير هذا التوسّع الكبير للحكاية المتخيّلة ضمن أنماط الاستهلاك الثقافي، مفسّراً في الأثناء العديد من الظواهر الجانبية. لكن لو أننا عدّدنا معه تلك الأعمدة التي أقام عليها تفسيره لسطوة الرواية والفيلم والمسلسل، مثل: تقديم اللامتوقع، والتعويض العاطفي والمعرفي، وتبسيط المعقّد، ألا نجد أن هذه العناصر مجتمعة أو عدداً منها قابلة للاستعمال من أجناس أخرى فتخلق فتنته هي أيضاً بما هو متاح؟ ما الذي يعيق تلك الأجناس من الاستفادة من نفس العوامل التي صنعت أمجاد الرواية والفيلم السينمائي؟ ■ **شوقي بن حسن**

في رحيل الشاعر (مبارك العامري)

ناي الروح

هو عام استثنائي تؤرّخ به التواريخ نفسها، فاصلة بين الأعوام، لم تقف فيه الأرض لكنّ العالم توقَّف، من قوة الواقع الأغرب من الخيال، وما كاد يحلّ ربيع هذا العام حتى فقدت الأوساط الثقافية العمانية أحد وجوهها البارزة عبر عقود، الشاعر والروائي والإعلامي (مبارك العامري) الذي غادر هذه الحياة في الخامس من إبريل/نيسان الماضي، وهو الرجل الذي كان العقدان الأخيران- تقريباً- من حياته صراعاً ومعركة حقيقية مع المرض.

مبارك العامري ◄

ماذا يَفْعَل الشُعَراءُ
غَيْرَ الاتِّكَاءِ على جدارِ القَصيدَةِ
أو ترتيب حباتِ المطرِ في قِلادة
فربما تنبجسُ الحقيقةُ..

(مبارك العامري)

تتشابه النهايات الإنسانية كما تتشابه بداياتها في الطريقة العامّة، ما من فرق كبير بين الناس في الميلاد والموت، مهما اختلفت الأسماء والصفات، فنهاية العمر أمر يلح على الأفكار، وكلّما وقعنا في غرام مكان ما نقول لأنفسنا سنعود إليه لنقضي بقية أيامنا فيه، فأكثرنا يبحث لآخر العمر عن بوابة جميلة ليخرج منها، وليت شعري أيبلغون تلك البوابة حقّاً أم لا.

جعل مبارك العامري من عمله في مجلّة «العقيدة» منذ 1978م، إحدى الوجهات الثقافية للأدباء والمثقّفين في عُمان باختلاف أجيالهم وتوجهاتهم، وأشرف- آنذاك- على إصدار ملحق الملتقى الثقافي، الذي لعلّه كان الملحق الثقافي الأبكر عمانياً، مواكباً عدّة مطبوعات مثّلت للقرّاء والكتّاب في ذلك الزمن واحات ظليلة، وأصبح مكتبه في المجلّة ملتقى أسبوعياً وحجر أساس للنادي الثقافي بمسقط، الذي كان اسمه حينها النادي الجامعي، والذي ما يزال نشطاً إلى يومنا هذا.

كان الزمن الذي أفضى بهم إلى هذا الطريق مختلفاً، وكتب العامري يصوّر ذلك الزمن القديم الذي جاء منه بقوله:

حينَ لا كَهْرَبَاء
كُنَّا نَنَامُ
على أسْطُحِ المَنَازِلِ
المَفْروشَةِ بالنَدى..
فَنَرى في النُّجُوم
وجوهَ من نُحِبُّ
زاهِرَةً
على صَفْحَةِ الأُفُق..

وفِي أمْشَاجِ الغُيومِ
تُطَالِعُنَا
صُوَرُ أحلامِنَا
الهَارِبَةِ مِنْ أقْفَاصِ
واقعِهَا المَأْزوم..

وقوله يستذكر صباه المدرسي القديم:

كُنْتُ أقْرَأُ
أَلْفِيَّةَ ابْنِ مَالِك
على فَتيلِ قِنْديلٍ
شَحيحٍ
فَوْقَ السَطْحِ
حَتَّى أبْوابِ الفَجْرِ
ثُمَّ أُهَرْوِلُ مَاشِيَاً
إلى المَدْرسَةِ
لِأَلْحَقَ بِجَرَسِ
الصَباحِ
الَّذي لَا يَنْتَظِر..

كان زمناً بسيطاً غير متكلف ولا متصنّع، يرعى جوهره، ويعرف الفرق ببساطة بين المهم وغير المهم، وظلّ حنين العامري إلى ذلك الزمن متقداً حتى آخر حياته حيث كتب في العام الماضي:

لَمْ أعْصِ انحدارَكِ
أيتها الدمعةُ الحبيسةُ
لحظةَ اقترابِنَا مِنْ عَتبةِ البَابِ
فقد كانَتْ الذكرياتُ نائمةً بثيابِهَا
على حصيرةٍ مُتَهالِكَةٍ
في الفِنَاءِ
كَمَا تَرَكْتُها أوَّلَ مَرَّة..

أسَّسهم ذلك الزمن، ولعلّهم ارتضعوا منه الحبّ ورغبة مرافقة الجمال، واللهفة المحمومة للحياة، والتي ظلّت تنضح بها قصائد العامري، وتستعيدها طوال العقد الأخير من حياته، هو الذي غادر الحياة باكراً في السابعة والخمسين.

في العقد الأخير من حياته حرص العامري، ابتداءً من العام 2011، وبشكل مواظب وكثيف، على تدفق نبعه الشعري عبر صفحته الشخصية على الفيسبوك، في ظاهرة ثقافية عربيّة شاملة تستحق وقفة وتأمّلاً، وكان إخلاص العامري لتأكيد حضور الشعر في منصة الفيسبوك بلا نظير تقريباً، عماني وعربي، في حضور كثيف وتدفق شعري لا يعرف التوقُّف إلّا اضطراراً، حتى تولّد من حوله واقع جديد، كأنّما وجدت خبرته الإعلامية الثقافية القديمة ضالتها هناك.

هكذا شكّل حضوره حلقة وصل حية بين الأجيال، مثلما أشارت الشاعرة فاطمة الشيدية إلى أنّ (مبارك العامري) كان استثناءً بين مجايليه الذين ظلّت علاقتهم بمنصات التواصل الاجتماعي خجولة ومتذبذبة، وبهذه الوسيلة المعاصرة وصلت كلمة العامري إلى شرائح واسعة من القرّاء عبر العالم العربي وخارجه، مثلما تمخض ذلك عما هو أكثر من اللقاءات الواقعية إلى رسائل أكاديمية في شعره، ومشاريع لترجمته إلى لغات أخرى.

اقترب العامري بصوته وكلمته من نبض الشارع ومن وسائل تعبير الجيل المعاصر، وكانت كلماته تلامس الاهتمامات الاجتماعية إبّان حدوثها، فواكب العامري بمنشوراته في العقد المنصرم عدداً كبيراً من الأحداث والوقائع والحكايات الثقافية ووثّقها، كما دعم تجارب الكتابة الشبابية الجديدة بكلمات التشجيع والاستحسان التي كان لا يبخل بها، قدر ما أتاحه له الزمن والصحّة التي ظلّت تتهاوى به وتنهار، فيما هو لا ينفك يقاوم.

ظلّ الألم يظهر كلّ فينة وأخرى في قصائده بطريقة جارحة، حتّى أنّه صرّح برغبته في الرحيل منذ أعوام مضت، من شدة الوجع:

خُذِيني أيَّتُهَا الأَرْضُ الرَؤوم
إلى حُضْنُكِ الدَافِئ
فَلَمْ تَعُدْ لِي حَاجَةٌ
للمُكوثِ هِنَا
فَوْقَ أحْراشِ الغَابَةِ
بِرِفْقَةِ الأَلَمِ الثَمِلِ
صَديقي اللدُود..
(19 سبتمبر/أيلول 2013م)

وقوله في (5 فبراير/شباط 2015):

لَمْ تَعُدْ هَذِهِ الحَيَاةُ
الجَاثِمَةُ بألمِهَا العَميقِ
على نَسْخِ أرواحِنَا
سِوَى لُعْبَةٍ سَمِجَة
لِذَا فَهِيَ لَيْسَتْ جديرةً
خلا بِتَلْويحةِ وَداعٍ
أَخيرَة..

ولّد ذلك الألم المكتوم كلمته الشهيرة «هو ليس نايّاً، ولكنّها الروح سادرة في الأنين» فصارت لازمة له ولشعره، وشاعت بين قرائه، وكأنّه نحت، في تلك الكلمات القليلة، ما يبدو لنا أنّه إرثه الشعري.

ظلّ ناي الروح يئن، وكان صوت ذلك الناي يعود ويتكرر صداه في كلماته، فيما يشبه الدوران المُلح، والتوكيد المواظب الذي لا يتوقّف، منذ ظهرت العبارة أوّل مرّة في منشور له في سبتمبر 2011م، ومرة أخرى في أغسطس/آب 2013، ويناير/كانون الثاني 2015م، ثمّ في العام التالي نشر نصّاً يربط الناي بالألم:

أتألم
والأنين نايي.
(23 سبتمبر/أيلول 2016)

للناي أنّة معروفة، طويلة بتلاحق الأنفاس، تثير الحنين والحزن بشكلٍ مؤكَّد، لكن ما يتبادر أنه صوت الناي هنا ليس كذلك، بل هو أنين الروح المستمر، كأنّ للروح صوتاً يشبه الناي، ولنؤكِّد- كذلك- أنّها الروح وليست الجسد، هي مصدر هذا الحنين الحزين الذي يلتبس على السامع فيظنّه صوت الناي.
لماذا هي الروح سادرة في الأنين؟ لأنّها تتألم، ومم ألمها؟ لأنّها- عما قليل- تفارق الجسد، وكلّما نضح الجسد بالحبّ فإنّه يوثّق عمق عشق الروح للجسد؛ لكنّ الفراق يقترب، وهذا الصوت ليس ناياً، ولكنّها الروح سادرة في الأنين، تلك العبارة تحديداً دون سواها كانت آخر كلمة ينشرها الشاعر من فوق سرير احتضاره في المستشفى، منتصف آخر ليلة من شهر مارس/آذار 2020، قبل خمسة أيام من رحيله.

هَا يَدايَ إِضْمَامَةُ أَزْهَارٍ
رُغْمَ سَطْوَةِ الأَلَمِ
فِي انْتِظَارِ تلويحةٍ مِنكِ
أَوْ ابْتِسَامَة..

نشر العامري روايتين هما «مدارات العزلة» و«شارع الفراهيدي» وديواناً يتيماً هو «بسالة الغرقى»، لينضم بذلك لفريق من مجايليه قليلي النشر، أشهرهم الشاعر عبدالله الريامي، مقابل فريق آخر كثيف النشر، أشهرهم سماء عيسى، وسيف الرحبي، ومحمد الحارثي. وتلك الكتب الثلاثة هي المحصلة المباشرة لنتاجه الأدبي، ولا شك أنّه كتب الكثير، لكنّه كان من الخفة، بظني، حتى عجزت الجاذبية عن دفعه لنشر بقية نصوصه المتناثرة، مدفوعاً بتيار الزمن الذي كان يستحثه، فيما أراد هو أن يستقي جمال الوجود أكثر، ولا وقت لديه حتى لمراجعة وصفٍ ما سبق وكتبه، فالزمن لا ينتظر:

سَأَتَوارَى حَتْمَاً
حينَ يَسْتَنْفِدُني
الحُبُّ
فَلا تَسْتَعْجِلْنِي،
رَجَاءً،
أَيُّهَا الرَمَقُ الأَخير..
(27 مايو/أيار 2013)

بقي العامري حتى آخر عمره حريصاً على ارتياد المقاهي، ينتظر وردة يغسل عينيه بها، أو جمالاً خاطفاً ينتشي به، ينتظر إلهاماً ينسيه آلامه الضارية التي جعلته يخشى قدوم الليل ويهرب منه، لو كان ثمة مهرب، قد نهرب من المكان الخطر لكن كيف نهرب من الزمن الخطر؟
جعلت قصيدته تتكشَّف عبر تدفقه الشعري الذي لا يتوقَّف، وذلك التدفق كان يكشف المناطق الأعمق من جذور قصيدته، ولم يكن هو بالذي يحجب من صفائه شيء، وكلما اشتدّ الألم كان أنين الناي يعلو:

كياني برمّته
سادر في الأنين
كناي تزأر فيه
الريح..
(15 أغسطس/آب 2016)

ورغم ذلك الألم الضاري كانت قصائده تقاوم بالحب والجمال، وتعاود استمهال الموت:

أَيّهَا الطَارِقُ تَمَهَّل
فَلَدَيَّ شَغَفٌ
لَمْ يَنْفَدْ بَعْدُ
لِبَعْضِ حَيَاة..
(7 يونيو/حزيران 2015)

ظلّت حالته الصحية تتذبذب بين صعود وهبوط، بين انتعاشة وانتكاسة، وكان هو متشبثاً بكلّ عزم بالجمال:

للجمال وحده
سأفني ما بقي
من العمر
وما عداه
لا أعول عليه..
(12 مايو/أيار 2016)

لما حلّ عام 2018م، ابتدأت أجراس الرحيل تقرع مؤذنة باقتراب الرحيل، ففي مارس/آذار من ذلك العام هُدم بيت الشاعر القديم في الخريس من بلدته حيل العوامر، وهو الذي كان يحلم أن يجعل منه مكتبة عامّة:

وداعاً بيتنا القديم
لقد تساويت مع التراب
واقتفيت خطى الغائبين..

وما كاد ينقضي العام حتى توفيت والدته في (5 نوفمبر/تشرين الثاني 2018م):

آهٍ أيُّها اليُتْمُ،
الذي حَلَّ بَغْتَةً
كصَخْرَةٍ صَلْدَةٍ
سَقَطَتْ مِنْ عَلٍ،
ما أقْساك..

في فبراير 2020 استدعت حالته ملازمة المستشفى، هو الذي صدح المغني والفنَّان بخيت الشحري بكلماته «اعبري بي فوق نهر الذكريات»، كان قد بلغ الضفة الأخيرة، وهناك قبل شهر من رحيله أجرى معه الشاعر والصحافي محمد الحضرمي آخر لقاء صحافي، ليستعيد معه نهر الذكريات ذاك.
وما كاد هذا العام الغريب يبلغ بوابة الربيع حتى ترجل جسد الشاعر عن صهوة حياته، مودّعاً حبيبته الروح وعينه سكرى من الحبّ بخمرة الكلمات:

كان الكلامُ كأساً مُتْرَعَةً
ثَمِلْنا بها
في حين كانَ الصمتُ
لحظةَ شعرٍ
تقاسَمْناها بكثيرٍ من الأَثَرَة..
(12 نوفمبر/تشرين الثاني 2011)

■ **إبراهيم سعيد**

راهن الروايّة العربية والمستوى الفني المأمول

حيرة الناقد

من الطبيعي أن يقع الناقد في الحيرة وهو يريد نتاجاً روائياً ينمذج به على قضية فنية يبحث فيها أو تقانة سردية يعمل عليها، وفي بعض الأحيان يضيع جهده ووقته وهو ينقّب بلا جدوى بين كم الكتابات التي ليس فيها فنّ ولا إبداع

مرّت الرواية العربيّة بطفرات قفزت بها من سمتها التمهيدية الحديثة إلى سمة النضج الفكري الذي بلغت به سن الرشد، وكانت أولى هذ الطفرات على يد نجيب محفوظ ولاسيما في روايته «أولاد حارتنا» عام 1959، ثم اضطرد تطوّر الفنّ الروائي العربي منذ ستينيات القرن الماضي بدءاً برواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني الصادرة عام 1963، ثم رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح عام 1966.

ثم كانت الطفرة الثانية التي فيها توالت الإنجازات السردية الباهرة بدءاً بسداسية «الأيام الستة» 1969، و«الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» لأميل حبيبي 1974، ورواية «كانت السماء زرقاء» لإسماعيل فهد إسماعيل 1970، ورواية «الزيني بركات» لجمال الغيطاني، مروراً بحرافيش نجيب محفوظ عام 1977، ووصولاً إلى إنجازات إدوار الخراط التي ابتدأها بروايته «رامة والتنين» عام 1980، وإنجازات فؤاد التكرلي في روايته «الرجع البعيد» عام 1980.

لتكون الطفرة الثالثة، أواسط العقد الثمانيني، بمثابة انعطافة مهمّة، بها جدَّدت الرواية نضجها عبر إعادة كتابة التاريخ بفهم جديد مختلف ومميَّز وذلك بسردنة التاريخ وأرخنة السرد استلهاماً وجوساناً في مسكوتات التاريخ الرسمي وممنوعاته ومباحاته، تواشجاً مع النظريات الحديثة للتاريخ لدى هايدن وايت، وبول ريكور، وليندا هتشيون، وقد ابتدأتها روايات أمين معلوف، ثمّ تواصلت الروايات العربيّة التي تتبنى توظيف المتخيَّل التاريخي والواقعية الإيهامية ومنها رواية «حكايات دومة الجندل» لجهاد مجيد، وكذلك إرهاصات هذا النهج في السرد القصير لدى محمد خضير ومحمود جنداري.

إن هذه الروايات وغيرها تمثِّل صفوة منجزات الرواية العربيّة على الصعيد التقني والذي قاربت به أرقى المستويات في الفنّ الروائي الغربي، وهو ما افتقدته وافتقرت إليه روايات مطلع القرن الحادي والعشرين التي تخلفت عن ذلك الركب إلّا ما ندر، وفيها كثرت الروايات، وضاع ذلك التاريخ الذي فيه تراكمت الخبرات، وتعدَّدت الإنجازات لتعيش الرواية العربيّة أزمتها باحثة عن منفذ تخرج به من هذه الأزمة.

وأس تلك الأزمة هو الفنّ الذي تراجع ليتقدَّم عليه الموضوع، ونظرة مقارنة وفاحصة في عديد من الروايات التي كُتبت في أربعة بلدان عربيّة هي العراق ومصر وسورية وفلسطين بين الأعوام 1960 - 1973 سيبيّن أنها لم تكن تتجاوز المئة في كلّ بلد من هذه البلدان، ففي مصر 88 رواية، وفي سورية 61 رواية، وفي العراق 57 رواية، وفي فلسطين 33 رواية فقط.

وساهمت هزيمة (حزيران) يونيو في زيادة أعداد الروايات بحسب الملحق الذي وضعه شكري عزيز ماضي في كتابه «انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية» والصادر عن المؤسَّسة العربيّة للدراسات والنشر في بيروت، عام 1978. والكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه من جامعة عين شمس، وبإشراف الدكتورة سهير القلماوي.

وما بين الأعوام 1974 - 1994 ازدادت أعداد الروايات، فصارت بالمئات في أغلب البلدان العربيّة. ليزداد هذا العدد أضعافاً مضاعفة، وبشكلٍ غير مسبوق، من منتصف تسعينيات القرن الماضي إلى العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين.

ومع تزايد أعداد الروايات تزداد الأزمة عمقاً، فيضيع القليل الجيّد من الأعمال في خضم الكثير الهزيل، حتى أننا لم نعد نجد من يُتقن تسخير الفنّ في سبيل الموضوع؛ إلّا نفر معدود من كتَّاب يسيرون على هدي كتَّاب كبار، مثل حليم بركات أو غائب طعمة فرمان أو إسماعيل فهد إسماعيل، أو إميل حبيبي، أو غسان كنفاني، أو الطيب صالح وغيرهم من الذين أبدعوا ما هو مميَّز فنّياً ومتجدّد نوعياً.

ويبقى الوافر الجم من الكتابات لا يتحمل أن نصفه بالسردية، لأنه أشبه بالتحريرات، والتدوينات، والتسجيلات، والتسطيرات التي تتفاعل مع الحدث اليومي، الذي هو في الأصل مثير ورائج، تفاعلاً مباشراً وتقريرياً، ليس فيه ما يشفي إبداعياً بسبب افتقاره إلى التجريب الفنّي أو التنويع الجمالي اللذين

يجعلان الإبداع كامناً لا في جرأة تناول موضوعات خطرة وحساسة، وإنّما في ذكاء الكاتب الإبداعي، وهو يعالج تلك الموضوعات من موقع يختاره بأناة ورؤية يوجّهها بصبر وعمق، فتصبح روايته إضافة نوعية في مسيرة الرواية العربيّة تؤثّر على مستوى تطور الفنّ أو على مستوى البحث في داخل هذا الفنّ.

واليوم نجد بعض المهتمين بالسرد والكتابة القصصية والروائية من النقّاد والكتّاب يصرّحون أنّ الرواية بخير، وأنّ النتاج الروائي هو المهيمن على سائر الفنون الأدبية ولاسيما القصّة القصيرة التي ستأفل بسبب ذلك؛ لكن فاتهم أن ثلاثة أرباع المطبوعات التي تحمل اسم الرواية هي ليست من الرواية في شيء. والذين يكتبونها طارئون على هذا الفنّ متسلّلون إليه لواذا، هدفهم تزجية الوقت، يُسيئون إلى تاريخ الرواية كجنس أدبي ما شهد انحساراً نوعياً مثل الذي يشهده اليوم. بينما لا يحدث ذلك في كتابة القصّة القصيرة، والسبب أن هذا الفنّ عصي على الطارئين الذين لا يستطيعون الكتابة فيه إلّا وانكشف ضعفهم، وبانت حقيقة قدراتهم.

ومن الطبيعي أن يقع الناقد في الحيرة وهو يريد نتاجاً روائياً ينمذج به على قضية فنية يبحث فيها أو تقانة سردية يعمل عليها، وفي بعض الأحيان يضيع جهده ووقته وهو ينقّب بلا جدوى بين كم الكتابات التي ليس فيها فنّ ولا إبداع.

إن التراجع النوعي غير المسبوق في كتابة الرواية وباستثناء نتاجات نوعية لكُتّاب امتهنوا كتابة الرواية أو طوروا أدواتهم فيها، هو الذي دفع بعض النقّاد إلى استشراف موت الرواية العربيّة. بيد أن الرواية لا تموت، لأنها جنس حي، يتجدّد بتجدُّد الحياة ويتّسع باتّساعها، لا يطاله الذواء والاضمحلال لقدرته على التكيف مع الحياة نفسها.

وإذا أردنا أن نحدّد بعض المؤشّرات على التراجع النوعي في بناء الرواية الراهنة؛ فإننا نجدها تتجلّى في ما يأتي:

ـ الإغراء المادي والامتيازات العينية التي تقدّمها جوائز الرواية العربية جعل الكتابة الروائية عند الكثيرين من الكتّاب تتفصّل تفصيلاً وفق مقاسات تلك الجوائز، وبحسب معاييرها التي هي في أكثرها موضوعاتية لا تحتكم إلى الفنّ؛ وإنما تحتكم إلى اعتبارات الأدلجة. وهكذا صار الاهتمام منصباً على موضوعات معيّنة من دون أي اكتراث بجماليات الشكل.

ـ غرابة موضوعات الواقع المعيش تتطلب ارتقاءً في التخييل، يصل إلى مستوى تلك الغرابة إن لم يكن أعلى منها. وهو ما يحتاج إلى قدرات لا يمتلكها إلّا الكتّاب المحترفون.

ـ ضعف الحساسية الأدبية في مناوأة المعتاد مع انتفاء الإحساس بالحاجة إلى وجود تيارات تتضاد مع بعضها فيما يشبه الحركات الأدبية أو البيانات السردية.

ـ تغاضي النقّاد عن التصدي للهبوط في الفنّ الروائي بمجادلات نقدية أو محاورات معرفية، تعمق الوعي العام بجنس الرواية وكيفياته الشكلية والتقانية، كما أن تقاعس وضعف شعور الناقد بمسؤوليته في تشخيص الهابط من الأعمال الروائية يجعله مساوماً حيناً ومهادناً حيناً آخر، ومن ثَمَّ لا يتحقّق التهيب الرادع للطارئين الذي سيجعلهم يفكّرون مليّاً قبل خوض المغامرة متلهفين إلى ضربة الحظ والصدفة اللتين تجعلان منهم مشاهير وأثرياء إن فازوا بإحدى الجوائز، وإن لم يفوزوا فلا شيء سيخسرونه!!.

ـ الاستعانة بوسائل التواصل الاجتماعي في تعديل كتابة أعمال يُراد لها أن تكون روائية أو الترويج لها من أجل حصد التقدير الذي لا قيمة فنّيّة فيه لاصطباغ التقدير بالمجاملات والنفاق الصبياني السريع والآني، وكذلك أن مستوى التلقي في الأغلب بسيط وساذج، فيغتر صاحب العمل، ويظنّ نفسه مبدعاً ليستمر في كتابة المزيد من الهراء الروائي.

ـ التراجع العلمي الذي أصاب الدراسات الأكاديمية جعل أعمالاً لا تمت بصلة للفنّ الروائي تُدرس كرسائل ماجستير أو أطاريح دكتوراه، لا فائدة تُجنى منها سوى تعزيز العلاقات الشخصية بين الكاتب والأكاديمي الذي روَّج لأعماله التي لا تستحق بحثاً يقوم به طالب في المرحلة الأولى الجامعية.

بهذه المؤشّرات وغيرها تتأكّد لنا خطورة ظاهرة التراجع الفنّي في كتابة الرواية الراهنة، وأهمّية أنْ يكون النقد حازماً، وهو يواجهها بوسائل مختلفة في مقدّمتها أن يكون النقد حارساً لبوابة الفنّ الروائي من خلال تقصّي الفنّ الهابط وفضح مساوئه.

ومن المهم- أيضاً- أن يتولّى القائمون على الجوائز بعضاً من المسؤولية الثقافية في أن لا يكون الترشح لهذه الجوائز متاحاً بالمجان، فيتقدَّم لها كلّ من شاء ورغب، بدءاً من تدافع طلاب الثانويات والجامعات على الترشيح، وانتهاء بتحول بعض الأدباء عن صفاتهم الأدبية التي عرفوا بها كشعراء أو كتّاب مسرحيين أو نقّاد واللحاق بركب الروائيين طمعاً بسخاء الأعطيات.

إن وجود ضابط يحدّد الترشح أو يحصره في نواح بعينها، سيغلق الأبواب بوجه الهواة والمبتدئين والطارئين الدائمين والموسميين. ومن تلك الضوابط أن تحدّد في الأديب المترشّح مؤهلات منها النتاج المشهود في الكتابة السردية، وأن تتكفّل بترشيحه مؤسّسات ثقافية كأن تكون اتحادات، أو هيئات، أو نقابات، أو منتديات، أو مخابر معروفة على الصعيدين المحلي والعربي، فضلاً عن كون الرواية المقبولة للترشّح منشورة بشكل ورقي، وموزَّعة توزيعاً جغرافياً معقولاً إلى غير ذلك من الضوابط التي تحجّم الكثرة العددية، وتشجع التميُّز النوعي. وبخلاف هذا فإن هذه الجوائز لن تخدم الرواية العربيّة، ولن تضيف أي جديد إلى ما حصدته من رصيد حسن كان قد تراكم طيلة العقود الماضية. ■ **نادية هناوي**

كارثة

دينو بوتزاتي

كان القطار قد قطع أميالاً قليلة (من رحلة طويلة، فما كنّا لنبلغ وجهتنا البعيدة إلّا بعد الانطلاق بلا توقف لعشر ساعات) حينها نظرت من الشباك عند تقاطع سكك حديدية فرأيت شابة. حدث ذلك بالصدفة المحضة، فقد كان يمكن أن أنظر إلى مئة شيء آخر، لكنّ عيني وقعتا عليها، وإن لم يكن لوجهها أو جسمها جاذبية خاصّة، بل لم يكن فيها أي شيء استثنائياً في حقيقة الأمر، فليس بوسعي أن أتخيَّل ما جعلني أنظر إليها. كان واضحاً أنّها مستندة إلى البوابة لتنظر إلى قطارنا، شديد السرعة، وهو قطار الإكسبريس الشمالي الذي يعدّه أهل هذه المناطق غير المتحضِّرة رمزاً لفاحشي الثراء، والحياة الرغدة، والحقائب الجلدية البديعة، والمشاهير، ونجوم السينما، فهو، بالنسبة لهم، منظر يومي رائع، وبالمجان فضلاً عن ذلك كلّه.

لكنّ القطار عبرها فلم تلتفت في اتجاهنا (ولعلها مع ذلك كانت واقفة تلك الوقفة لنحو ساعة) وإن التفت رأسها لتسمع رجلاً، يُسرع قادماً على الطريق الضيق صائحاً بشيء لم نستطع بالطبع أن نسمعه: بدا وكأنّه يحذر المرأة من خطر وشيك. لم يستغرق ذلك كلّه إلّا ثواني، إذ مرّ المشهد كلّه فور أن بدأتُ أتساءل عن طبيعة الخبر السيء الذي جاء به الرجل إلى الفتاة الواقفة لمشاهدتنا. كان اهتزاز عربتنا الموقّع قد مضى بي إلى حافة النوم حينما لاحظت بالمصادفة- بالمصادفة المحضة البسيطة- مزارعاً يقف على سور منخفض صائحاً عبر الحقول وقد أحاط فمه بكلتا يديه. وتلك المرّة- أيضاً- لم يستغرق الأمر إلّا ثواني، فقد كان القطار منطلقاً بسرعة كبيرة، لكنني استطعت أن ألمح بضعة أشخاص يجرون عبر حقول العشب والذرة والبرسيم غير مكترثين بما تطأه أقدامهم، فلا بدّ أنّ الأمر كان بالغ الأهمّية. ظهروا من كلّ الاتجاهات، من بيت، ومن فتحة في سياج، ومن وراء صف من الكروم، وما إلى ذلك، وكلّهم قاصدون السور الذي اعتلاه الشاب صائحاً. كانوا يجرون، وقد أثارهم نشاط هائج بسبب نذير غير منتظر، حطَّم سلام حياتهم. لكنني أكرّر أنّ الأمر لم يستغرق إلّا ثواني، فلم يتح وقتاً لمزيد من التأمُّل.

بدا لي غريباً أن أرى في حدود بضعة أميال واقعتين لأشخاص يتلقون أنباءً غير متوقعة، فذلك ما فسرت به ما رأيته. مضيت في شيء من الاهتمام أتفحص الريف، بما فيه من طرق ومزارع وقرى، وقد انتابني إحساس غامض بعدم الارتياح.

لعلها حالتي الذهنية وحسب، لكنني صرت كلما مضيت في تأمُّل العابر بمزارعيه وسائقي عرباته وما إلى ذلك، ازداد شعوراً بأنّ اهتياجاً غريباً يشملهم جميعاً. لم يكن ذلك خيالاً أتخيله: فكيف لأحد أن يفسّر هذا الاضطراب في الريف، وهذا الفزع الذي ألمّ بالنساء، والعربات، والماشية؟ تماثل الوضع في كلّ مكان. وبسبب السرعة التي كنّا نسافر بها استحال عليّ التأكّد، ولكن كان بوسعي أن أقسم أنّ كلّ ذلك النشاط له سبب واحد. أهو مهرجان محلي ما؟ أكان الرجال يستعدون للذهاب إلى السوق؟ ولكن القطار كان يتحرَّك بسرعة، والريف يضطرم بالنشاط في كلّ مكان، والارتباك دليل على ذلك. وبغتة رأيت صلة بين الشابة الواقفة عند تقاطع السكك الحديدية، والشاب معتلي السور، وحركات الاهتياج من المزارعين: شيء ما وقع ولم نعرف به، نحن الراكبون في القطار.

نظرت إلى المسافرين معي في المقصورة وبالخارج في الطرقة. لم يلحظوا شيئاً. بدوا هادئين تماماً، بل إنّ عجوزاً مواجهة لي بدت على وشك النوم. أم كان لديهم تصوّر عمّا يجري؟ نعم، لقد كانوا، هم الآخرون، واضحي القلق، ولم يجرؤ أي منهم على الكلام. وأكثر من مرّة أجريت بصري عليهم بسرعة كافية لأن أضبطهم ينظرون من الشباك. كانت المرأة التي بدت شبه نائمة من بين المدانين الأساسيين بالنظر من الشباك، إذ كانت تختلس النظر عبر جفونها شبه المسدلة ثم تنظر إليّ لترى إن كنت لاحظت.

نابولي، في العادة تتوقَّف القطارات هنا، لكن ليس الإكسبريس. تتابعت البيوت القديمة عابرة بنا، فأمكننا أن نرى الشبابيك المضاءة في الأفنية والحجرات المعتمة- ولم يستغرق الأمر إلّا ثواني- وبدا أنّ رجالاً ونساءً منحنون فيها على صناديق، ويغلقون حقائب. أم كان ذلك كلّه بعضاً من خيالي؟

كانوا يتأهبون للرحيل. إلى أين؟ لم يكن- إذن- خبراً سعيداً ذلك الذي بعث الكهرباء في البلدات والقرى. تهديد، خطر، رائحة كارثة. ثم فكرت: لو أنه أمر جلل بحق لأوقفوا القطار، لكن كلّ شيء كان طبيعياً؛ إشارات المرور، والمسار الفارغ، وكأنّها رحلة تجريبية للقطار.

وقف رجل يجاورني، متظاهراً أنّه يفرد ساقيه. والواقع أنّه أراد أن يرى ما يجري فانحنى أمامي ليقترب أكثر من الشباك. لم يكن بالخارج غير الريف، والشمس على الطرق البيضاء، وعلى الطرق الكبيرة شاحنات مزدحمة وجماعات من الناس راجلين، وقوافل طويلة، ومواكب بطيئة

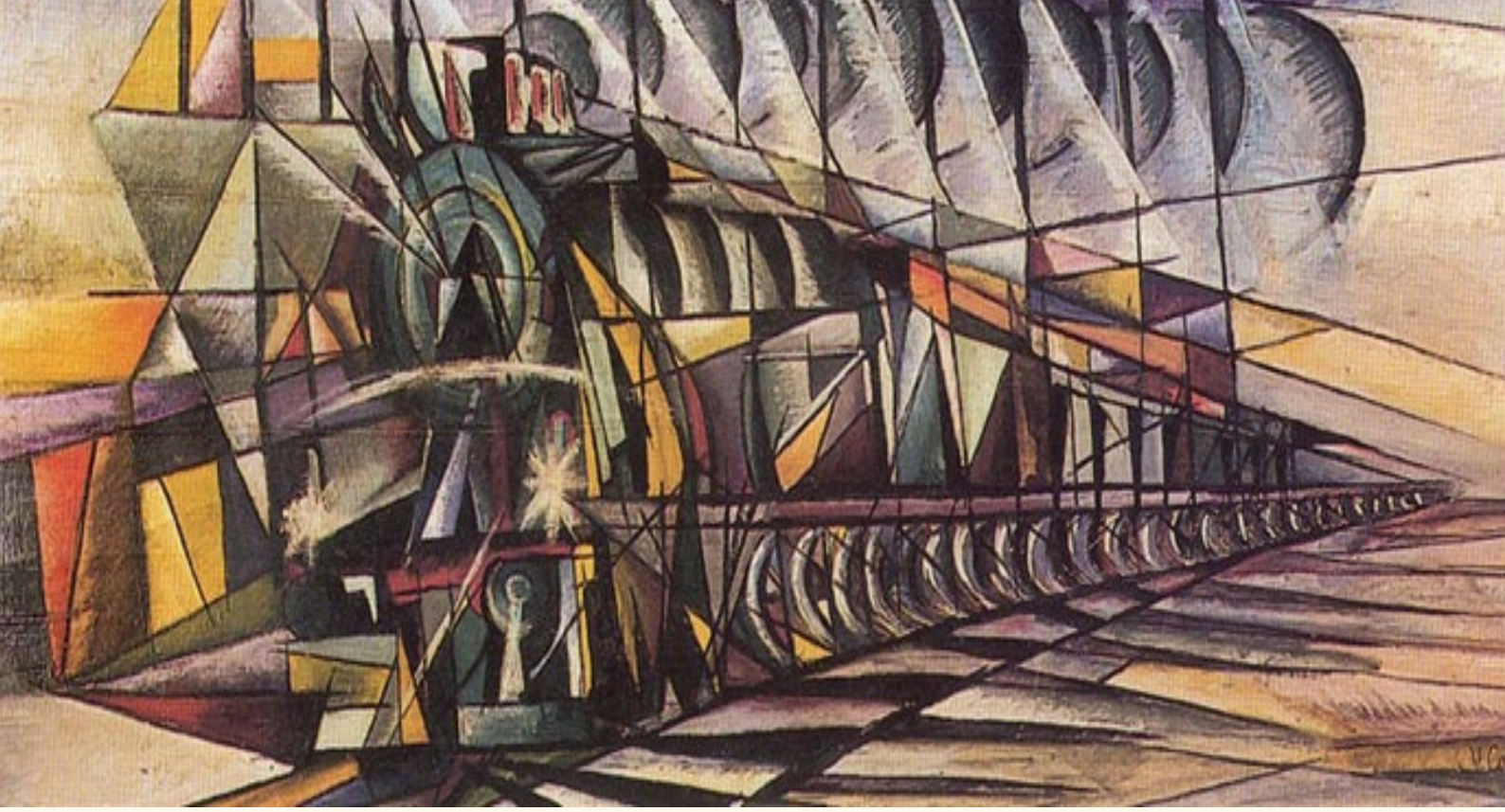

▲ Vittorio corona (إيطاليا)

الحركة كالتي تمضي إلى الأضرحة في أعياد القديسين. وكلّما تقدَّم القطار شمالاً، ازدادت الحشود وتضخمت، وتوجه الجميع وجهة واحدة هاربين من خطر مضينا نحن نندفع إليه بسرعة: خطر الحرب، أو الثورة، أو الطاعون، أو المجهول. وما كان لنا أن نعرف السبب قبل خمس ساعات أخرى، حينما نبلغ وجهتنا، وربَّما في ذلك الوقت يكون الأوان قد فات.

لم يتكلَّم أحد، لم يشأ أحد أن يكون أوّل من يستسلم، بدا الآخرون، مثلي، غير متأكّدين أهو إنذار حقيقي أم مجرَّد فكرة مجنونة، وهلوسة، وواحدة من الخواطر العبثية التي تفرض نفسها على المسافر المنهك. تنهدت المرأة المواجهة لي، متظاهرة أنّها تستيقظ، وألقت بصرها على الفور كما يفعل كلّ من يستيقظ، مثبتة نظرتها بادية العفوية على سلسلة مكابح الطوارئ اليدوية. ثم نظرنا جميعنا إلى حيث نظرت، وليس في رؤوسنا غير فكرة واحدة، لكنّ أحداً لم يتكلَّم، أو يجد في نفسه من الشجاعة ما يكسر به الصمت، أو يجرؤ على سؤال الآخرين إن كانوا لاحظوا أي شيء مزعج يجري بالخارج.

في ذلك الوقت كانت الطرق تغص بحشود من المركبات والناس المتجهين إلى الجنوب. القطارات القادمة من الناحية المعاكسة كانت مكدّسة. والمشاهدون يروننا ونحن نطير إلى الشمال بسرعة بالغة فيحملقون فينا في دهشة. كانت المحطات مزدحمة، وبين الحين والآخر يحاول شخص أن يشير أو يصيح بعبارات لا تبلغ آذاننا إلّا حروفاً ممدودة شأن الأصداء الجبلية.

بدأت المرأة المواجهة لي تحملق فيّ، وهي تعتصر منديلاً بيديها المثقلتين بالحلي وتنظر إليّ في تضرّع: لو أنّي أتكلَّم، وأخرجهم من ذلك الصمت، وأجهر بالسؤال الذي ينتظرونه جميعاً انتظار حكم الإعدام دون أن يجرؤ أحد أن يكون أوّل من يطرحه.

بلدة أخرى، وفيما أبطأ القطار لدخول المحطة، وقف اثنان أو ثلاثة عاجزين عن مقاومة الأمل في أن يتوقَّف السائق. لكنّ القطار زمجر عابراً الأرصفة كالريح، وسط حشود متوترة تتكدّس وتلهث حول القطار المغادر بأكوام فوضوية من الأمتعة. حاول صبي صغير يحمل كومة صحف أن يلحق بنا، ملوحاً بعناوين سوداء هائلة الحجم على الصفحة الأولى. بحركة مفاجئة مالت المرأة المواجهة لي، وتمكنت من إمساك صحيفة، لكنّ الريح عصفت بها بعيداً. فلم يبقَ في يدها إلّا مزقة منها. لاحظتُ أن يديها ترتعشان وهي تفض الورقة. لم يبقَ غير مثلث مطبوع عليه اسم الجريدة وحرفان فقط من العنوان: ...ية. لا أكثر. وفي الخلف مواد خبرية عديدة لا قيمة لها.

دون أن تنطق رفعت المرأة قصاصة الورقة لكي يراها الجميع، لكنّهم جميعاً كانوا قد رأوا بالفعل، فتظاهروا أنّهم لم ينتبهوا لشيء. وكلّما استبدّ بهم الفزع، ازدادوا كبتاً له. كنّا نسارع باتجاه شيء ينتهي به، شيء لا بدّ أنّه رهيب بالفعل، إذ كان أهل بلدات بأكملها قد هربوا فور سماعهم به. عامل جديد وقوي كسر حياة بلد، فلم يفكِّر الرجال والنساء في شيء عدا أمنهم، وهجروا بيوتهم وأعمالهم وكلّ شيء، بينما قطارنا، قطارنا الوضيع، يتقدّم بانتظام الساعة، كأنّه جندي مخلص يشق طريقه عبر صفوف جيشه المهزوم ليبلغ خندقه الذي أقام الأعداء معسكراتهم فيه بالفعل. وإحساسنا باللياقة، واحترامنا الوضيع لأنفسنا، منعا عنّا الشجاعة لنتخذ ردة فعل. والقطارات، بلا أدنى شك، ما أشبهها بالحياة.

تبقى ساعتان، في خلال ساعتين سنعرف مصيرنا المشترك. ساعتان، ساعة ونصف الساعة، ساعة واحدة، بدأت العتمة تحلّ. بوسعنا أن نرى عن بعد أضواء المدينة التي طال شوقنا إليها، بسطوعها الثابت، وهي تبعث وهجاً أصفر في السماء، تبثّ فينا قبساً من الشجاعة. علا صفير المحرك، وتقافزت العجلات على متاهة من النقاط. ها هي المحطة، وها هو المنحنى الأسود في السقف الزجاجي، والمصابيح والإعلانات كلّها كدأبها.

لكنّ خوفاً يجلل كلّ شيء، بينما يواصل القطار التقدّم، رأيت المحطة مهجورة، والأرصفة خالية وجرداء، وما من إنسان على مرمى البصر. وأخيراً توقَّف القطار، جرينا على الأرصفة باتجاه المخرج، باحثين عن علامة للحياة. وفي أقصى الزاوية اليمنى، في شبه العتمة، تراءت لي موظفة في السكة الحديدية ذات قبعة مدببة تختفي عبر باب، كأنّها مفزوعة. ما الذي جرى؟ ألم يكن في المدينة كلّها أحد؟ وفجأة علا صوت امرأة، زاعقاً عنيفاً كأنّه رصاصة، فارتعشنا جميعاً. كانت صيحة طلباً للنجدة، ترددت أصداؤها أسفل تلك الأقواس الزجاجية، أصداء لها وقع أماكن هُجرت إلى الأبد. □ **ترجمة: أحمد شافعي**

Mouad Mabrouk (Maroc) shutterstock

خلف النوافذ

(شهاداتٌ من الحَجْر المنزليّ)

«في هذا الزمن المُخيف، الذي يضاعفُ الإحساس بالغُربة. غدا كلّ شيء مغترباً عن نفسه، ومنكمشًا على ذاته. حالة تدعو المرء إلى أن يُنصت لدواخله؟ موجة تدعوه إلى أن يقوم بكلّ شيء في باطنه، أن يسافر في نفسه بدون طائرات، ويلتقي بأصدقائه في دواخله، ويتمتَّع بالحياة في الخيال..».

كان هذا جزءاً من بريد إلكتروني أرسله كاتب من حجره المنزلي لأحد أصدقائه. شيءٌ ما حدث في دواخل النفس، كلّ المعاني وكأنها فاضتْ وانجرفتْ نحو السديم. بالنسبة للكُتَّاب والمُبدعين فإنّ تجربة الحَجْر المنزليّ في زمن الجَائِحة ليست مجرَّد إجراء احترازي بقدر ما هي وقفة تأمُّل واندهاش كبرى ستدفع لزوماً إلى إعادة تعريف الكثير من المفاهيم والمعايير، هذا إذا لم تكنْ فعلاً قد شرعت في تغييرها حتى قبل زوال الجَائِحة

الهلع وتوقُّع الكارثة

لا ينتمي الهلع الذي أثاره «كورونا» إلى ألوان الرعب السابقة. فقد اتخذ لنفسه من البشريّة كلّها مسرحاً، ولم يشر إلى موعد الوصول أو تاريخ المغادرة، وواجهها ساخراً سافر الغطرسة، مبرهناً أن البشريّة كلّها بأسلحتها وأساطيلها ومخابراتها وجلّاديها ووعّاظها أعجز من أن تنتصر على «فيروس» لا يُرى بالعين المجرَّدة وتُرى آثاره القاتلة في كلّ مكان.

وصل وباء كورونا، الذي يضرب البشريّة الآن، حاملاً إشارات ثلاث: المرض الغامض الذي يسقط على غير توقُّع، منتقلاً من آسيا إلى أوروبا إلى الأميركيتين، كما لو كان جيشاً عجيب الانتصار، تساقطت أمامه جدران العواصم كلّها. يتلو الوباء بداهة الموت المُتغطرس الذي لم يلتقِ بعد بعلاجٍ يصده، ما يجعله موتاً موسَّعاً يجتاح الأرواح البشريّة بدأبٍ واجتهاد. وإذا كانت كلمتا: الوباء والموت ترميان على الإنسان بالخوف والقلق والحزن، فإن الإشارة الثالثة المرعبة ماثلة في «انتظار الوباء» القاتل، الذي يتسلَّل على غير انتظار، لا يُحاصر ولا يُقاتل، بل ينقله البشر لبعضهم بعضاً، دون أن يقصدوا ذلك، أو يعلموا به، ما يسخر من قاعدة «الإنسان أخ الإنسان» سخريةً فظّة، ذلك أن «ابتعاد الإنسان عن الإنسان» قاعدةٌ ذهبيّةٌ في الوقاية والحماية.

الكورونا وباءٌ قاتل ماكر ساخر، يأتي مُستسراً تاركاً أعراضه تتلوه، يصيب جميع الأعمار، ينتقل بالملامسة، ويعلق بالتراب، ولا دواء له إلّا «البقاء في البيت»، كما لو كان من أنصار العُزلة والاعتكاف، لا يفصل بين الأجناس والأعراق والطوائف، يصيب الجميع،... ومع أنه في مساواته بين الأعمار والأديان والأعراق يبدو «ديموقراطيّاً»، فإنه كاره للأطفال والعُمَّال والتلاميذ وللبشريّة كلّها، ذلك أنه أجبر «نصف البشريّة» حتى الآن على ملازمة البيوت.

لا شيء منذ الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945) بدَّل حياة البشر مثل الكورونا، ساوى بين القوي والضعيف، والأسود والأبيض، وعبث بالأقوياء كما يريد، فَهُم الآن «الأشُّد سقوطاً». ذلك أن المرض الماكر ضرب الصين أولاً، وانتقل لاحقاً إلى أوروبا- إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا- وألحق بهذه البلدان «القويّة» إصاباتٍ كثيرة، ثم حطّ رحاله في البلد الأوّل في العالم: الولايات المتحدة، وأنزل بها الحدَّ الأعلى من الوفيات.

في رؤية مرض عاتٍ لا يفصل بين الأقوياء والضعفاء، وتأمُّل مرض علاجه الوحيد «البقاء في البيت» ما يثير الهلع، وفي وباء يفرض إفراغ الشوارع وإغلاق المدارس والحدائق العامّة ويعبر القارات ما يوسّع الخوف، وفي شرٍّ مسلَّح يمنع المُزارِع من بيع محصوله، والشاب عن زيارة أمّه، والعاشق عن محبوبته ما يوقظ العجز إلى حدود البكاء، وفي دموع شاب لا يستطيع ملامسة رأس أمّه الراحلة بالوباء ما يشلّ اللسان ويخنق الروح ويسقط صامتاً في أرجاء: الهلع.

الهلع خوفٌ شديدٌ يجتاح الإنسان ويزعزع كيانه إلى تخوم العجز والشلل، إنه ما يضع الإنسان خارج كيانه وإرادته، أو يحتفظ بإنسانٍ مبتور الكيان عاطل الإرادة، وهو ما يلغي أمراً قديماً متعارفاً عليه، ويستعيض عنه ببديل مقيت لا يرحّب به. يقول علماء الاجتماع: «استبداد العادة أعلى أشكال الاستبداد استبداداً». برهنت الكورونا إلى الآن، أنها قادرة على اجتياح العادات جميعها، بما فيها فروض الصلاة في الجامع وزيارات الأهل إن افتقد الإنسان رؤيتهم.

البشريّة كلّها بأسلحتها وأساطيلها ومخابراتها وجلّاديها ووعّاظها أعجز من أن تنتصر على «فيروس» لا يُرى بالعين المُجرَّدة وتُرى آثاره القاتلة في كلّ مكان

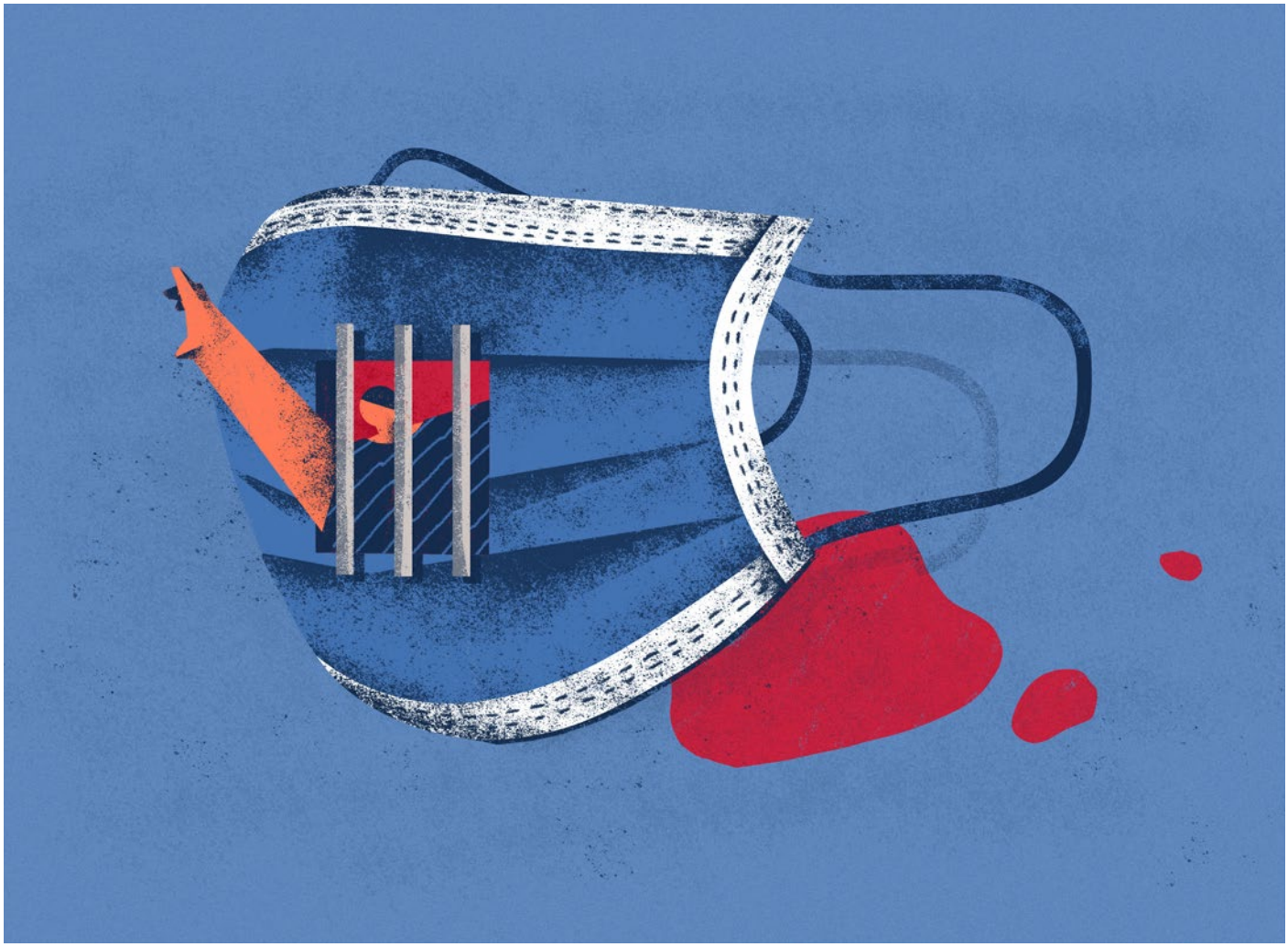

خوف أو هلع أو رهاب أو ماذا؟

ما شعور إنسان يرى شاحنات متلاحقة تكدَّست فيها الجثث، وما يدور في خاطره إنْ رأى حفرةً واسعة تتَّسع لعشرات الأرواح الراحلة، وما الذي يهجس به إذا رأى صفّاً من الجثث الملفوفة بالبياض تراصفت في نهاية شارع؟ الشعور لا يُعبَّر عنه، لأن الكلمات لا تساوي مواضيعها دائماً، إنْ لم يكن دور الكلمات حجب المعاني. ولهذا تحضرنا كلمة: الخوف، أو الخوف الشديد، والخوف أعمى على ضوء الحساب العقلاني، يترجم إحساساً قابضاً يعرف جميع البشر. وقد يتمُّ تعديل الكلمة قليلاً فيُقال: الخوف البارد، الذي يجتاحنا حين نسمع عن «البرّادات - المقابر»، أو أن نتحدَّث عن: «الخشية من العدوى». حيث يبدو الخوف مستوراً، أو أن نرى شوارع العالم فارغةً تماماً بعد السادسة مساءً، ويحتلّنا «الرعب»، أو نستمع إلى عدد الوفيات في نيويورك، ونصاب «بالذعر»، وصولاً إلى اختناق روحي يسائل معنى الحياة والموت وقدرة الإنسان وعجزه مجلاه الذي لا يعبّر عنه هو: الروع، الذي يستأصل كيان الإنسان ويلقي به في الفراغ.

جاء في رواية نجيب محفوظ «ملحمة الحرافيش»، طبعة عام 1988 ما يلي: «دبّت في ممر المقبرة حياة جديدة.... يسير فيه النعش وراء النعش. يكتظ بالمُشيعين. وأحياناً تتتابع النعوش كالطابور. في كلّ بيت نُواح. بين ساعةٍ وأخرى يُعلَن عن ميتٍ جديد. لا يفرّق هذا الموت الكاسح بين غني وفقير، قوي وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل، إنه يطارد الخلق بهراوة الفناء. ص: 55». تشبه «الشوطة» التي تحدَّث عنها محفوظ وباء الكورونا، وتختلف عنه، تشبهه ولا تشبهه في المرض الخاصّ بمصر آنذاك دون غيرها، والمجهول الهويّة، لا يعرف أحد من أين جاء ولا إلى أين يذهب، على خلاف «كورونا» وفدت من الصين وتسافر إلى حيث تشاء.

أضاف الوباء المستجد كارثةً جديدة إلى الكوارث البشريّة المألوفة، وشكلاً غير مألوف إلى أشكال الخوف المعروفة. كان الفيلسوف الإنجليزي «هوبس» في كتابه «لوفيتان» قد حذَّر الإنسان من الإنسان، وجاء الفرنسيّ «غوستاف لوبون» وحذَّر من «الجماعات» التي يطلق اجتماعها نزوعات مدمّرة، ونَدَّد «عبد الرحمن الكواكبي» في كتابه «طبائع الاستبداد» الأنظمة القمعية، حيث المواطن النموذجي لا يحسن الكلام، وتعميم الخوف المبدأ الأوّل في التربية السُّلطوية.

وإذا كان الرعب من السلطان الجائر أمراً قديماً، فإن أشكالاً أخرى من الخراب أحاقت بالإنسان وأحاطت به، مجلاها الكوارث الطبيعيّة التي تشهد عليها الزلازل والأعاصير والفيضانات، والرعب من «الجوع العاري»، الذي حدَّث عنه المُؤرِّخ المصري المقريزي، وحرائق المدن الكبيرة، أو تهجير شعب من أرضه بقوة السلاح وتكثير المجازر.

لا ينتمي الهلع الذي أثاره «كورونا» إلى ألوان الرعب السابقة. فقد اتّخذ لنفسه من البشريّة كلّها مسرحاً، ولم يشر إلى موعد الوصول أو تاريخ المُغادرة، وواجهها ساخراً سافر الغطرسة، مبرهناً أن البشريّة كلّها بأسلحتها وأساطيلها ومخابراتها وجلّاديها ووعّاظها أعجز من أن تنتصر على «فيروس» لا يُرى بالعين المُجرَّدة وتُرى آثاره القاتلة في كلِّ مكان. الهلعُ انتظارُ شرٍّ غير مألوف، إذ في الانتظار ما يهصرُ القلبَ، وفي الشرِّ ما يرهقُ الروحَ، وفي اللامألوف توقُّع الكارثة. ■ **فيصل درّاج**

في مُواجهة الأكثر فُتوّة

قال الفتى للشيخ المُتحيِّر: منذ شهر وأنت تبدو «تالفاً»، مُتحيِّراً، لا تنفكّ تكلِّم نفسك، مع أن الربيع بدأ يُرسل أماراتِ حُلوله، والشمس بدأتْ تُدمنُ إطلالاتها؟

قال الشيخ المهموم: أنت شغوف بأن تلعب ورقة اللامُبالاة، مع أن كلّ مَنْ حولك، ومَنْ هُمْ في أرجاء البسيطة يصرخون ويحاربون هذا العدوّ اللامرئي الذي ابتدع له، هذه المرّة، اسم كورونا المُحاط بتيجانٍ فتّاكة. وأنت تعلم أنها معركة محفوفة بأقسى المخاطر، لأن هذه الجائحة تشغل جميع الفضاءات، وتتسلل إلى ضحاياها في الليل والنهار، ناشرةً الرعب والخوف والترقُّب...

قال الفتى: بلى، أنا أيضاً خائف مُترقِّب. لكنني منشغل أكثر بما سنعيشه بعد انحسار الفيروس أوْ بعد التغلُّب عليه .

قال الشيخ: طبيعي وأنت في ميْعةِ الصبا والفُتوّة أن تشرئبّ نحو المستقبل، على الرغم من الضباب والهلع وتقلص الرؤية. أمّا أنا، وقد بلغتُ من السنّ عِتِيّاً، فأتشبث بالحياة مُتطلعاً إلى ما ستؤول إليه أوضاعُ الدنيا، وأوضاعُ هذا الفضاء الذي أنتمي إليه. وكما تعلم، فأنا عاصرتُ اهتزازاتٍ وانقلاباتٍ وأعاصير وحروباً وهجماتٍ إرهابيّة وأزماتٍ اقتصاديّة كاسحة، وعايشتُ تحوُّلاتٍ حملتْها العولمة المُتدثرة في طيْلسان العلماء والخبراء، من أجل تأمين الربح لذوي المال... كذلك، تابعتُ الكشوفات العلميّة والتقنيّة التي أغدقتْ على البشريّة وسائل الرفاهية، وأمدّتها بالأمصال والأدوية لمقاومة الأمراض، وبالمختبرات والمناهج الدقيقة لفكّ ألغاز الكوْن المجهولة منذ بدء الخليقة... وأنا أيضاً عشتُ في رحاب المعركة المُستمرة بين العلم والعقل، وبين الجهل والتعصُّب وقوانين الغاب. كلّ ذلك أعطى لرحلتي الحياتيّة معنىً أستعينُ به على مواجهة قلق الوجود في عالم تتكشَّفُ هشاشته كلّما تحوَّلت الأوضاع من وضعٍ إلى آخَر، غالباً حسبَ ما يُمليه الأقوياء المُتحكِّمون في مصير الدنيا.

قال الفتى: أيْ أنك كنتَ تُداري قلقك وخوفك من هشاشة الوجود المحدود في العالم، بِمُراهَنَتك على تحقّق أوضاعٍ مُكتملة تتسمُ بالعدالة والمساواة وحرّيّة الأفراد والأوطان، في عالم تحلم بأن يصبح ملموساً عبْر القرون؟

قال الشيخ: أعرف أنه رهانٌ لا يخلو من هشاشة، لأنه لا يحلّ مشكلة علاقتنا بالموت الذي هو «ضرْبٌ من القتْل» كما قال الشاعر؛ إلّا أن هذا الجانب المأسوي من وجودنا حاولتُ أن أواجهه بالمُراهنة على ما أسميْتُه، مع آخرين، بـ«اللحظات المُميّزة» في الحياة؛ أي تلك التجارب التي نحسّ من خلالها أننا نعيش بأقصى ما يمكن من الكثافة والتلذذ والأخذ والعطاء... وهذه الكثافة في العيش هي التي تُسوِّغُ قبولَ الحياة مُقترنةً بمحدودية العمر، وبلاء الفُقدان ووحشة القبر. ونفس تلك اللحظات المُميّزة تكون ممتلئة بالتحدّي لكلّ ما يحبس حرّيّتنا في قُمقم الماضي ودهاليز الوصايا التي يَعلُوها الغَمَلْ. تلك اللحظات، تجعل الحياة تعلو على كلّ ما يُرافقها من ملل وعنف وتزييف للمشاعر، وتوقظ الروح المُتمرِّدة لمقاومة الخيبة في العلاقات الاجتماعيّة وفي السياسة، وتدفعها إلى المُراهنة على تغيير المجتمعات المُتكلّسة...

قال الفتى: كأنك تُعوّض الأبديّ الموعودين به في جنّات الخُلد، بما هو وقتيّ محدود في تجربته ومفعوله؛ أي أنك تُضفي على الدنيويّ العابر، صفة المُتعالي الذي يستمرّ عبْر الأجيال والحضارات طوالَ استمرار الحياة؟

قال الشيخ: لك أن تقول هذا، إذْ ما مِنْ أحدٍ يستطيع أن يتابع العيش من غير تعلّاتٍ ورهانات يتكئ عليها في رحلته نحو مصيره المُبهَم. أنا لا تُقلقني مسألة الموت وحدها، بل يشغلُ بالي أيضاً هذا الكونُ الذي نرتاده من دون اختيار، ومن دون تفسيراتٍ علميّة تُسعفنا على فهم لُغزيّة الفضاء الذي نُمضي داخله رحلتنا. ذلك هو عمق المأساة المُزدوجة التي تُشقينا، والتي نجهدُ في مواجهتها بابتكار البدائل والاحتماء بالتفلسف...

قال الفتى: لكنك ابتعدتَ بنا عن فيروس كورونا، وعن تساؤلات الناس عن الحَجْر والمآل في ظلِّ هذا الغول الفتّاك، الناشر للرعب والخوف وأحزان الفُقدان؟

قال الشيخ: هذه الجائحة، على خطورتها، هي جزءٌ بسيط

طبيعي وأنت في ميْعةِ الصبا والفُتوّة أن تشرئبّ نحو المستقبل، على الرغم من الضباب والهلع وتقلص الرؤية. أمّا أنا، وقد بلغتُ من السنّ عَتِيّاً، فأتشبث بالحياة مُتطلعاً إلى ما ستؤول إليه أوضاعُ الدنيا

من مأساة الوجود في هذه الدنيا. هي من سلالة المجاهيل التي تشلّ ذكاءنا وتُطوّحُ بنا إلى أصقاع الحيْرة والشكّ والألم الصامت. لذلك تستيقظ لدينا غريزة إطالة البقاء في عالم ينطوي على اللحظات المُميّزة التي نسكرُ بسحرها ونسعى إلى إدمانها. وهي لحظات تتحقَّق على الأرض إذا عرفنا كيف نبتدع الطريق لمُعانقتها. بعبارةٍ ثانية، هي أضمنُ من جَنّاتٍ تُغدق الوعدَ بها فلسفاتٌ وديانـاتٌ أخرويـة ما مِنْ أحدٍ تحقَّق من صدقها.

قالَ الفتى: لكن هذا الحاضر المُعتم سيضعنا، بعد فترةٍ، أمام مشكلات مادية صعبة، تخصّ الاقتصاد والتدبير والفوارق الاجتماعيّة التي تميّز فئاتٍ عن فئات... وهذا هو الوجه الأصعب، لأنه يقتضي تغييراتٍ في طرائق العيش وتوزيع الثروات، وتنظيم أشكال العمل والإنتاج، وتأمين صحة العباد؛ أقصد تلك الآراء التي تتوالى مؤكِّدة أن العيش بعد (كوفيد - 19) لن يُشبه ما قبله.

قال الشيخ: تقصد مسألة إعادة النظر في التعاقد الاجتماعيّ بين الفرد والدولة، وتغيير طبيعة المؤسَّسات ونوعية السياسة الجاري بها العمل؟ هذه مسألة حيويّة لها الآن الأسبقية، لأنها هي التي تتيح للمواطن أن يحقِّق الشروط التي تجعل رحلته على الأرض مقبولةً ومُحصَّنةً ضد العنف والاستغلال والسّخرة. هي مسألة تهمّ كلّ مجتمعات العالم، لكنها تكتسي أهمّية أكبر عندنا في الفضاء العربيّ. ذلك أننا ضيّعنا فرصاً كثيرة تتعلَّق بجعل الديموقراطية التشاركيّة وسيلةً لتجسيد المواطنة المسؤولة، وتقليص الفوارق، وبناء مجتمع العلم والمعرفة. ما أكثر المعارك والضحايا التي قُدِّمتْ قرباناً في معبد الديموقراطية منذ الاستقلال عن الإدارات الاستعماريّة. لكنها لم تُؤتِ أكلها، لأن مَنْ آلتْ إليهم مهمَّة تشييد الدولة الوطنيّة آثروا انتهاجَ الحكم الفرديّ وحرمان شعوبهم من توفير ركائز المستقبل في عالم يجري بسرعة الصاروخ نحو حياةٍ أخرى، أساسُها حقوق المواطن والتضافر بين المجتمع المدنيّ والمجتمع السياسيّ... الآن الجميع مدفوع إلى إعادة النظر في حضارة المستقبل. لا مناص من أن يُعاد الاعتبار للإنسان وحقوقه التي تحرِّره من قيود الماضي ووصاية الشركات الربحيّة الرأسماليّة. لم يعد ممكناً الاستمرار في هذا العالم بأناسٍ معصوبي العيون مُسَرْنَمين، لأن كورونا فتحتْ العيون والأفئدة والعقول على ضرورة احترام الإنسان وقيَمه المُشتركة التي تتيح له أن يمضي في رحلته الدنيويّة من غير عنفٍ واستغلالٍ وسُخرةٍ.

قال الفتى: كأنك تستوحي ما كتبه نيتشه في كتابه «فجر Aurore» عن تغيير الجِلد: «يَهْلِك الثعبانُ عندما لا يستطيع أن يُغيِّر جِلده؛ ونفس الشيء بالنسبة للعقول التي تُمنَعُ من تغيير آرائها، إذ تكفّ عن أن تكون عقولاً»..

قال الشيخ: أنت تريد أن تنقلنا إلى منطقة الاستعارة والتشبيهات المُستقاة من حِضن الطبيعة. أوافقك، وأقترح عليك بدوري قصيدة للشاعر الفرنسي «بولْ إيلوار» (1895 - 1952)، يُوحي فيها بأن كلّ تغيير إنما يصنعه مَنْ هُمْ أكثر فُتوّة:

الضبابُ الخفيف يلعقُ نفسه مثل قِطّة / تنزعُ عنها أحلامها. / والطفلُ يعلم أن العالم يوشكُ أنْ يبدأ:

كلّ شيء شفاف/ القمر يتوسّط الأرض، / والخُضرة تكسو السماء وفي عينيّ الطفل الدّاكنتيْن العميقتيْن / مثل الليالي البيضاء، يُولدُ الضياء. ■ **محمد برادة**

أسئلة مرعبة

هل العزلة ضرورة؟ لتوليد المعاني؟ لابتكار الكلمات؟ للوقاية من المرض؟ لاكتشاف الدواء؟ لاحتمال الفقد؟ لانتظار البهجة؟ لتوكيد الحضور؟ لتسطيح الغياب؟ لاحتواء الصديق؟ لتحييد العدو؟... لأشياء أخرى كثيرة تتولد من بعضها البعض في ردهة العزلة الأبدية؟

بعد بضعة أيام يقضيها أحدنا في عزلته، شبه الإجبارية، بعيداً عن أجوائه المعتادة خارج المنزل، تعيده إلى المعنى الحقيقي للكلمات، والأشياء، والظروف، والأزمان، والأماكن ومنها كلمة العزلة.. كمفردة وتصور وكمعنى غامض لغوياً، ووجودياً، وفلسفياً

رغم وضوحه اللّغوي ومشاعيته البائنة، إلّا أن مصطلح «الحجر المنزلي» بدا غريباً، ونحن نتداوله في ما بيننا، كمن يعيد اكتشاف اللّغة وعلاقته بها تحت ظلال الجائحة الكونية. مفردة «الجائحة»- أيضاً- بدت غريبة بدورها، لولا أنها انتصرت على غرابتها تحت وطأة الاستخدام المُلحّ لها. هكذا تتخلَّق اللّغة، وتعيد إنتاج ذاتها بذاتها، وإن بكلمات معتادة ومتوفِّرة في خزينتها الضخمة فعلاً. وهكذا تبدأ علاقتنا معها كلّما جدّ جديد، فأضاف لها مفردة أو مصطلحاً، وحتّم علينا اللجوء إليه لتوصيف ما استجد علينا من أحداث وما استجدت بنا من مشاعر أحياناً.

كنت أفكر فعلاً بالحجر المنزلي الذي وجدت نفسي أسيرة لأسواره، معنى ومبنى، لغة وواقعاً ووجوداً، لكنني لم أصل إلى شيء مهم، ذلك أن المصطلحات بطبيعتها المستجدة تبدو مراوغة عندما نستخدمها فعلاً.

أفكِّر بطبيعة هذا الحجر، وما يمكن أن يكون بالنسبة لي، ذلك أنني بحكم طبيعة عملي الصحافي لم ألتزم به حرفياً. في البداية، كان مجرَّد تغيير في المواعيد المعتادة ما بين البيت ومقرّ العمل، ثم تحول إلى إلزام حقيقي قبل أن ينتهي إلى هاجس وجودي كوني. لم تعد الحيل التي نردّدها لنختار منها ما يناسب مزاجنا المتغيّر في ظروف مختلفة عن القراءة، والكتابة، والانشغال بترتيب المنزل، وتذكر المهارات المفقودة في الرسم والخياطة، تجدي في مواجهة الغول المهيمن على الوجود كلّه بأسئلة مرعبة؛ النهايات تبدو أقرب ممّا نتخيَّل ونتوقَّع. كلّ النهايات تطل برؤوسها الغريبة لتساهم في إعادتنا إلى نقطة الصفر، ننتهي لأن نسجن أنفسنا في بيوتنا خوفاً من فايروس يتربّص بنا خارج البيت بقليل؟ لكنه مع هذا قد يراوغنا في لحظة سهو، وبطريقة ما، ليستقر بيننا في الحجر نفسه. من يدري؟ كلّ الاحتمالات مفتوحة للمجهول، فهذا الفايروس ما يزال مجهولاً في طبيعته، ومع كلّ خبر يبدو التناقض حول ما أصبحنا نعرفه عنه حقيقة.

بعد أسبوعين كاملين منذ بدء سريان القرار الرسمي في بلدي بحظر التجول والحجر المنزلي على الجميع معظم ساعات اليوم، مع استثناءات قليلة تتعلَّق بطبيعة الأعمال ومدى الحاجة إليها، اتخذت قرار الالتزام بالحجر المنزلي الكامل، بتوصية من إدارة العمل، على أن أواصل مهماتي الصحافية من البيت عبر الإنترنت. كان الخيار صعباً بالنسبة لي، لكنه كان مهماً وضرورياً بالتأكيد.

ما يسمّونه الحجر المنزلي هو حياتي المشتهاة، فهو عزلة عن الآخرين، وتواصل معهم عبر الصوت والصورة والكلمات، وهو التحام بالذات وبكلّ ما هو حميم فيها. لكن الحياة المشتهاة ينبغي أن يُتخذ قرار ممارستها بحرّيّة تامّة لا بقرار مفروض. هنا تكمن إحدى المفارقات الكبيرة بين ما نتمنى وما يتحقَّق لنا من هذه الأمنيات.

لاحظتُ أن كثيرين يتحدَّثون عن الكتب والأفلام باعتبارها الخيارات الأولى لهم في ظرف الحجر المنزلي، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لي، أعني أنها كانت جزءاً من ظروفي العادية خارج الحجر، فلم يستجد شيء لتتغير علاقتي بها.

لكن الباب انفتح على سبيل العزلة، وحدها، ليعيدني الحجر إلى أمنياتي الصغيرة ومشاغلي المتناثرة. إلى ملفات مفتوحة في حاسوبي الصغير، وأخرى مغلقة في رأسي.. كنت أريد المقارنة بالذي يمكن أن يوفّره لي الوقت الذي لفرط مجانيته بدا رخيصاً، وما يوفّره لي القلق الذي لفرط احتشاده في كلّ خلايا جسدي بدا قاتلاً.

في حجري المنزلي لم أكن أرصد في تحوّلات البشر الغريبة حولي سوى صور الطوابير، في الساعات المتاحة للخروج من البيت قبل أن يحلّ موعد حظر التجول. طوابير على الخبز، وأخرى أمام بوابات الجمعيات التعاونية، وثالثة بانتظار أن تفتح صيدلية الحي بابها المهمل ليتسابق الواقفون في الحصول على ما يكفيهم وأسرهم من المعقمات والقفازات والكمامات.. هذا كلّ شيء- حتى الآن- بمواجهة الجنرال (كوفيد) ذي الرتبة رقم (19)، فلا لقاح للوقاية، ولا عقار للعلاج. كلّ ما في الأمر تحوّط مبالغ فيه؛ كي لا تنتهي مؤونة البيت من الطعام، ومستلزمات صحية، لسنا متأكّدين من مدة وحجم فاعليتها في مقاومة الفايروس.

بدت لي المهمة سهلة، أن أضع الكمامة على وجهي، وألبس القفازين المصنوعين من البلاستيك، وتستقر قنينة المعقم الصغيرة في حقيبتي لاستخدامها عند الحاجة. قلت لنفسي وأنا أتجه إلى بوابة المخبز الآلي للحصول على حاجتي.

كان هناك طابوران طويلان جدّاً أمام بوابتي المخبز الكبير، لكن الذين يقفون فيهما لا يكادون يتجاوزون العشرين رجلاً، في كلّ طابور عشرة رجال فقط.. عندما اقتربت منهم، فهمت أنهم يبتعدون عن بعضهم البعض أثناء الوقوف مسافة لا تقل عن المترين وفقاً لتعليمات وزارة الصحة، وهذا ما جعل الطوابير تبدو وكأنها لا تنتهي لمن ينظر إليها من البعيد.

وقفت وراء آخر رجل في الطابور الأوّل؛ لكن المشرف على التنظيم أشار لي أن أتقدَّم لآخذ حاجتي قبل الجميع باعتباري امرأة وكلّهم رجال. رفضت في البداية حرصاً مني على الالتزام بأخلاقيات النظام، لولا أنه أشار إلى الطابور الثاني لأقرأ اللوحة المثبتة فوق النافذة التي تبيع الخبز والمنتجات الأخرى؛ «شباك النساء».. حسناً، أرضيت ضميري بهذه الحيلة الساذجة، لأتقدّمهم وأخذ حاجتي من بسكويت النخالة وبعض الخبز. عندما أردت إخراج محفظة النقود من الحقيبة بدا لي الأمر مرعباً، لم أستطع فتح الحقيبة، وأنا أحمل الهاتف الصغير بيد، وكيس الخبز والبسكويت باليد الأخرى.. فوضعت الكيس على الأرض لأكمل المهمة التي تضاعفت مخاطرها الآن، وأنا أستلم بقية النقود من البائع بيد، وبيدي الأخرى أحمل الكيس من على الأرض. في طريق العودة، كنت أفكر باحتمالات وجود الفايروس برفقتي الآن. كان الأمر مرعباً، حتى أنني قرّرت ألّا أبادر لأي مهمة تسوق جديدة حتى لا أرى المخاطر بعيني. بعدها بأيام صدر بيان من إدارة المخابز بإغلاق أحد الفروع لاكتشاف حالة إصابة من بين العاملين فيه، مما جعلني أعيد النظر في المهمة كلّها. إلى أين سيؤدّي بنا انتشار الفايروس أخيراً؟ الموت مرضاً؟ أم الموت جوعاً؟ كانت عزلتي تتضاعف، يوماً بعد يوم، ما بين الكتابة وتلقي الأخبار وحسب.

بعد بضعة أيام يقضيها أحدنا في عزلته، شبه الإجبارية، بعيداً عن أجوائه المعتادة خارج المنزل، تعيده إلى المعنى الحقيقي للكلمات، والأشياء، والظروف، والأزمان، والأماكن ومنها كلمة العزلة.. كمفردة وتصور وكمعنى غامض لغوياً، ووجودياً، وفلسفياً، أيضاً. ■ **سعدية مفرح**

تدريبٌ من الماضي

من هناك، من داخل مثلث العُزلة الصغير ذاك، ستنمو علاقتي ببقية الأماكن التي سأسكنها، والناس الذين سأحيا بينهم وقلما معهم، على أسس يحكمها الخيال، وإن حدث وتسرَّب إليها ما هو واقعي، سأعمل جاهدةً على تحريفه ولو قليلاً، فلا يمكّن لأحد طردك ممّا هو خيالي وليس خاضعاً لشروط الواقع.

هنالك بيتنا على أطراف البلدة، أول بيوتها، يقف وحيداً بعيداً عن بقية البيوت. وأن يكون بيتك أبعد البيوت يحكم مسبقاً بأنك ستكون أبعد ما يمكن عن قاطنيها، وأقلّ ارتباطاً ومعرفة بما يحدث داخلها، ما سيجعل إمكانية العيش في نطاق البيوت وبينها أقرب إلى الاستحالة، مقارنةً مع إمكانية العيش في البرية التي تحيط بك من كلِّ صوب، في رحاب التلال وحول الوادي الهزيل. كنت أتجه إلى البلدة فقط للذهاب إلى المدرسة، حيث أستمر في الجلوس فوق المقعد ذاته طيلة النهار، يومياً بانتظار الاستراحات بين الحصص، ثم وأخيراً نهاية اليوم الدراسي، لأتجه عائدةً فوق طريق ستتلاشى البيوت منه تدريجيّاً وحياة البلدة التي يسودها النظام والإرغام، إلى أن أصل بيتي على جهة اليسار، وعلى اليمين البرية وكلّ ما تحوي من عزلةٍ وحرّيّة. بالتحديد أسفل التلة، حيث يجري الوادي، على ضفته الأخرى، هنالك قطعة أرض صغيرة، تقع في شكل أشبه بالمثلث وتضمّ أكثر اللحظات حميمية وسعادة التي عرفتها في طفولتي، قبل أن تختفي فجأةً وبالكامل.

في ذلك المثلث الصغير، شهدت أوّل تعبير للحبّ بين والديّ. والداي يقلبان أرضه معاً، ليزرعا بعض الخضار التي سيتمكنان من ريها من مياه الوادي، وأنا قريباً منهما أقفز مع الضفادع التي انتشرت على طول ضفاف الوادي. ثم بعد فترة وجيزة سيتمُّ طرد والديّ من هذا المثلث الصغير. الطرد يبدو أقلّ وضوحاً، ولا أعرف إنْ كنت قد شهدته فعلاً، أو إنني سمعت به فحسب، أو إنني كنت قد تخيّلته ولم يحدث بالمرّة.

دوريات حماية الطبيعة ستظهر فجأة وتقلع ما زرع والداي من خضار، ثم ستدفعهما خارج المثلث بالقوة. سيقاوم والداي، وسيقولان بأن هذه أرضنا أباً عن جد، لكن أفراد الدورية سيستمرون بدفعهما، ولن يعودا إلى ذلك المثلث الصغير للعناية به، ولا سننعم بالحميمية والسكينة التي أغدقها على ثلاثتنا آنذاك، لأسبابٍ ربَّما لها كلّ العلاقة بذلك الطرد، أو ربَّما لا علاقة لها به.

أنا بدوري لن أوافق، ولن أنصاع إلى الأوامر. سأعود يوميّاً إلى ذلك المثلث الصغير، محاولةً جني ثمار خضار اقتُلِعت منذ فترةٍ طويلة، وأخرى وهميّة سأزرعها بقدرة خيالي. كما وسأخدم أعشاب برية عديدة وأتأمَّلها، ثم سأرتب حجارة كثيرة، كلّ يوم من جديد، في خطوط وأشكال هندسيّة مختلفة، تقسم أرض المثلث إلى غرف في بيتي في البرية، حيث سأجلس داخله وحيدة، وأنظر إلى بيت والديّ والبيوت الأخرى حتى المدرسة، تقف جميعها في خطٍ طويل على خاصرة الجبل المنتصب قريباً جدّاً مني، يماثل خطوط بيتي المُكوَّنة من الحجارة.

من هناك، من داخل مثلث العُزلة الصغير ذاك، ستنمو علاقتي ببقية الأماكن التي سأسكنها، والناس الذين سأحيا بينهم وقلما معهم، على أسس يحكمها الخيال، وإن حدث وتسرَّب إليها ما هو واقعي، سأعمل جاهدةً على تحريفه ولو قليلاً، فلا يمكن لأحد طردك ممّا هو خيالي وليس خاضعاً لشروط الواقع. ■ **عدنية شبلي**

رسوم الملف
Jess Rodrigues (Espagne) shutterstock

لا تحمِلْ الحياةَ على محمَلِ الجد

«لم يعد بالإمكان قلب هذا العالم ولا تغييره للأفضل، ولا إيقاف جريانه البائس. لم تعد ثمّة مقاومة ممكنة سوى ألّا نأخذه على محمل الجد». أتأمّل ما يقوله كونديرا لنا في كتابه «حفلة التفاهة». إنّه يقول شيئاً مُلهماً لهذه المرحلة التي تعصف بالعالم. إذ في اللحظة التي يعترينا فيها العجز واليأس، تجعلنا هذه الجملة على نحوٍ ما أكثر اطمئناناً وراحة، لأنّ العالم يتغيَّر بتسارع أكبر من قدرتنا على تأمُّله، وبالتالي يغدو عدم حملهِ على محمل الجد مريحاً بعض الشيء.

لم يحدث طوال العقود الأربعة التي عشتها على وجه هذه البسيطة أن شهدتُ أمراً مماثلاً. لا أتذكّر أنّ المدرسة أغلقت لأكثر من يوم أو يومين لأسبابٍ تتعلّق بالأيام الممطرة، لا أتذكّر أوقاتاً صار فيها لمس وجهي أو حكّ يديّ أمراً ينطوي على مخاطر. لم أعد قادرة على الثقة بجسدي، فقد يصبح عدواً لي خلال أسبوعين وحسب. لم يحصل أن مرّ وقت بهذا الطول دون مصافحة أو أحضان متبادلة مع أحبتنا. لم أعتقد للحظة أنه سيتعذَّر عليَّ الذهاب إلى بيت أهلي لمجرَّد أنني أعيش في مسقط الواقعة تحت الإغلاق، بينما يعيشون في محافظة الباطنة، كما لم أتوقَّع أن تغدو أكياس الطعام التي أحملها لبيتي من الدكان المجاور مفزعة كمسخ كافكا! من حُسن الحظ أنّ الكُتَّاب كائنات تحبُّ العزلة، ولذا يمكن أن يتحوَّل البقاء في البيت دون توقع زيارات طارئة نعيماً كبيراً. أتذكَّر الآن عزلة بوهوميل هرابال الصاخبة جدّاً، إذ وبرفقة الفئران التي تنهرس تحت أكداس الكتب، كانت تمضي حياة «هانتا» بطل الرواية، ذلك المضي المستمر في حقل السُّلطة المطلقة التي يتوهمها عن جنته، وأعني هنا مستودع الكتب، ذاك الذي أخذ عمره كلّه، فهانتا قضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته في سحق الكتب بآلة صغيرة، ولكنه قبل أن يفعل ذلك كان يغرق في قراءتها وتأمّلها كما يتأمَّل النجوم المُرصَّعة في السماء، بل إنّه يستدعي جُمَلاً منها ليقولها لحبيبته، أو ليضعها على قبر عمه المُتوفى. عزلة هانتا كانت كافية جدّاً بالنسبة له برفقة أرسطو وأفلاطون وسارتر وكامو وغوته، وغيرهم.

أكتشفُ أنّي وزوجي لدينا قدرة على التأقلم والبقاء برفقة الكتب ومشاهدة الأفلام، ومزاولة أعمالنا العالقة من البيت دون مشقة أو تبرم، إلّا أنّ ذلك لا يغدو سهلاً برفقة الأولاد. عندما سُئل القاص والشاعر الأميركي ريموند كارفر: «لماذا تكتب القصص ولا تكتب الروايات؟» أجاب أن بقاءه برفقة الأولاد في مكانٍ واحد يمنعه من ذلك. لقد تزوّج وهو في الثامنة عشرة من عمره وكانت زوجته حاملاً في السابعة عشرة من عمرها، ولذا لطالما كان يبحث عن عمل كتابي ينهيه في جلسة واحدة إلى المنضدة. الآن أفهمه جيّداً. إذ كنتُ على منضدة العمل أنهي الكثير من المسائل المتعلّقة بالعمل ومسائل أخرى تتعلّق بمشاريعي الشخصيّة، كالقراءة والكتابة، والآن أنا أجلس إلى منضدة البيت، ولا أنجز إلّا النزر اليسير. الأبناء يقاطعون كثيراً. الجلوس لساعة متواصلة بات أمراً شاقاً ويتطلَّب معجزة.

لا أتذكّر حرفياً ما قالته أليس مونرو، لكني لا أستطيع أن أنزع الصورة التي تركتها كلماتها في رأسي في أحد حواراتها البعيدة، وهي تقول إنها تضع يداً على رأس ابنتها المُتطلبة وأخرى على أزرار الآلة الكاتبة. إننا بطبيعة الحال نهوى العُزلة، ولكن الأبناء يقوِّضونها بطريقتهم. وبالمناسبة لم تكتب مونرو رواية أيضاً، لم تكن تستطيع الكتابة إلّا في قيلولة بناتها.

الأمر بدا سيئاً في الأيام الأولى. الأولاد يأكلون الوقت بمعنى الكلمة. الطلبات لا تهدأ. يريدون الطعام من يد الأمّ. يريدون النوم على قصص الأمّ. يريدون أن يملأوا بواسطة الأم الفراغ

الأمر بدا سيئاً في الأيام الأولى. الأولاد يأكلون الوقت بمعنى الكلمة. الطلبات لا تهدأ. يريدون الطعام من يد الأمّ. يريدون النوم على قصص الأمّ. يريدون أن يملأوا بواسطة الأم الفراغ الكبير الذي أحدثه تغيُّبهم عن المدرسة

الكبير الذي أحدثه تغيُّبهم عن المدرسة، والأمّ تحلم بأن تجلس إلى منضدة الكتابة وحسب.

تتكثف العذابات عندما يرفعُ ابني الصغير، والذي ليس بحوزته كلمات بعد، سبابته مشيراً إلى حذائه، راغباً في المشاوير المعتادة للدكان أو للحديقة المجاورة لبيتنا كما عوَّدته من قبل. يبدو إفهامه أصعب ممّا توقَّعت، لكن باحة البيت وحديقته الصغيرة، كانت تؤمِّنُ لنا مشواراً صغيراً. ما إنْ تخفت درجة الحرارة بعد الخامسة مساء، وبينما نشرب الشاي ونتناول الكعك في الباحة الصغيرة، أفكِّر بحزن بالآخرين الذين يقطنون الشقق الصغيرة وتتضاءل مساحاتهم أكثر فأكثر!

بمرور الأيام بدأت الأشياء تنتظم. أحدنا بدأ يقدِّر احتياج الآخر. قلتُ في نفسي: على الأمّ الكاتبة أيضاً أن تتحرَّر قليلاً من أنانيتها، وأن تفتح شباكاً صغيراً للعب والضحك ومشاركات المطبخ. أمضينا وقتاً مشتركاً نحضّر أطباقاً لم نكن لنظن أنّ تحضيرها بالبيت ممكن، وقد شكّل الزوج العاشق للطبخ مشاركة لا تقلّ أهمِّية. يمكن لأيدي الجميع أن تُحرك البيض الآن، وأن تعجن الطحين، أو تضع البهارات المنتقاة ليكون طعم اللحم ساحراً بعد الطهو.

كما أنّ انقسام العائلة لفريقين صغيرين، يعيدان اكتشاف لعبة قديمة لعبتها الأمّ والأب في طفولة بعيدة، لم يعد أمراً يمكن استثناؤه من المخطط اليوميّ. فما إنْ تخفت درجة حرارة الشمس حتى نستعيد حرارة لعبة «صيد الحمام»؛ فريق يتكوَّن من الحمام، وآخر يتكوَّن من الصيادين، وتتغيَّر أدوارنا بحسب الربح والخسارة. الأمّ والأب اختارا كلمة «الكتب» للتعريف بفريقهما، واختار الأبناء كلمة «الألعاب» للتعريف بفريقهم. يقول الأبناء إن الألعاب الإلكترونية هي معرفة حديثة تنتصر على الكتب، إلّا أنّ فريق «الكتب» ما يزال متقدِّماً بعِدّة انتصارات حتى لحظة الكتابة هذه.

يتأخر موعد النوم قليلاً لمشاهدة أفلام عائلية. تنشب العديد من الخلافات. إذْ ليس من السهل أن نتفق على فيلم، ثم تجري المفاوضات، ويعقبها قرارات حاسمة. ثمّ يأتي وقت النوم «وفي النوم يتساوى الجميع، تذوب خبراتهم وذواتهم وذكرياتهم وتصبح كلّها مشاعاً بينهم، حتى غيابهم غير القابل للمشاركة يصبح مشتركاً، فالنوم يقترح نوعاً آخر من الجماعية. ليس حاصل حضور أفرادها، وإنما حاصل الغياب المشترك» هذا ما يقوله هيثم الوردانى في كتابه الجميل عن «النوم».

عندما يمر شريط الأخبار بأرقام خيالية لإصابات كورونا نصاب بجرعة إحباط، ونتذكّر نفق ساباتو: «لا شيء له معنى. نولد وسط الآلام، على كوكب صغير، يسير نحو العدم منذ ملايين السنين. ونترعرع ونجاهد ونمرض ونتألم ونسبب الألم للآخرين ونصخب ونموت ويموت أناس، في حين يولد أناس آخرون، ليبدأ تكرار الملهاة من جديد».

أحاول أن أكون أقلّ سوداوية، إلّا أنني وفي هذه الظروف، أقرأ رواية للكاتب الألماني توماس مان «موت في البندقية»، أقرأ عن الموت الذي يترصَّد مدينة الجمال في رواية كتبت عام 1912، والتي حوَّلها المُخرج لوتشينو فسكونتي إلى فيلم أتوق لمشاهدته حقّاً. المدينة التي تتحوَّل في مشهدٍ عجائبي لعربات نقل موتى الطاعون، تحيلنا الرواية بشكل دراماتيكي لعربات موتى عام 2020 في الصين وإيطاليا وأميركا وإسبانيا وفرنسا. مشهد مرعب بين حدثين يفصل بينهما مئة عام من اختلاف القيم الإنسانية والطب والتقنية، إلّا أنّه لا يمكن لأحد أن يرد الموت الكثيف! أفضِّل الآن أن أصغي لنصيحة كونديرا، وألّا أحمل المسألة على محمل الجد. إذ يمكن بعد هذه التجربة الشاقة أن يستيقظ العالم من أدرانه وخيباته، وأن يستعيد بعض سحره اللافت. ■ **هدى حمد**

ما أراه من النافذة

متى ينتهي الكابوس؟ لا أحد يعلم. ليتني أنام ولا أفيق إلّا والبشر بكامل حرّيّتهم، وأنا أيضاً. أستعدُّ للخروج والسباحة في الهواء. ستنبت لي لو حدث ذلك أجنحة ستكون جاهزة للتحليق ليس في الفضاء فحسب، بل أيضاً في فضاء الكتابة

أنظر من النافذة المُطلّة على البحر والمنبسطة فوقها السماء، فلا أرى سوى العصافير والطيور المختلفة. الفضاء في زمن الحَجْر الآن ملك لها، تطير جماعات جماعات بلا حذر ولا خوف. ترفرف وتتلاعب وتغني كما يحلو لها. تقدِّم عروضاً رائعة مبتهجة بحالها.

لم يعد كلّ هذا الفضاء يتّسع لطائرةٍ واحدة. والسماء للمرّة الأولى في حياتي بلا طائرات ولا ارتجاجات عبور فوق شقتي. تفتح رئتيك لهواءٍ نقيٍّ وشفّاف، لم تتنفّسه منذ زمنٍ بعيد. فلقد انخفض التلوُّث بنسبة كبيرة في بيروت وسائر المدن المكتظة بالأنفاس ومخلَّفات المصانع ودخان البنزين وزحمة السير الخانقة.

تحاول أن تتنفّس بدون انقطاع، فأنت أنت بلا كمامة تتنشّق هذه النعمة المفقودة. فهذا الجو النقي بسمائه الربيعيّة، منذور الآن لرذاذ الكورونا المجهول الإقامة والهويّة. فلا يسعك إلّا أن تكتفي بصمت الشارع، بهذا القدر انمسح أيضاً على أزقّة مغلقة بواجهات مظلمة وبوابات حديد.

وحدي في شقتي. وصيامي عن استقبال الضيوف قديم وراسخ. إنه التباعُد الاجتماعيّ أصلاً في البيت فقط. لكن هناك في المقابل، عند السواد الأعظم، حجْر عائلي. تباعد عمومي وتقارب خصوصي. وهذه القاعدة تجدها بين الدول والشعوب. تضامن كبير لمواجهة الكورونا، ولكن في الوقت ذاته، يغلق الجميع الحدود على الجميع. إنه الحظر المليارى غير المسبوق. إنها المرّة الأولى في التاريخ التي يعيش العالم فيها عزلاً كاملاً. ومفارقة المفارقات أن هذا الفيروس لم يوفر الأغنياء ولا الفقراء، ولا بين دولة وأخرى. الكلّ في الكارثة نفسها. إنها تراجيديا بقسماتٍ عبثيّة !

العالم مصاب بحمى الفراغ والتوتُّر والخشية. هل يدفع هذا الفيروس إلى إعادة الإنسان في هذه التناقضات الكونية إلى مخزوناته الإنسانيّة أم أنها مرحلة كغيرها من المراحل التي عرف فيها البشر أوبئة قاسية وشرسة وقاتلة أيضاً؟ لا. ينتابني الإحساس بأن العالم بعد الكورونا سيكون حتماً غير ما قبله.

أتأمّل من النافذة وأفكّر. أرتعد وأصاب بالحزن. عائلات رمت كلابها وقططها بالآلاف من البيوت إلى الشوارع بعدما شاع خبر أنها تنقل الكورونا للبشر، ولا شكّ أن مصيرها الموت. وما آلمني أكثر أن مجهولين في مناطق عديدة في لبنان دسّوا السم للكلاب ليتخلّصوا منها. أيُّ إجرام أفظع من هذا؟

أفكّر أن الحَجْر الصّحيّ في المنازل يتيح فرصةً ثمينة في استرجاع العلاقة شبه المنقطعة بين الأهل والأولاد. من مثل أن يتعرَّف الواحد من الناس، وخاصّةً الآباء على ابنه وابنته اللذين لا يعرف عنهما شيئاً تقريباً. يمكن للأزواج والزوجات أن يستفيدوا من هذا الحَجْر مع بعضهم البعض لتوثيق العلاقة بينهم، وفهم بعضهم بعضاً أكثر، والمشاركة في أمورٍ كثيرة، لكن للأسف تعنيف الزوجات تكاثر إلى حدٍّ مرعبٍ، وهناك حوادث قتل حصلت. فالمرأة «مكسر عصا» أو «كبش محرقة» في الحياة العادية، فكيف في حال الأزمات؟ يا للوجع من كلّ ذلك!

أكاد لا أصدِّق أن أشياءً كثيرة في العالم باتت أشبه بديكور مسرحي خالٍ من الحياة.

الإنسان لم يعد نفسه. صار كائناً مدجَّجاً بقفّازاتٍ من النايلون، وبكمامات تخفي نصف وجهه. إنه الخوف من الآخر. أفكّر وأفكّر بأن الشارع حين يخلو من الآخر يصبح

أكثر طمأنينة. لكن هذا الخوف يتضاعف حين أتمنى أن أرى أمامي قطة أو كلباً أو أي حيوان آخر. أحتاج وجود الآخر من أي جنس كان. يعتريني حين أحدِّق في عمق الأفق ما يشبه صخب المشاعر والانفعالات المُباغتة. أروح وأمشي في البيت. ما أصعب ألّا ترى ما يجب أن يُرى، ألّا تسمع ولا ترى دعساتك وأنت قريبٌ منها. وما أجمل أن تنهض صباحاً وتتأمّل البحر لتهدهد لروحك وتمسح الغبار عن فوضى أحاسيسك من خوفك من الإصابة بالكورونا. ثمَّة فرق بين العزلة الاختياريّة وبين الحَجْر الطوعي. أفكر أن الأمر ربَّما أشبه بالعبودية الطوعية أو المفروضة. أضيع وأتيه وأنا داخل بيتي، وأشعر أنني محبوسة داخل نفسي. كأني وسط نار في محبس حولي. هذا الحَجْر الطوعي لا بد منه، لكنه الحبس الحقيقي. أستعيد جلساتي في المقهى الذي اعتدت الكتابة فيه خلف النافذة المُطلة على الشارع. أشعر أن الخروج إلى فضاء الشارع قد يشفيني من كلّ هذا الخوف والحزن على البشريّة والغضب الجاثم في صدري. أصل إلى الباب، ثم أنكفئ وأتوارى إلى الداخل، إذ يتراءى لي أن الكورونا ينتظرني ليصيبني، فأشعر بأني سأفقد وعيي.

صعب ألّا يكون لك منفذٌ إلى مكانٍ طلق لا تزنّره جدران ولا سقف. سجين في صندوق يضغط على كلّ جهاتك. أرتعد من الكورونا ومن السجن. ثم أروح أبحث عن قبس ضوء يعيد إليَّ الطمأنينة، على مزاج يعينني على ما يحدث هذه الأيام السود التي يكابدها كلّ مَنْ يعيش على هذه الأرض. زمن الكورونا. أغمض عينيّ في صندوقي الكرتوني وأروح أسير على طريق مفتوح، طريق في واقع الحال لم أعرفه سابقاً: أستعين بمخيلتي لأقاوم خوفي وسجني. فلها ألف جناحٍ وكلّ أجنحتها مرصودة لي. ربَّما كانت تكاد تكون النعمة الأكرم في حياتي. أستعين بها، فأرى خوفي ينكمش مثل فأرٍ ويتراجع. أحاول جاهدة أن أسمع صوت دعساتي في بيتي ثم يغلبنيَ الظنُّ أنها صوت دعسات آخرين فأشعر بالأسى. يُخيّل إليّ أن زمن الكورونا انتهى. أرى الناس قاطبةً على الكرة الأرضية يركضون في الشوارع ويعانقون بعضهم البعض دون خوف من الآخر وأصدِّق ذلك. ألعب بطفولتي وأتخيّل ما يحلو لي على غير ما كانت. أرسم وجهاً بشوشاً لأمي التي لم أرَ ابتسامةً كاملةً عريضة تلمع على شفتيها طوال حياتها قبل أن ترحل. أختلق طفولة سعيدة وأصدِّق أنها كانت زمن الهناء لتكون زاداً لي لأحتمل المُكابدات، رغم أن طفولتي كانت مؤلمة وحزينة. ثم ينتابني الشعور بأنني سرقت أو انتحلت طفولة إحدى شخصيّاتي في رواياتي التي كتبتها، ثم يغلبني الظنُّ أنني أتلبّس طفولة لحياة بطلة سأكتبها. ألحق بمخيّلتي وأتنفس الصعداء، فهي الوحيدة التي تفتح لي الأبواب وتتيح لي عالماً افتراضياً لبرهةٍ أحياناً، وأحياناً أخرى لوقتٍ طويل تُبعد عني الاختناق والخوف لأغطس من جديد في لهاثٍ متسارع. متى ينتهي الكابوس؟ لا أحد يعلم. ليتني أنام ولا أفيق إلّا والبشر بكامل حرّيّتهم، وأنا أيضاً. أستعدُّ للخروج والسباحة في الهواء. ستنبت لي لو حدث ذلك أجنحة ستكون جاهزة للتحليق ليس في الفضاء فحسب، بل أيضاً في فضاء الكتابة.

في غمرة هذا الأبوكاليبس، في غمرة انحلال الحياة إلى درجة الصفر، لا أعثر إلّا على هذا الصراخ: ليتوقّف الإنسان أن يكون رقماً في عداد القتلى والمصابين بالوباء في وقت تتحوَّل فيه الحياة إلى محرقة، والبشريّة إلى ما يشبه الشلو - فريسة في فمِّ العدم. وما أتمناه انتصار الإنسان على هذا العدو التاجيّ، وأن يستعيد هذا العالم وجهه الجميل، حيث يسود الخير. الحقّ. العدل. الأخوّة والمحبّة أوّلاً. وما أخشاه هو أن يعتاد الناس على هجر بعضهم بعضاً والتباعد الاجتماعيّ والخوف من الآخر. لا، سيكتشف الواحد منّا أنه لن يكون موجوداً بدون الآخر، إنْ كان في وطنه أم في العالم. وهذا ما يطمئنني. ■ **علوية صبح**

ماراثون

ذكّرتني هذه الأرقام لأعداد الموتى والمصابين التي تشرد على نحو مسطح، برواية (غرارغنتوا وبنترغويل) لرابليه. فعلى نحو اعتباطيّ ساخر تمتلئ الرواية بأرقام الموتى، وكلّ ما يتعلّق بهم هو مجرَّد رقم. لكن بدا من العجيب أنّ نكون في القرن الحادي والعشرين ومرض من فصيلة الأنفلونزا يفتك بهذا العالم من حولنا. لقد كان من السهل الخروج للحصول على ما أشاء من الكيت كات، بينما الآن ثمّة أهوال ومخاطر دون شراء الكيت كات، ومعقمات وأقنعة وقفازات، وقلق لا ينتهي، حيث لا أمان من الخوف.

بدأ الحجر المنزلي بالنسبة لي عندما أُعلن عن تعليق الدراسة، وعن تعليق الحضانات. أحضرت طفلي من الحضانة، وبعدها لم أخرج حتى لحظة كتابة هذا المقال إلّا مرّتين، مرّة إلى حديقة المتحف الإسلاميّ بعدما أغلقت مناطق لعب الأطفال وقبل أن تغلق الحدائق، ومرّة إلى الممشى القريب من بيتنا.

أظنني من أولئك الذين لم يطرأ على حياتهم تغييرٌ كثير، لأنني لست مَنْ أسيطر على حياتي حالياً، ولست مَنْ أقول تفاصيل يومي، بل طفلي الذي يبلغ من العمر سنتين إلّا قليلاً. فالوقت ينقضي في ملاحقته، ومعنى ذلك أن لا وقت لديَّ لملاحقة ما عداه.

لكن ما حدث أنّ عليَّ أنْ ألاحق مسؤوليات الجامعة، وذهني قال لي إن عليَّ انتهاز هذه الفرصة- التي ليست فرصة كبيرة في مثل وضعي- لإنجاز البحث الذي أعمل عليه .

الوقت الذي أستطيع اقتطاعه لنفسي هو ساعة إلى ساعتين قبل النوم، بعد أن ينام طفلي، فهذا الوقت عليَّ أن أختار إمّا أن يكون للجامعة، أو لإنجاز بحث أيضاً للجامعة، أو لرفاهيتي، وهذا خيار صعب حالياً، فلا أستطيع الاستمتاع وأنا أشعر بأن ثمّة كومةً على رأسي تثقل عليَّ.

كان عليَّ أولاً أن أتعلَّم كيف أعطي محاضرات (أون لاين)، ومع أنني حضرت ورشة فيها إلّا أن التطبيق أمرٌ آخر غير التعلّم على سبيل الإضافة من غير حاجة، ثم عليَّ أن أجهّز لهذه المحاضرات. ثمَّ كان عليَّ أن أتعلَّم كيفية إعداد الاختبارات الإلكترونية، وبعدها كان عليَّ أن أعدَّ واحداً على الورق، ثم أنقله إلى الشاشة، وبعدها كان عليَّ أن أعدَّ سلسلةً من الاختبارات، للدرجات الباقية، وهي أكثر من النصف، وللاختبار النهائي الذي تمَّ تقسيمه، يعني ازدادت الأعمال التي تعوِّض درجة هذا الاختبار، عدا عن التحدّي الأكبر، وهو الحرص على عدم وجود منافذ ما للغش.

وهكذا مرّت الليالي الأول، أحضّر اختبارات الساعة 12 ليلاً، بعيونٍ نصف مفتوحة.

بعدها صرتُ أعمل على بحثي، وبعد الانتهاء من الحصة اليوميّة أحاول أن أقرأ ولو صفحتين أو ثلاثاً. كنت أحاول البحث عن رواية رومانسيّة غارقة في الأحلام الوردية، لكن ما حصلت عليه أولاً، رواية عن حرب البوسنة تملأ القلب حزناً، ولم أكملها، لأن هذه الحال لا تنقصني بالتأكيد. الرواية الأخرى فرنسيّة، حسيّة باردة من زمن الحرب والتجريب، لم أجد فيها ما يشد، على الرغم من الجوائز التي حازت عليها والغموض الذي شاب اسم مؤلّفتها. الرواية الثالثة عن القراصنة، توقّعت شيئاً ما جميلاً ومثيراً مثل شخصيّة جون سيلفر، وكنت قد

شاهدت قبل سنة مسلسل (الأشرعة السوداء)، الذي تدور أحداثه قبل أحدث رواية جزيرة الكنز بعشرين سنة، وراقني المسلسل كثيراً على الرغم من العنف المفرط فيه. لكن هذه الرواية كانت قرصاناً ينط من بناءٍ إلى بناء، على نحوٍ يشبه الرجل العنكبوت أكثر من تلك الصورة المتخيَّلة لقرصان عتيد. تركت أيضاً هذه الرواية، وقرّرت الذهاب إلى خيار بدا أكثر وثوقية، إيزابيل الليندي، في رواية ما بعد الشتاء، حيث حصلت على رواية شدّتني، على الرغم من سخافة الحبكة ولا منطقيتها، لكنها غمرتني كعادة إيزابيل الليندي. بعدها بحثت عن خيار أكثر كلاسيكيّة وأكثر تهذيباً، جين أوستن، رواية كبرياء وهوى، أجد الترجمة سيئة قد نزعت ثلاثة أرباع الأحاسيس، لكنني اكتفيت بالسرد البارد، واعتمدت على مخيلتي لتكمل الباقي.

كنت أودُّ أن أكون ممنْ يغطسون في (نتفلكس)، لكنني أكره الشاشات قبل النوم، لأنها تقلق نومي القلق أصلاً، وأنا بحاجة إلى ما يريح ذهني، لا ما يحفِّزه أثناء النوم، ليستدعي الأفكار والأحلام المختلطة من كلّ حدبٍ وصوب.

من جهةٍ أخرى، امتلأ الجوال بالأشياء التي أفكّر أنني قد أشتريها حين الخروج من الحَجْر المنزلي، وحين يعود إلى الدنيا رونقها، أو رتابتها المعهودة. مواقع التسوُّق اتخذت كلّ منها خطة، بعضها أغلق محلّاته، وأغلق موقعه أيضاً حتى حين. مواقع أخرى أغلقت المحلّات، وقالت نرسل لكم ما تريدون حتى البيت. ومواقع أخرى استمرَّت، وقالت إن توصيلنا آمن. مواقع أخرى تجاهلت الموضوع تماماً، وأبقت على واجهاتها السعيدة المبتهجة، وألوانها الصيفية الرائقة، وتموضعات عارضاتها الراقصة والمتحدية.

وأنا أعيد التعرُّف على حوش منزلنا كنت أفكّر في حلول لأزمة الاحتياجات بعد أن صار الذهاب إلى كارفور رحلةً ملغّمة، بعد أن كان تمشيةً آمنة.

قرأت عبارة على تويتر، أن العمل عن بُعد يعني عند الأهل أنك في إجازة، ويعني عند الدوام أنك متاح 24 ساعة! وهذا قولٌ حق فعلاً. فالظاهر أنك في إجازة، لكن الإيميلات الطويلة ذات التوجيهات والتبليغات والأوامر والتساؤلات لا تنقطع، بينما ليس ثمّة وقتٌ لقراءتها، أو للتفكير بها، أو للتعاطي معها، فتعمل ضمن الحدود القصوى، وبالسرعة القصوى أيضاً. نفِّذ فقط، لأن لا وقت للتفكير. يقولون إما أن تقوم بالأمر بسرعة، أو أن تقوم بالأمر على نحوٍ صحيح.

لا أدري إنْ كان هذا النحو الصحيح يمكنه أن يأتي أبداً.

هذه الأرقام لأعداد الموتى والمصابين التي تشرد على نحوٍ مسطح، قد ذكّرتني برواية لرابليه، لم تتوفَّر لي، لكنني قرأت مقاطع منها، رواية غرارغنتوا وبنترغويل، إذ تمتلئ الرواية بأرقام الموتى على نحوٍ اعتباطيّ ساخر، حين يتحوَّل البشر إلى مجرَّد أرقام، وكل ما يتعلَّق بهم هو مجرَّد رقم، مثلما كان الأمر في الجائحات السابقات التي عرفها العالم، لولا أنْ اختلفت آلية العدّ. لكن بدا من العجيب أن نكون في القرن الحادي والعشرين ومرض من فصيلة الأنفلونزا يفتك بهذا العالم من حولنا.

يذكّرني في كل لحظة، كَمْ كان من السهل الذهاب للحصول على ما أشاء من الكيت كات، بينما الآن ثمّة أهوال ومخاطر دون شراء الكيت كات، ومعقمات وأقنعة وقفازات، وقلق لا ينتهي، حيث لا أمان من الخوف. ■ **نورة محمد فرج**

يقتلنا الخوف مِنَّا

أنا غريب في بلادٍ غريبة في فندق غريب، تتساوى عندي كلّ الأمكنة، وقد جئت إلى إثيوبيا من النمسا، وهي أيضاً ليست بلدي، بالتالي أن أكون محتجزاً في دبروماركوس لا فرق من أكون محتجزاً في أديس أبابا العاصمة، أو في فيينا

العُزلة لا ترعبني، أتعامل معها كرفقةٍ آمنة مشحونة بالضجيج. الموتُ لا يخيفني، كانت لنا صولات وجولات وخرجت منها منتصراً، بل أستطيع أن أقول إنني قتلتُ الموتَ في عِدّة معارك، ولم يستطع أن ينتصر عليَّ سوى مرّة أو مرّتين. ترعبني الكورونا: كلّما قرأت عنها ازددت جهلاً، وكلما ازداد جهلي، ازداد خوفي، وكلّما ازداد خوفي انفجرت عُزلتي بالضجيج الصاخب. بالتأكيد، لا يمكن أن تُفسّر عزلة الكورونا، بأي شيء آخر سوى أنها سجنٍ اختياري، سجن منزلي مفتوح على الشخص، شاسعاً ممتداً مثل أوقيانوس مسحور، لا بداية له ولا نهاية، وسجن مغلق يسع العالم كلّه ويضيق بك أنت بالذات. أنا بين السجنين، أصنع سجني الخاصّ، وهو سجن معتاد ويومي: جزء أساسي من طبيعتي هو أنني أحب العُزلة، أحب أن أكون في مكانٍ ما آمن من الآخرين، أقرأ وأكتب وأتتبع أخبار السودان، ثم أخبار العالم، أحب أن أكتب لأصدقائي وصديقاتي في كلّ أنحاء المعمورة، ولا يعني أنني أكتب إليهم مستخدماً اللّغة، قد أرسل لهم خطابات وأردّ عليها بنفسي في عملية ذهنية بحتة، فالكتابة ترميز لعمل عقليّ عاطفيّ إنسانيّ لئيم. مغلقٌ أنا في مدينة دبرماركوس الإثيوبية، مغلقٌ على نصوص مفتوحة، أكتشف لنفسي أوّلاً الأدب الإثيوبي المكتوب باللّغات المحلّية في فترةٍ تمتد لمئة عام، أدب لم يُترجم إطلاقاً لأية لغةٍ في العالم، كتبه أدباء عظماء بالأمهرا والتجرنة والأرمو، كتبوه بـ 85 لغة حيَّة في إثيوبيا، وأغلقت العُزلة عليه أبوابها: الجبال العالية، واللّغات، والتقويم الخاصّ، والخوف من الغُزاة، والحروب الداخلية.

أحاول فتح تلك الأبواب وتكسير مغلاق العُزلة، قريباً ستقرؤنه بالعربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة، ولمَنْ أراد- لعشاق الهضاب العالية- بالأمهرية أيضاً: أنطولوجيا الأدب الإثيوبي لمئة عام. وهي أوّل أنطولوجيا للأدب الإثيوبي المكتوب باللّغات المحلّية في تاريخ هذا البلد الشاسع. أليس غريباً أن أعمل على أدب في عُزلة، وأنا في عُزلةٍ واقعيّة وفعليّة، عُزلة شبح الكورونا: أقبع الآن في غُرفة في فندق عجوز، عندما حضرت إليه قبل جائحة الكورونا كان يضج بالحياة: عمّال وعاملات، مسافرون عابرون، موظفو منظّمات عالمية، موظفو وموظفات حكومة عابرو الولايات والأقاليم، تجار وسماسرة، أساتذة جامعات وما لا يعلمون. استيقظت ذات صباح على جلبة رحيل الجميع، حيث تم إعلان إغلاق حدود الولايات في إثيوبيا، بعد يومين من تأريخه. وما كان عندي خيار، أنا غريب في بلادٍ غريبة في فندق غريب، تتساوى عندي كلّ الأمكنة، وقد جئت إلى إثيوبيا من النمسا، وهي أيضاً ليست بلدي، بالتالي أن أكون محتجزاً في دبروماركوس لا فرق من أكون محتجزاً في أديس أبابا العاصمة، أو في فيينا، فالغرفة التي تحدها

أربعة جدران هي ذاتها أينما كان موقعها من العالم، والخوف من الكورونا هو خوف من فيروس مجهول لا يعرف أحدٌ عنه معلومة صحيحة، الذين يعرفون المعلومات الصّحية لا أحد يصدقهم في عاصفة الأكاذيب والشائعات التي تحمل منطقاً أقوى من منطق مَنْ يعرف الحقيقة، وهل الذين يعرفون الحقيقة راغبون في إطلاقها؟! فالشائعة أقوى وأجمل من كلّ حقائق العالم، لأنها نتيجة الظنّ العام والجهل العام، والرغبة في تصديقها رغبة عميقة في الإنسان المرعوب بما لا يعرف، لأنها نتيجة الحالة التي يعيشها: إنها رغبة جماليّة بحتة.

أقيم الآن وحدي في الفندق العجوز، ولأن تدفئة المياه تكلّف كثيراً، فأوقفت إدارة الفندق جهاز التدفئة، ولأنني لا يمكن أن آكل كلّ الأصناف التي ينتجها مطبخ الفندق العجوز، فتقلّصت القائمة إلى ثلاثة أصناف، منها صنفان لا أحب تذوقهما مطلقاً، إذن لا أطعم سوى من صنف واحد، وهو «شيروا بالانجيرا»، وإذا كنت صادقاً، فإن ذلك لا يمثّل عندي مشكلة، يمكنني أن أطعم على صنف واحد لشهور عددا، فأنا ابن العُزلة: لا أتشهى شيئاً، ولا أرغب فيما لا أملك، ولا أحزن، لأنني لم أجد ما أرغب فيه. العُزلة هي بيتي المأهول بي. ولكن عُزلة الكورونا عُزلة مأهولة بالمخاوف والرُعب: الخوف من الآخرين، خوف الآخرين منك، خوفك على الآخرين، خوف الآخرين عليك، خوفكما معاً على هذا العالم الهش من الانهيار!! وأنت في عُزلتك تحيط بك الكورونا من كلِّ صوبٍ وحدبٍ، في المذياع: تحتل أذنيك. في التليفزيون: تخاطب عينيكَ التائهتين وترعبهما. في الشبكة العنكبوتية: تخاطب كلَّ حواسك ومشاعرك ولغتك وجنونك. في الطريق الذي لا تخرج إليها إلّا مضطراً: خوف المارة، وخوفك من المارة، يحتلان وعيك الهش، وعيك المحتلّ مسبقاً بكلّ مصائب العلم، بالشهداء والثوار والقتلة، بالجنجويد والعسكر ورجال الأمن، بالمجاعات وصراخ الأطفال والضحايا، بالبرد والجليد، بالصحراء والرمال، بالطين والليمون والزنجبيل، بالسفر الشاسع المُرعب، بهدير السيارات ونُعاس الحافلات، وزئير محرّكات الطائرات الضخمة، عابرة القارات، وعيك المحتلّ بك، بالفراغ. العُزلة لا تعزلك من الكورونا:

في البيت: الكتب والنصوص التي تنتظرك، وتطلب منك غسل يديك قبل أن تلامسها.

في البيت: الفراش والمرآة وجهاز الكمبيوتر، الأكواب الفارغة، الأحذية المُرتبكة من السكون والإهمال، التي يحرقها الشوق والحنين.

في البيت: الستائر التي لا تسترك من شيء غير ضوء الشمس والهواء النقي الطازج.

عقلك: ذاك المرعوب، يحاصرك بالأسئلة، فيعقد عزلتك وتحيط بك الأشياء وأنت تحيط بالعالم يفتك بك وتفتك به،... كورونا لا تقتلنا، يقتلنا الخوف مِنَّا.

العُزلة التي تحبها التي هي بيتك المأهول بك، هي الآن عدوك اللدود الذي يتربَّص بك، يغمز لك من النافذة، ويكح كلّما عبر تحت الشرفة، يعطس وهو يدعي مغازلتك في قبلة شيطانية تتبعثر في الهواء المُكهرب بالظنون. كورونا تكسر عزلتها في جنون وتسأل جان بول سارتر: هل الآخرون هم الجحيم؟! ■ **عبد العزيز بركة ساكن**

لم أجد أفضل من القراءة

لعلّ أوّل سؤال ألحّ عليَّ وأنا أدخل «الحَجْر المنزليّ» هو: كيف لي أن أنتقل من وضع «المحجور»، مع كلّ ما تنطوي عليه هذه العبارة من معاني الحجز والمنع والحظر، إلى وضع كائن حرّ يوظّف هذه الفسحة من الزمن توظيفاً إيجابيّاً. بعبارةٍ أخرى كيف أحوِّل «هذا الحَجْر المنزلي» إلى «عُزلة» كنت أرجوها وأتوق إليها في خضمّ الحياة اليومية، لكن دون الحصول عليها أو الظفر بها..؟ ومن ثَمَّ كيف أحوِّل الخوف والتوجُّس المرافقين للحجر إلى ضربٍ من الأمن والطمأنينة المرافقين لكلّ عُزلة نختارها عن وعي عامد؟

إنّ العُزلة كما أوضح المتصوِّفة، هي الجلوس مع النفس، أي إنّها ضرب من الوحدة لكنّها الوحدة المأهولة، وهذا الجلوس مع النفس عند (نيتشه) ضرورةٌ لاتساع الذات وامتلائها، وسببٌ مباشر في إيقاظ الإحساس بالحرّيّة، «فالذي لا يبتهج في العُزلة لا يحب الحرّيّة».. يقول شوبنهاور.

والواقع أنّي لم أجد أفضل من القراءة تنقلني من حالٍ إلى حالٍ، أي من حالِ الضرورة إلى حالِ الحرّيّة. لكنّ القراءة التي اخترتها، في هذا الظرف المخصوص، هي القراءة التي تُضيء وتكشف: تُضيء اللحظة الراهنة، وتكشف لي عن أسرارها وخفاياها.. القراءة التي «تفضح» وتدين، وربَّما تحاكم الإنسان المُعاصِر الذي ما فتئ يمضي إلى حتفه مفتوح العينين..

في اللحظة التي دخلت فيها البشريّة الحَجْر المنزليّ تذكّرتُ قولة كالفينو: «أعتقد أنّ عليَّ أن أطير في فضاءٍ مختلف كلّما بدت الإنسانيّة محكوماً عليها بالثّقل، ولا أعني بهذا أنّ عليَّ أن أهربَ في الأحلام، أو فيما هو لا عقلانيّ، بل أعني أن عليَّ أنْ أغيّر مقاربتي للعالم، أن أنظر إليه من زاوية مختلفة، ومنطقٍ مختلف».

> **في هذ الحَجْر قرأت أعمالاً كثيرة وكبيرة كانت كلّها دون استثناء قد آخذت الإنسان المُعاصَر على خياراته الاقتصاديّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والأيديولوجيّة الخاطئة، وتوقعت أن يمرّ هذا الكائن الممتلئ بذاته بمنعرجات تراجيديّة خطيرة**

أن أغيّر مقاربتي للعالم، أن أنظر إليه من زاويّة مختلفة، ومنطقٍ مختلف، هذا ما كنت أرجوه بعدما باتت كلّ المُقاربات القديمة للعالم والأشياء غير واضحة، وربّما غير صائبة..

هكذا وجدتُني أعود إلى قراءة أعمال مخصوصة، خلال الحَجْر، وهي الأعمال التي أدانت الإنسان المُعاصِر، بل حذّرت من صلفه وعنجهيته وسيره الأعمى نحو المجهول: مثل أعمال كافكا / كامو/ ناتالي سروت / بيكيت / إليوت... كلّ هؤلاء رفعوا أصواتهم بالصراخ، حاولوا أن يلفتوا الانتباه، أن يعلنوا عن الكارثة قبل حلولها، لكن لا أحد أصغى إليهم، لا أحد أولى «مواقفهم» أيّة أهمّية، بل عُدَّت، هذه المواقف، لدى فريق أول، مجرَّد احتجاجات رومانسيّة لا ينهض لها سبب قويّ يسندها ويدعمها، وعُدَّت، لدى فريقٍ ثانٍ، مجرَّد مواقف أيديولوجيّة ذات طابع يساري تعادي الليبراليّة المُنتصرة..

هكذا ظلّ الإنسان متوّجاً بكلّ إنجازاته وكشوفاته يسير قدُماً.. غير عابئ بأيّ تحذير حتى كان الربيع الأسود عام 2020.

في هذ الحَجْر قرأت أعمالاً كثيرة وكبيرة كانت كلّها دون استثناء قد آخذت الإنسان المُعاصِر على خياراته الاقتصاديّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والأيديولوجيّة الخاطئة، وتوقعت أن يمرّ هذا الكائن الممتلئ بذاته بمنعرجات تراجيديّة خطيرة.. كلّ كاتب اختار لهذه «المنعرجات» معادلاً موضوعيّاً، أي صورة استعاريّة... لكنّ الكُتَّاب جميعاً اتفقوا على أنّ الإنسان يسير في الطريق الخطأ، وأنّ كل منجزاته مهدَّدة بالاندثار.. ذكرني هؤلاء الكُتَّاب بـ«العرّافات» في المسرح اليوناني، حيث كنّ «يتنبّأن» بالمأساة قبل حدوثها، لكنّ الأبطال لا يعيرون اهتماماً لنبوءاتهنّ، فيواصلون خوض الصِّراع، بكلِّ حماسة، دون أن يتوقّعوا أنّ نهايتهم وشيكة.

أدب (كافكا) كان نعياً طويلاً وحزيناً للإنسان الذي فقد «آدميّته»، وكلّ حضوره الإنساني البهيج، أدب (بيكيت) كان صيحة في وجه نظام اقتصاديّ واجتماعيّ ظالم قضى على كلّ القيم الإنسانية الكبرى.. قصائد (إليوت) كانت تصويراً للإنسان يسير بعينين مفتوحتين نحو خرابه الروحي...

في هذا السياق، أحبّ أن أتوقّف عند عمل صغير الحجم، ربَّما كتبه صاحبه لليافعين، لكنّه كان، على بساطته ووضوحه، من أعمق الأعمال التي أدانت الإنسان المُعاصِر إدانةً شديدةً،

وحذّرته من الفاجعة.. وهذا العمل هو كتاب «الأمير الصغير» للكاتب الفرنسي «سانت اكزوبري».

شخصيّتان اثنتان تتقاسمان في هذه القصّة غنائم البطولة: الشخصيّة الأولى هي شخصيّة أمير صغير لا يسكنُ الأرض، وإنما يسكنُ المدى يلفّعه الغمامُ. مملكته ليست من هذا العالم، وإنّما من عالم آخر بعيد. فقد جاء من الكوكب 612، وهو الكوكب الذي يكاد حجمه لا يتجاوز حجم بيتٍ من البيوت، لينزل ضيفاً على الأرض، أمّا الشخصيّة الثانية فهي شخصيّة طيار متمرِّس آثر السباحة بين الغيوم على البقاء بين البشر. ينطلق الحديث بين هاتين الشخصيّتين، أي بين الأمير الصغير الذي ينظر إلى العالم بعفويّة ساحرة، وبين الطيار الذي ينتسب إلى العصور الحديثة يحمل ثقافتها.. ومن خلال هذا الحوار نقف على محاكمة الأمير الصغير للإنسان المُعاصِر، فيدين جشعه وأنانيّته وفقدانه القدرة على الحلم... هذا «الإنسان الأجوف»، على حدِّ تعبير (إليوت)، فقد الإحساس بالدهشة، وبات يرى العالم بعينين باردتين فقدتا نار الفضول من زمنٍ بعيد.

لكن الأمر الذي صدم الأمير الصغير هو: خلع الإنسان المُعاصِر على المال قيمة كبرى، بحيث بات في العصور الحديثة قيمة القيم، منه تتحدَّر القيم الأخرى انحدار الوليد من الوالدة.. هكذا يلاحظ الأمير الصغير أنّ الأشياء لم تعد تكتسب قيمتها من ذاتها، وإنّما من السوق. السوق هو الذي يقيِّم البشر، والأشياء، والبضائع، والآداب، والفنون، والعلوم.

يقول الأمير:

وإذا قلت للكبار: «رأيت بيتاً جميلاً مبنياً بالقرميد الأحمر، وعلى نوافذه الرياحين، وعلى سطحه الحمائم...» عجزوا عن تمثّل ذلك البيت، فإذا أردت الإيضاح وجب عليك أن تقول «رأيت بيتاً قيمته ألف دينار» فيصيحون قائلين: «ما أجمل هذا البيت!».

فالبيت، ليس «جميلاً»، لأنّ على نوافذه الرياحين، وفوق سطحه الحمائم.. وإنما هو جميل، لأنّ قيمته ألف دينار. الأمير الصغير، هذا الكائن السماوي لم يفهم هذا المنطق الأرضي الغريب.. لم يستوعب قوانينه وآلياته. لهذا ما فتئ الأمير يردِّد «هؤلاء غريبو الأطوار حقّاً»..

لكنّ أهمّ إدانة وجّهها الأمير الصغير إلى الإنسان المُعاصِر تعويله على «العقل» وتهوينه من شأن القلب... فالعصور الحديثة قامت على الإشادة بسلطان العقل، وتحقير بقيّة الملكات الأخرى التي يتميَّز بها الإنسان عن بقيّة الكائنات الأخرى: مثل الوجدان والحدس والرؤيا مع أنّ هذه الملكات مثَّلت قوى هائلة توسَّل بها الإنسان لحلّ ألغاز الوجود... لهذا ما فتئ الأمير الصغير ينقد ثقافة العين ويدعو إلى إحياء ثقافة القلب / أي ما فتئ ينقد ثقافة الرؤية ويدعو إلى ثقافة الرؤيا.. ومن أقواله التي تكرّرت داخل القصّة:

«-- لا نبصر جيّداً إلّا بالقلب.. والشيء المُهمّ لا تراه الأعين.

---- ينبغي البحث بالقلب».

ومن أهمّ الدروس التي يقدّمها هذ الأمير الصغير هو الدعوة إلى التسامح وتجنُّب التعصُّب:... فالحقيقة حقائق، والواقع ليس واحداً، وإنما هو كثير. «للناس نجوم يختلف بعضها عن البعض الآخر، فمن الناس مَنْ يسافر فتكون النجوم مرشداتٍ له، ومن الناس مَنْ لا يرى في النجوم إلّا أضواء ضئيلة... ومنهم مَنْ يكون عالماً فتكون النجوم قضايا رياضيّة يحاول حلّها، ومنهم مَنْ يحسب النجوم ذهباً، وهذه النجوم على اختلافها تبقى صامتة، أمّا أنت فيكون لك نجوم لم تكن لأحد من الناس».

هكذا تكلَّم الأمير. فكلٌّ له نجمه: نجم الملّاح يختلف عن نجم العالم، ونجم العالم يختلف عن نجم الرياضيّ، ونجم الرياضيّ يختلف عن نجم التاجر... فالنجم واحد في الأصل لكنّه يتعدَّد بتعدُّد الناظرين إليه..

تلك هي بعض مآخذ الأمير على الإنسان المُعاصِر... لكن هل هناك مَنْ سمعها؟ هل هناك مَنْ سيسمعها؟! ■ **محمد الغزي**

الحَجْر، والعُزلة، والأمَل

الحَجْرِ أن تجلس بمفردك، وكأنما أصبح للكون قلبٌ واحدٌ، وتنهيدةٌ أقرب إلى التضرُّع، وأنت تنصتُ شارداً إلى خفوتها. تتراءى لك نفسك كأنها طيفٌ في حلم. تلمح خوفك طافياً سابِحاً في خوف الملايين. خوف من عدو صغير جدّاً، غير مرئي، يحوم طول الوقت ليغرز أسنانه في صَدر الحياة. تجلس وتأكل لقمة. تدخن سيجارة. ترقد على السرير ويطاردك السؤال ذاته: هل تنتهي حياتي الشخصيّة؟ حياة الأحباء؟ حياة الإنسانيّة؟.

أحاول النومَ بجرعةِ دواءٍ منوِّم. أصحو ورأسي ثقيل لأجدني عند نفس النقطة: أهي مجرَّد عطسة فيروس عابرة نمسحها عن وجوهنا ونستأنف الحياة؟ أم أن علينا أن نتأهب لرحيلٍ جماعي؟ وأن نلملم أوراق الإنسان، وتاريخه، وملاحمه، وكلمات الحب التي اخترعها؟. أجلس إلى المكتب لأنهي مقالاً عن ضرورة التفاؤل، عن أهمِّية الأمل، عن الإنسانيّة التي لم تُهزَم قط. أكتب سطرين وينحدر بصري بدون وعي ناحية الموت الرابض في ركن الحجرة. كتلة سوداء تفح في الهواء. وأنا مقيَّد، عاجز، لا أدري متى يختطف الفيروس حياتي. أنهض لأعدَّ فنجان قهوة. أرجع. أجري اتصالاً هاتفياً لأطمئن على صديق. يدور الحديث بيننا عن أي شيء، لكن في طيّات الكلام سؤالاً غير منطوق: هل أنت بخير؟. أقرأ قليلاً. يخطر لي أنني فوَّت فرصة الاستمتاع بالكثير من الكُتب الجميلة، ولم أعد أعلم هل ألحق قراءتها أم أن الوقت قد نفد. أسجل فكرة قصّة عن فتاة عصبيّة، سيئة الحظ، لكن الكلمات تظهر لي شاحبة لا تتوهج من حرارة. ما الذي يحدث؟ هل هذا هو الحَجْر؟ أن تقع في قبضة المخاوف والهواجس؟ أن يهزمك فيروس حقير حتى أنه غير مرئي...

أهذا هو الحَجْر؟ الخوف؟ حتى الجيران في الشقة المقابلة صاروا يتجنَّبون الحديث. يحنون رأسهم كأنما لم نرَ بعضنا البعض، ويغلقون بابهم بسرعة.

آكل لقمة. يتأرجح عقلي مثل بندول بين نقطتين. نقطة تكوَّمت فيها كلّ الأفكار والذكريات والانفعالات، ونقطة في الناحية الأخرى، حيث يطل الخوف من الموت. ثمَّة قاسم مشترك بيننا جميعاً في تجربة الحَجْر. ثمَّة علامات عامّة. لكن التجربة تتخذ كلّ مرّة وجودها الخاصّ بحكم اختلاف تفاصيل حياة كلّ شخص. لم أفزع من الحَجْر بمعناه العام، أي بصفته قيداً على الحركة والتواصل مع الآخرين، فقد قضيت نحو نصف عام معتقلاً في حبسٍ انفراديّ، من دون كِتاب، من دون رسالة، من دون صوتٍ بشريّ، وكانت الحركة الوحيدة المتاحة أن أقطع إسفلت الزنزانة الصغيرة ذهاباً وإياباً. أروح وأجيء في الصمت ويداي معقودتان خلف ظهري ما بين الباب المُصفَّح والجدار الأصم، أدوس بقدمي أيامي. أمرغ ساعات العمر، مجبراً على سحق حياتي بنفسي، مرغماً أن أكون القاتل والقتيل. لكنك في السجن لا تهلك حياة أحد ما عدا حياتك، أما في حَجْر الوباء فإنك بغير إرادتك تمسي أداة إبادة الآخرين، إذا صافحتهم، إذا عانقتهم، إذا تنفَّست بالقرب منهم، واليدان اللتان كانتا تقدِّمان الزهور للأحباء تصبحان مثوى للموت.

أهرب إلى الأغاني والموسيقى. أقول لنفسي لا ينبغي للإنسان أن ينشر الخوف. لابد للإنسان أن يذيع الأمل والنور في عزِّ الظلمة. أتذكَّر «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»، لكن ما الذي بيدي الآن؟ الكتابة؟ أهذا

في حَجْر الوباء فإنك بغير إرادتك تمسي أداة إبادة الآخرين، إذا صافحتهم، إذا عانقتهم، إذا تنفَّست بالقرب منهم، واليدان اللتان كانتا تقدِّمان الزهور للأحباء تصبحان مثوى للموت

كلّ جهدي؟ وما جدواها؟ أكان لها أو أن لها الآن نفعاً؟ أم أنني احترفتها من دون تخطيط، كما تحترف الزهور إطلاق العطر، ليس عن وعي، لكن بحكم التكوين والفطرة. أتساءل: ألم يكنْ من الأفضل لو أنني قضيت سنواتي مستمتعاً بالحياة دقيقة؟ بالبحر، بالشمس؟ بخفق الهواء؟ بالقبض على الكفوف الناعمة، بالضحك من أعماق القلب؟ ما جدوى الأدب؟ أن نعيش قصائد لا نكتبها أفضل من كتابة قصائد لم نعشها. تظل الحياة القضيّة الأولى والأخيرة.

أتساءل: إذا نجونا من الجائحة، ما الذي ينبغي أن نستخلصه منها؟ على الأقلّ أن نعي أن الإنسان لن ينجو بمفرده، وعليه لكي ينجو بنفسه أن ينقذ عدوه معه! ينتشر الوباء ولا يُميِّز بين الناس، فأصبح علينا أن ننقذ أعداءنا وإلّا هلكنا من عدواهم، وأمسى على أعدائنا أن ينقذونا لكي لا يهلكوا بسببنا.

أنقذ عدوك لكي تعيش! يا له من درس!

ذات يوم كتب الأديب الروسي أنطون تشيخوف: «هكذا هي الحياة، إنها أشبه بوردة تزهر بفرح في أرض خضراء، وتأتي ماعز تأكلها فينتهي كلّ شيء»، فإذا التهم الفيروس زهرة الحياة، فإن الإنسانية ستصعد إلى أعلى كما بنفس الكبرياء التي عاشت بها، فليس لدى الإنسانية ما تخجل منه.

يقولون إن العالم بعد فيروس كورونا سيتغيَّر ليحقِّق أحلامه بالحرّيّة والعدالة والحياة الكريمة. لكن التاريخ يشهد بأن الأوبئة والكوارث الطبيعيّة لم تبدِّل النظم السياسيّة والاقتصاديّة الجائرة، بدَّلها فقط الوعي والعمل الاجتماعيّ. في يومٍ ما أبادت الأنفلونزا الإسبانيّة نحو خمسين مليون نسمة عام 1918، ولم يغيِّر ذلك شيئاً من النظام العالميّ، وإنْ كان قد حرَّك الضمير الإنسانيّ.

الوباء الحالي أيضاً قد يهز الضمائر، لكنه لن يغيِّر النظام العالميّ السائد، وعلينا حتى نحقِّق أحلامنا أن نتشبَّث بالأمل، الأمل في استمرار الحياة أولاً، لأنه ليس أمامنا خيارٌ آخر، لذا علينا أن نكرِّر لأنفسنا كلّ دقيقة أن أيام الكابوس معدودة، وأن الإنسان سيخرج منها منتصراً، وهو الذي صارع الوحوش، والظلمات، والفيضانات، والرعود، وخرج من الكهوف الأولى إلى الحضارة، ومن الكرة الأرضيّة إلى الفضاء الشاسع، ورجع بمشاعل الأمل في التقدُّم والعلم والتطوُّر. وسوف يأتي من بعدنا أناسٌ لن يتذكَّروا وجوهنا أو أصواتنا، لكنهم سيقولون عنا: «لقد تمسَّكوا بالأمل»، حتى عندما لم يكن هناك أمل. وحين يتَّجه البندول إلى الناحيةِ الأخرى من خواطري، حيث الخوف من الموت، وحين أسمع طنينه في الجو، أنهض. أفتح النافذة. أرفع رأسي عالياً نحو الشمس. أقول بقوة: «ستبقى على الأرض الأغاني والقصائد والألوان والإنسان الذي اخترع الرقة، والعذوبة، والوحدة، والكتابة، والأمل». ■ **أحمد الخميسي**

الخاص والعام في الجائحة

كشفت الجائحة الكثير من الضعف الإنساني، وصعّدت من الضيق الشخصيّ الذي انتشر على وسائل التواصل الاجتماعيّ، كما كشفت أيضاً كَمْ هي مهمّة علاقتك بمَنْ حولك

أنا من الأشخاص الذين يتطلَّب عملهم بقاؤهم في المنزل، وتلك كانت عادتي في معظم حياتي العمليّة، فإنك حتى تكتب لابد أن تقرأ، ولا أفضل من جو البيت للقراءة. وكنت دائماً في أوقات الإجازة الأسبوعيّة أبقى في المنزل وأستخدم عبارة (أنا مُجاز في البيت) لأصدقائي الذين يتصلون بي، وهو تعبير معروف بالإنجليزية vacationing at Home أخرج إلى الفضاء العام بضعة أيام في الأسبوع من أجل الذهاب إلى (الديوانية)، وهي ملتقى لتجمُّع أصدقاء ومعارف تستغرق أقلّ من ساعتين في الجلسة، وهي تقليد من التقاليد الاجتماعيّة القديمة في الكويت، أغشى ثلاث أو أربع ديوانيات في الأسبوع في المساء عادةً حتى التاسعة مساء، غيرها طبعاً الذهاب إلى الاجتماعات في اللجان التي أعمل عضواً فيها في بعض المؤسَّسات أو الجامعة، ويومان للتدريس من الصباح حتى الظهر.

في بداية الحجز- مذ شهر تقريباً أو أكثر- اعتقدت أن الأمور سوف تسير كما كانت بنقص في بعض النشاطات، ومع مرور الأيام بدأت أشعر أن الأمورَ مختلفة، حتى الرياضة الصباحية في المشي لم تعد ممكنة في المنطقة التي أسكنها، وأصبحت المشكلة أن القراءة لا تستهلك كلّ الوقت، فلجأت إلى التلفاز، والذي أصبح يوماً بعد يوم مملاً بسبب الفقر الشديد في المحتوى لمعظم البرامج، فهي تتناول أخبار انتشار المرض، ومقابلة بعض مَنْ يُسمَّى أهل الاختصاص، وظهر أن كثيراً منهم غير مختصِّين، ولا يعترفون بقصور معلوماتهم، ولكنهم يتحدَّثون في العموم بغير علم. هنا ظهر ما يمكن أن يُسمَّى جائحة المعلومات الكاذبة أو غير الدقيقة، وأصبحت الديوانية ذكرى عزيزة على قلبي، لأنك لو سمعت فيها شيئاً لا يصدق تستطيع أن تصحح أو تعترض، وحتى لو عوضتها جزئياً بمجموعات (الواتس أب)، ولكن حتى هذه الأداة بدأ البعض ينشر فيها رسائل ممّا يتلقاه دون تدقيق، وفي بعضها يجنح للخرافة. مخيف عندما يُصاب الإنسان بالقلق، وهو قلقٌ ناتجٌ من هذا المرض الخفي، فحتى الآن ليس له دواء معروف، وليس له لقاح قريب! لذلك توقَّفت عن متابعة الكثير من مجموعات (الواتس أب) وأبدلتها بانتقاء شديد لما أقرأ على تلك الوسيلة..

شعور غريب في البقاء القسري داخل البيت، ففي البقاء الطوعي أنت تتخذ القرار، تخرج أو تبقى في المنزل متى ما أردت.. في البقاء القسري عليك أن تبقى بصرف النظر عن رغبتك، وهي سجن من نوع ما، تجعلك تتعاطف مع كلّ مسجون في العالم، وتعرفَ قيمة التنقل والارتحال، وهي قيمة غالية ومهمَّة للإنسان نفسيّاً وصحيّاً واجتماعيّاً. أصبحت الديوانية شيئاً تذكره باعتزاز.. أقسى ما يمكن أن تفكِّر فيه وأنت في الحجر القسري هو أنك لو مرضت أو مرض أحدٌ من أفراد عائلتك لن تستطيع أن تذهب كما كنت تفعل إلى العيادة القريبة من منزلك، لأن ذلك قد يكلفك فوق المرض حياتك. كما أنك تسمع خمس مرّات في اليوم تعبيراً في رفع الأذان (أصبح مخيفاً) ومغلقاً (ألا صلوا في بيوتكم)، كم هي عبارة بالغة الدلالة لم تكنْ تحلم أن تسمعها في السابق مهما كان خيالك خصباً، والأمر الثاني هو أن تفقد عزيزاً غادر دنياك، ولا تستطيع حتى أن تودّعه كما عهدت في مجتمع مثل الكويت.. عادةً تذهب للعزاء حتى لأشخاص أو أسر لا

تعرفهم فهو (واجب اجتماعيّ)، فما بالك إنْ كان ذلك الذي غادر إلى ربه صديق عزيز، وقد فقدت في الأسابيع الأخيرة العديد منهم مع الأسف دون وداع إلّا من رسالة على (الواتس أب) لذوي المتوفى أو تعزية على (تويتر) لا تُغني عن المُشاركة الحقيقيّة.

على الصعيد العام انكشفت بعض السياسات التي كان يتوجَّب أن نفكِّر فيها من قبل سواء على مستوى الوطن، وأحسب حتى على مستوى دول الخليج للخصوصيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي تحملها هذه المجتمعات، وأعني ما أصبح يعرف بـ(الهيكل السكّاني)، كان معروفاً أن هذا الهيكل مختل، وأن هناك جيشاً من العاملين في الخدمات، في الحقيقة إن هناك نوعاً من العمالة غير المحلّية تحتاجها البلد، وهي عمالة مهنيّة عالية أو متوسطة تعيش في أماكن صحيّة وتتلقّى عن عملها بديلاً مجزياً يساعدها على مواجهة متطلباتها الحياتيّة، و لا ضرر منها، أمّا ما تبيَّن من نقص أن هناك عمالة هامشية وعددها كبير تراكمت في بلدان الخليج بسبب سياسات خاطئة وضعف ضمير لدى البعض بعد ذلك، فتعيش هذه المجموعات في أماكن مكتظة ودخلها قليل ووعيها الصِّحيّ والاجتماعيّ محدود كليّاً. السياسات الخاطئة هي الملامة وليس الأشخاص، فعن طريق سياسات (تلزيم بعض الأعمال الحكوميّة إلى مقاولين)، مثل الحراسات في المدارس والمؤسَّسات المختلفة، وعمّال الخدمة في المؤسَّسات الحكومية، وعمّال التوصيل في المستشفيات إلى آخره من هذه العمالة، وهي أعمال تخضع لمناقصات سنويّة تقوم فيها الشركات بمنافسة بعضها البعض، وعادةً ما يرسو عقد التلزيم على الشركة الأقلّ تكلفة، وبالتالي يجلب ذلك المتعهد أناساً غير أكفاء، ويسكنون في مساكن جماعيّة مكتظة تكون عُرضة أكثر لانتشار الأوبئة. اللوم هنا على السياسات التي صُمِّمت بهذا الشكل، وأيضاً على الثقافة الاستهلاكيّة السائدة في مجتمعاتنا. إن تحدَّثنا عن الكويت فأنت إنْ ذهبت إلى الجمعية الاستهلاكيّة أو المستشفى أو إلى مؤسَّسة حكوميّة، سوف ترى أن كثيراً من عُمَّال المساعدة هناك، وبعضهم لا يخضع للشروط الصِّحيّة، جلب الشاي والقهوة ونقل الملفات أو حمل ما تبضع الإنسان من مشتريات في الجمعيات الاستهلاكيّة إلى السيارة لا يضير الشخص أن يقوم بذلك، فهو لو ترك بلده في إجازة لفعل ذلك راضياً. الحل من خلال الأتمتة، كمثل الحراسة عن بُعد بالكاميرات الحرارية، أو أن يقوم الموظف بتحضير الشاي والقهوة من خلال ماكينات حديثة له ولضيوفه! أو يحمل المتبضع ما اشتراه إلى سيارته دون مساعدة من آخرين، طبعاً ذلك يحتاج إلى إعادة تثقيف من جهةٍ، وتغيير سياسات من جهةٍ أخرى.

لقد كشفت هذه الجائحة والبقاء في المنزل لفترةٍ طويلة الكثير من الضعف الإنساني، وفجّرت أيضاً خلافات أسريّة، وصعَّدت من الضيق الشخصيّ الذي انتشر على وسائل التواصل الاجتماعيّ، كما كشفت أيضاً كَمْ هي مهمَّة علاقتك بمَنْ حولك، فهؤلاء التزموا البقاء في المنزل كما أنت، وعليك أن تفهم حاجياتهم حتى لو لم تكنْ توافق عليها، وتتفهم مدى قدرتهم على التحمُّل، وقد لا يكون الجميع في القدرة النفسيّة على تحمُّل الاعتزال سواءً ولفترةٍ طويلة. كما كشفت أهمِّية العاملين في البيت من جنسياتٍ مختلفة، فهم يعانون معك كما تعاني، وتكتشف أيضاً كَمْ هي الإنسانيّة متماثلة، فهم أيضاً قلقون، أوّلاً على صحَّتهم، وثانياً على أقرباء وأحباء لهم في بلدانهم الأصلية.

الأسئلة الصعبة التي يحار المرء في الإجابة عنها هي: إلى أي مدى سوف يبقى الناس في منازلهم؟ أمّا السؤال الآخر المُهمّ جدّاً في نظري فهو: هل سوف نتعلَّم من أحداث هذه الجائحة؟ في تقديري أن الإجابة عن السؤال الثاني هي في الغالب: لا... لأن النوع الإنسانيّ يتمتّع بضعفِ الذاكرة!!! وإلّا لكُنا تعلَّمنا الكثير من التاريخ!! ■ **محمد الرميحي**

تصاريف الزمن الماكرة وفلسفة المصادفة

الواقع الذي سيطر فيه خلل المعايير، دفعني للقول أنه من المستحيل على أمثالي السفر إلى أوروبا. فقد كان شعار السلسلة المضادة، والتي صكّ مبرراتها النظرية محمد حسنين هيكل، في كتابه الإشكالي الشهير (أزمة المثقفين)1، هو الاعتماد على أهل الثقة بدلًا من أهل الخبرة؛ الأمر الذي نجم عنه العصف الممنهج بأهل الخبرة، وتهميشهم أو الحط من قيمتهم، وحتى التنكيل بهم. وقد تطورت آليات تلك السلسلة المضادة، وهي تكرس نفسها، كقاعدة فاسدة، بعدما كانت استثناءً، ما أدّى على مدى أكثر من نصف قرن، إلى ما نحن فيه من تدهور وهوان.

صبري حافظ

منذ أن ألمّت جائحة (كرونا) الراهنة بالعالم، وبدأ تأثيرها يمتد إلى حياة الأفراد المحيطين بي، و إلى حياتي اليومية، شخصيًّا، بصورة غيَّرت إيقاعها ومساراتها تغييرًا جذريًّا، وأنا أفكر في تصاريف الزمن الماكرة، وقدرته على فرض منطقه وتغيراته علينا، حتى لو بصورة مؤقتة، وكيف تلتقي هذه التصاريف، أحيانًا، مع رغبات الأشخاص وتتعارض معها في أحيان أخرى. ولأنني لا أريد أن أنضم إلى جوقة المنظرين من رؤوسهم - فقد دفعت الجائحة كل من هبَّ ودبَّ للإدلاء بدلوه فيها. واتخذ البعض سمت علماء الفيروسات، دون أدنى معرفة بطبيعتها أو خصائصها؛ أو خبراء الطب الوقائي منه أو العلاجي؛ أو حتى علماء المستقبليات والتنبؤ بما سينتاب العالم من تغيرات بنيوية، لا وفق الإحصائيات والمعطيات العلمية الدقيقة؛ إنما بما هو أقرب إلى النظر في بلورات المستقبل الخرافية.. أقول: لأنني لا أريد الانضمام إلى تلك الجوقة المتنامية، فقد آثرت الاهتمام بموقع ما يدور في الزمن، وبتأمل قوانين المصادفات الماكرة وعلاقتها بما نحن فيه. ما دلالة حدوث هذه الجائحة في هذه اللحظة من تاريخ البشرية؟ أهي مجرد مصادفة أن تتكشف عمّا أسفرت عنه من عالم مختل؟ خاصة وأنني أنهيت ذكرياتي الشخصية عن طه حسين، في العدد الماضي، بالحديث عن بعض فعل تلك المصادفات الماكرة في حياتي الشخصية. فما إن حان الموعد السنوي التالي، في خريف عام 1973، لانعقاد الجلسة السنوية في بيت طه حسين (رامتان)، وعملت سكرتيرًا لها لثلاث سنوات، حتى كنت في بريطانيا، وطلبت مني جامعة أكسفورد - التي كان لها الفضل في سفري إليها - الحديث عن طه حسين عقب وفاته في 28 أكتوبر، 1973. وقد أنهيت حديث ذكرياتي عن طه حسين بآخر كلماته لي: «وفقك الله، يا بُني!» قائلًا: «ويبدو أن الله استجاب لدعوته لي، رغم استحالة السفر إلى أوروبا لأمثالي في ذلك الوقت»، وهو أمر فيه شيء من الاستخفاف بفعل المصادفة التي دفعني تأمل دلالاتها، مع جائحة «كورونا» الراهنة، إلى العودة لكتاب محمود أمين العالم المهم عن (فلسفة المصادفة). فما أرجعته إلى المصادفة السعيدة، أو إلى استجابة الله لدعوة طه حسين لي، يدفعني، بعد قراءة بحث العالم المهم عن (فلسفة المصادفة)، إلى إعادة النظر فيما أنهيت به ذكرياتي عن طه حسين، قبل التفكير في دلالات وقوع جائحة «كرونا» على عالمنا في تلك اللحظة الراهنة، لأن التجربة الشخصية قد تكون أفضل مدخل لتناول أي قضية عامة.

تكشف لي قراءة بحث محمود أمين العالم عن (فلسفة المصادفة)، عن أمرين بالغَي الدلالة: أولهما: كيف كان مستوى البحث الجامعي في الإنسانيات في مصر في بداية خمسينيات القرن الماضي. لأن الكتاب - كما يخبرنا - هو رسالته التي تقدم بها للحصول على درجة الماجستير من قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، عام 1954، وقد كان مدرسًا بها قبل أن يفصله نظام العسكر من وظيفته الجامعية فيها؛

القاهرة (1950) ▲

لأن أي مراجعة لقائمة الكتب والمقالات التي استخدمها البحث، والتي تجاوز عدد المراجع الإنجليزية والمراجع الفرنسية فيها مئة مرجع، وهي مراجع تكشف قراءة الرسالة، بعناية، عن أن الباحث قد قرأها باستيعاب وتمحيص، واشتبك مع ما ورد فيها بالحوار العلمي قبولًا أو رفضًا، وردَّ ما ورد فيها لأصوله، في كثير من الأحيان. وهو أمر لا يكشف عن مقدرة الباحث، فحسب، ولكنه ينبئنا عن أن مستوى الجامعة المصرية العلمي، وقتها، يضاهي ما لمسته في أكبر جامعات العالم بعد أن أمضيت عمرًا في التدريس فيها. كما أن أي متابع مُخلِص لما يدور في الجامعات المصرية، اليوم، لا يمكنه أن يحلم بأن يجد ربع عدد هذه المراجع في رسالة للدكتوراه؛ لأن جلّ الحاصلين على درجة الدكتوراه من الجامعات المصرية لا يقرأون بأي لغة أجنبية، وكثيرين منهم لا يحسنون كتابة لغتهم العربية، ناهيك عن القراءة بطلاقة، بلغتَين، كما هو الحال في رسالة محمود العالم تلك.

والواقع أن قراءة الكتاب نفسه تكشف لنا عن جهد علمي وبحثي من طراز رفيع، يتتبع فيه الباحث موضوعه في تاريخ الفكر والفلسفة، بشمول ودقة، ثم في تاريخ الرياضيات والعلوم الطبيعية، بدأب معرفي لا مماراة فيه. وهو الأمر الذي يعدّ شهادة له، وهو ليس في حاجة لأي شهادة، وشهادة للجامعة التي درس فيها في الوقت نفسه - وهي أشدُّ ما تكون حاجةً لهذه الشهادة كي تدفع عن نفسها، ولو بماضيها، عار التردي البحثي والانهيار الأخلاقي معًا. فهذا الكتاب خير دليل على كيف كان الحال بجامعة القاهرة، حينما وفد العسكر لحكم مصر، لمن يعرف ما هو حالها - الآن - على جميع المستويات العلمية، والبحثية. ولو كان الأمر لا يزال بيد طه حسين وأمثال طه حسين، في الجامعة المصرية، لبعثوا بمحمود أمين العالم إلى أوروبا، يتعمق في دراسة الفلسفة فيها، ثم يعود لينهض بدوره في رفع مستوى الجامعة المصرية أدائيًّا وبحثيًّا، بدلًا من طرده من الجامعة، ثم الزجّ به في المعتقلات السياسية، لسنوات.

أما الأمر الثاني فهو أن هذا الكتاب المهم يصحب قارئه في رحلة معرفية من الحيرة، إلى مشارف اليقين الفكري والعلمي بالجدل الهيجيلي، عاشها الكاتب نفسه للخروج من التخبط بين الظلال الميتافيزيقية في قلب الفكر الفلسفي والعلوم الفيزيائية، إلى آفاق الوضوح العلمي بتعقيدات الرياضيات والفيزياء الحديثة. فقد كان يتحرك، في بداية بحثه، بإرادة نيتشه، ويتلمس طريقه بحدس بيرجسون، وطفرته الحيّة، ويرافقه لحن إليوت الجنائزي المفضل. وكانت تناوشه، طوال رحلته تلك، ظلال ميتافيزيقية في قلب الفيزياء الحديثة. ولكن مسيرة البحث المضني عن المعرفة، والمضي قدمًا في شعاب الاستقراء الفلسفي، قادته إلى بَلْورة المدلول الموضوعي للمصادفة، لأنها «تتعلق، من ناحية، بالمنهج الاحتمالي للعلم نفسه، ثم تتعلق، من ناحية أخرى، بظواهره وقوانينه مثل مبدأ عدم التحديد، وموجة الاحتمال، والمظهر التكميلي في الفيزياء»، ويقصد - هنا - المنهج الجدلي. (ص 15)

ولو أعدت تأمل ما دعوته بالمصادفة على وقع أحد التعريفات المتعددة لها، والتي ترد في صلب هذا البحث، وهي أنها «التقاء غير متوقع بين سلسلتين مستقلتين من الظواهر يولد حادثًا قد يبدو وكأنه مصادفة عشوائية»، لتكشف لي أن ما طرحه عليَّ طه حسين من أنهم كانوا يحرصون على إرسال النابهين من الخريجين في بعثات إلى أوروبا، هي تلك السلسلة التي تحققت، بسفري العجيب إلى أوروبا، وهي التي

رسخت - أيضًا - نمطًا من التوقعات السليمة، بأن من يحرص على المعرفة، ويتفوق في تحصيلها ينفتح أمامه سبيل الحصول عليها حتى أعلى الدرجات، بصرف النظر عن إمكاناته المادية، وهو المنطق الصحي السليم الذي ترتقي به الأمم. برغم أن الواقع نفسه، بعد بداية حكم العسكر في مصر، عام 1952، وانفرادهم بالسلطة المطلقة فيها بعد أحداث 1954 التي عصفت بأي أمل في العودة إلى التبادل الديموقراطي الهش للسلطة، الذي أنجزه جيل طه حسين فيها، قد رسَّخ لسلسلة أخرى كانت هي التي سادت وقت حديثي الأخير معه.

وكانت سيادة تلك السلسلة في الواقع الذي سيطر فيه خلل المعايير، هي التي دفعتني للقول بأن من المستحيل على أمثالي السفر إلى أوروبا. فقد كان شعار تلك السلسلة المضادة، والذي صك مبرراتها النظرية محمد حسنين هيكل في كتابه الإشكالي الشهير، (أزمة المثقفين)2، هو الاعتماد على أهل الثقة بدلًا من أهل الخبرة؛ الأمر الذي نجم عنه العصف الممنهج بأهل الخبرة، وتهميشهم أو الحطّ من قيمتهم، وحتى التنكيل بهم. وقد تطورت آليات تلك السلسلة المضادة، وهي تكرس نفسها كقاعدة فاسدة بعدما كانت استثناءً؛ مما أدى، على مد أكثر من نصف قرن، إلى ما نحن فيه من تدهور وهوان.

فبعد مرحلة الاعتماد على العسكر في الكثير من المهام والمناصب غير المؤهلين لها، وخاصة في العقد الأول من حكمه، كي يتم للنظام الجديد التحكم الكامل في الواقع؛ أخذ النظام الاستبدادي في تخليق أجيال متتالية من أهل الثقة، تتخذ التفاني في الولاء سبيلًا للصعود حينما تعوزها الموهبة أو المعرفة. وكان من أيسر سبل اكتساب ثقة السلطة في كثير من المواقع، وخاصة في مؤسسات توليد الفكر والرأي العقلي المستقل، أي الجامعات، هي أن يصبح «المثقف» بين قوسين، عينًا للأمن على من ينتقدون النظام، وخصوصًا على من يعتصمون بالقيم الأخلاقية، ويحرصون بالمعرفة والموهبة على استقلال الرأي، والاعتصام بنزاهة القصد، ونقد قصور أهل الثقة في القيام بما ليسوا أهلًا له.

وحينما أعاود النظر الآن، في حديث الذكريات هذا، في تلك المصادفة التي نتج عنها سفري إلى أوروبا، أجد أنها بنت تلك السلسلة العقلانية النزيهة التي كرسها طه حسين وجيله في الواقع المصري؛ والتي كان السفر فيها إلى أوروبا لتحصيل العلم نتيجة منطقية للتفوق المعرفي. بل إن قيم تلك السلسلة، نفسها، هي التي دفعت شابًا مثلي إلى الحلم بالسفر إلى أوروبا، وتتبع خطى أعلام ثقافتنا فيها. مع أن حكم العسكر الجديد كان قد استأصل تلك السلسلة، كلية، من الواقع، وجعل السفر لمواصلة الدراسة في الخارج - وكانت وقتها قاصرة على منح من بلدان الكتلة الاشتراكية - مقتصرًا على أهل الثقة، وعيون النظام الأمني.

وما يربط هذه «المصادفة» بتلك السلسلة النزيهة، هي أن الفاعل الأساسي فيها، وهو الدكتور محمد مصطفى بدوي، كان، بحق، من تلاميذ مشروع طه حسين الفذ في جامعة الإسكندرية، ومن خريجي دفعتها الأولى التي بعث طه حسين بأوائلها، في جميع التخصصات، إلى أوروبا لمواصلة دراستهم فيها.3 وكان قد ترك مصر عام 1962، وهو العام الذي أكملت فيه دراستي العليا، وبدأت النشر في المنابر العربية والمنابر المصرية، واستقر في بريطانيا، وعمل على تأسيس دراسة الأدب الحديث في جامعة أكسفورد. وقد قادته متابعته لموضوعه إلى قراءة بعض ما نشرته في لبنان ومصر، والاستشهاد به في بعض أبحاثه المنشورة بالإنجليزية، وإلى الاهتمام، بشكل خاص، بأول ببليوجرافيا شاملة للرواية المصرية، كنت قد نشرتها في مجلة (الكتاب العربي) عام 1969، وكنت أنا - أيضًا - قد سمعت عنه، وقرأت، بل درست ترجمته المهمة لكتاب (مبادئ النقد الأدبي) الشهير لريتشاردز، والذي أصبح ركنًا أساسيًا في صرح مدرسة النقد الجديد الأمريكية.

وكان قد أرسل أوائل عام 1972 تلميذًا له، يعدّ رسالة للدكتوراه عن الرواية المصرية في جامعة أوكسفورد، إلى مصر، وطلب منه أن يبحث عني، ويشرح لي موضوعه كي أحدد له الروايات التي يجب عليه دراستها في هذا الموضوع، وأن يحصل على كل هذه الروايات من القاهرة، ويعود بها ليكمل دراسته، وقد أرسل تلميذه ذاك إلى زميله وصديقه القديم في جامعة الإسكندرية، إدوار الخراط، كي يساعده في الوصول إليّ. وما إن وصل هذا التلميذ إلى القاهرة حتى أرسله إدوار الخراط لي، فأرشدته إلى كل الروايات التي عليه قراءتها لدراسته تلك، كما صحبته إلى أماكن بيع الكتب القديمة في القاهرة، وقتها، للحصول على كل تلك الروايات، وانتهت علاقتي به بعد حصوله على ما أراد.

وتشاء الصدف - وقد أخبرنا محمود العالم أن لها منطقها الموضوعي- أن أمرَّ بعدها، ذات مساء، بإدوار الخراط في بيته، فيخبرني بأنه يكتب رسالة إلى صديقه محمد مصطفى بدوي، سيأخذها له هذا الطالب الذي ساعدته، والذي سيعود إلى بريطانيا بعد يومين، ويسألني: هل تريد منه شيئًا؟ فقلت له: إنني لا أعرفه إلا قراءةً، فكيف أريد منه شيئًا!؟ كل ما أريده من بريطانيا هو أن أسافر أنا إليها، فقال إدوار: إذن، سأخبره بذلك. وكانت تلك السطور القليلة التي كتبها إدوار الخراط في رسالته تلك لصديقه، هي التي قادتني إلى بريطانيا في غضون عام واحد من كتابتها. وما جعل لهذه الواقعة دلالة موضوعية أعمق، تؤكد خلاصات (فلسفة المصادفة)، هو أنها جاءت كَردّ على غبن فادح ألمّ بي، وقتها؛ فقد كنت قد أكملت دبلوم الدراسات العليا الجديد في النقد والأدب المسرحي بأكاديمية الفنون «المعهد العالي للفنون المسرحية»، وجاء ترتيبي الأول على الدفعة الأولى لهذا النظام الجديد. وأعلنوا عن بعثة، أو - بالأحرى - منحة لدراسة الأدب المسرحي في الاتحاد السوفييتي وقتها، فتقدمت لها، وتقدم لها معي الأول على أحدث دفعة للبكالوريوس من المعهد نفسه، ولكني لم أفز بتلك المنحة، ولا فاز بها الأول على دفعة البكالوريوس، أيضًا، إنّما أُرسل فيها من كان ترتيبه الثاني على دفعة البكالوريوس، ولم يكن قد أكمل، بعد، دبلوم الدراسات العليا في نظام الدراسات العليا الجديد بالأكاديمية؛ لأنه كان من أهل الثقة، بالمعنى الذي توطد لأهل الثقة الجدد.

هوامش:

1 - لأن مؤلفه حرص على أن يمنع إعادة طبعه، رغم حرصه على إعادة طبع كل مؤلفاته بانتظام شديد. لأن نشر هذا الكتاب عام 1961، أولًا على شكل مقالات في (الأهرام) وقبل أن يظهر ككتاب، أثار الكثير من الجدل والنقاش؛. ليس فقط لأنه كتب موقف الدولة الناصرية من المثقفين ورغبتها في احتوائهم، وعدم ثقتها فيمن لا ينضوون تحت سلطتها منهم بطريقة فجّة إلى حد ما، ولكن أيضا لأن الشريحة الكبيرة من المثقفين الذين تناولهم الكتاب، أي مثقفي اليسار خاصة، كانوا في المعتقلات الناصرية وقتها. وكانت ثمة رغبة من النظام في أن يتخلوا عن أجنداتهم الثقافية أو السياسية المستقلة وأن ينخرطوا كُلّيّةً في مشروع النظام. ولأن الكتاب وثيقة دامغة، تكشف عن عداء النظام العسكري، حتى في أفضل مراحله وطنية، وهي مرحلة عبدالناصر، للحرية وللمثقفين بشكل عام، فقد أصرّ محمد حسنين هيكل، فيما بعد، على ألا يعيد طبعه.

2 - لأن مؤلفه حرص على أن يمنع إعادة طبعه برغم حرصه على إعادة طبع كل مؤلفاته بانتظام شديد. لأن نشر هذا الكتاب عام 1961، أولا على شكل مقالات في (الأهرام) وقبل أن يظهر ككتاب، أثار الكثير من الجدل والنقاش؛. ليس فقط لأنه كتب موقف الدولة الناصرية من المثقفين ورغبتها في احتوائهم، وعدم ثقتها فيمن لا ينضوون تحت سلطتها منهم بطريقة فجّة إلى حد ما، ولكن أيضا لأن الشريحة الكبيرة من المثقفين الذين تناولهم الكتاب، أي مثقفي اليسار خاصة، كانوا في المعتقلات الناصرية وقتها. وكانت ثمة رغبة من النظام في أن يتخلوا عن أجنداتهم الثقافية أو السياسية المستقلة وأن ينخرطوا كُلّيّةً في مشروع النظام. ولأن الكتاب وثيقة دامغة، تكشف عن عداء النظام العسكري، حتى في أفضل مراحله وطنية، وهي مرحلة عبدالناصر، للحرية وللمثقفين بشكل عام، فقد أصرّ محمد حسنين هيكل، فيما بعد، على ألا يعيد طبعه.

3 - كتبتُ في غير هذا المكان من قبل عن دور طه حسين اللامع في تأسيس جامعة الإسكندرية، وإدارته لها في سنواتها الأولى، وكان من بين أوائل دفعتها الأولى التي تخرجت، وطه حسين مديرًا لها، ومصطفى صفوان وسامي علي في علم النفس، وأصبح لكل منهم باع طويل فيه في فرنسا، وعبد الحميد صبرة في تاريخ العلوم عند العرب، والذي أصبح أستاذًا لهذا الموضوع في جامعة هارفارد، ومصطفى بدوي، نفسه، الذي أصبح أستاذًا للأدب الإنجليزي بجامعة الإسكندرية، ثمّ الأدب العربي الحديث في جامعة أوكسفورد.

Jess Rodrigues (Espagne) shutterstock

كي لا نصدِّق

أنّ المُستقبل وراءنا

لم يدّخر المهدي المنجرة جهدًا في دعوة العرب نُخبًا وشُعوبًا وحُكّامًا إلى إيلاء الدراسات المُستقبليّة ما تستحقّ من اهتمام باعتبارها مسألة حياة أو موت، فلا بقاء في نظره إلّا لمَنْ ينظر إلى أبعد من أنفه، وإلى أبعد من جيله، وإلى أبعد من عهدته النيابيّة أو الرئاسيّة.

آدم فتحي

يُشير زيغمونت بومان عَالِمُ الاجتماع الإنجليزيّ ذو الأصول البولنديّة في كتابه «ريتروتوبيا» الصادر سنة 2018، إلى أنّ «المُستقبل» المحلوم به لم يعد جذّابًا، بل أصبح أفقًا مُخيفًا نتيجةَ التقدُّم التكنولوجيّ المُتوحّش الذي يهدِّد ديمومة العمل البشريّ، ونتيجةَ التنافُس المتصاعد بين الجميع حدَّ إنتاج الليبراليّة المُتوحّشة، ونتيجةَ تَراجُع الديموقراطيّات وفشل الدولة الاجتماعيّة.

مفكّرون كثرٌ يشاركون بومان نظرته التشاؤميّة، وكأنّ الحاضرَ الكونيَّ لم يعد سوى شاهدٍ على انهيار شامل يغطّي جميع الوجوه. انهيار صدَّ الفرد عن النظر إلى المُستقبل باعتباره فضاءً مفتوحًا أمام الأمل، ورجّح لديه أنّ المُستقبل لن يكون سوى مرحلة انهيار أشمل وتدهور أكبر. من ثمَّ حلّ الحنين إلى الأمس محلّ الحلم بالغد وكأنْ ليس في الإمكان أفضل ممّا كان.

يُطلق بومان على هذه الحالة اسم «زمن العودات الكبرى» التي تجعل اليوطوبيا تكفّ عن التحرُّك في اتّجاه الأمام لتصبح نكوصًا وانكفاءً في نوعٍ من المديح العقيم للحلول التي اقترحها علينا الماضي. مؤكّدًا أنّ تشخيصه هذا دعوةٌ إلى اليقظة والعمل، وليس مرثية يائسة. فالحلُّ بالنسبة إليه موجود، ويتمثَّل في أن ننظر إلى المُستقبل وأن نبحث في المُستقبل عن حلولٍ لمآزقنا، عاملين بدعوة غرامشي إلى ضرورة الجمع بين «تشاؤم الذّكاء وتفاؤل الإرادة».

في مثل هذا السياق أفتقِدُ المهدي المنجرة، وأنظرُ إلى نهجه فأرانا في أمسّ الحاجةِ إليه، اقتداءً ونقدًا وتطويرًا. وإنّي لأُمعِنُ النظرَ فيما حَظِيَ به فكرُ الرجل منذ رحيله سنة 2014 فأراه دون المطلوب بكثير. وقد يكون لمرض جانبٍ كبيرٍ من الثقافة العربيّة بماضيها، بعض المسؤوليّة عن ذلك. إذ كيف لثقافةٍ لا تكفّ عن الإقامة في ماضيها، ولا تكفّ عن البحث عن خلاصها فيه، أن تنتبه بما يكفي إلى عَالِم من عُلَماء المُستقبليّات؟!

لا أدّعي في هذه المُداخلة المُوجزة الحلول محلّ أهل الاختصاص، فأقصى ما أهدف إليه هنا لفت الانتباه، وتوجيه تحيّة «رمزيّة» لمُفكّرٍ من أولئك الذين أثبتوا أنّ العلم والشعر يلتقيان في مجالاتٍ كثيرة، على رأسها مجال المُستقبليّات. وهو مجال لدراساتٍ لا تُعادِي أحلام الشعراء بقدر ما تستنير بها، ولا تُخاصم الماضي بقدر ما تستفيد منه. لذلك ما انفكَّ المهدي المنجرة يدعو إلى دراسة التاريخ مؤكِّدًا أنّه كلّما اهتمّ بالدراسات المُستقبليّة «ازداد شعورًا بالحاجة إلى ترسيخ رؤيته على أُسُسٍ تاريخيّة صلبة».

أذكر هنا ذلك الحوار الذي أداره أفلاطون في «فيدروس»، بين الفرعون ثاموس وهرمس أو تحوت الذي وقف أمام الفرعون يعرض عليه اختراعًا سيغيّر مستقبل البشريّة، هو الكتابة، فخيَّب الفرعونُ ظنّه، مشيرًا إلى أنّ الذاكرة موهبة عظيمة لابدّ من تعهّدها بالممارسة المستمرّة، وأنّ اختراعًا كهذا قد يجعل البشر يعتمدون على «أداة خارجيّة» فيكفّون عن تنمية تلك الموهبة «داخلهم».

علّق أمبرتو إيكو على هذا الحوار في محاضرته بمكتبة الإسكندريّة بتاريخ 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2003، مؤكِّدًا أنّ التاريخ أثبت تهافُت فكرة ثاموس، فالكتابة لم تقتل الذاكرة، بل منحتها مزيدًا من أسباب النموّ... ولعلّه كان يستطيع أن يقول أيضًا، إنّ ثاموس كان «يتذكّر المُستقبل»، لأنّه كان مفتقرًا إلى كلّ ما مدَّنا به علم المُستقبليّات من أدوات تحليل ومناهج تفكير...

من هذا المنطلق أنظر إلى ضرورة الانتباه إلى ريادة مفكّرٍ مثل المهدي المنجرة، لمع نجمه في مجال البحث

الاقتصاديّ والاجتماعيّ والحضاريّ، وتحديدًا في مجال الدراسات المُستقبليّة، وأصبح ذا صيتٍ عالميّ غير مسبوق، وترك العديد من المُؤلَّفات القيّمة التي تحتاج إلى محاورةٍ حقيقيّة، مثل «من المهد إلى اللحد» و«الحرب الحضاريّة الأولى» و«الإهانة في عهد الميغا أمبرياليّة».

في كتابٍ ضمَّ مجموعةً من المحاضرات بعنوان «قيمة القيم» أشار إلى أولئك الذين ما انفكّوا يعتبرون الدراسات المُستقبليّة طوباويّات غير علميّة، مؤكّدًا أنّها رؤية للمستقبل لا غِنًى عنها لأيّ إستراتيجيّة أو سياسة تنمويّة. كما وضَّحَ الفرق بين التخطيط والمُستقبليّات، مُلِحًّا على أنّ التخطيط ضروريّ ومُهمّ وهو يقوم على «تحليل المعطيات بمقاييس وخيارات تسمح بإسقاطات ميكانيكيّة شيئًا ما»، أمّا المعيار المُستقبليّ فإنّ «إسقاطاته ليست خطيّة، لأنّها تأخذ بعين الاعتبار التغيُّرات النوعيّة والطفرات المُهمّة».

لم يدّخر المهدي المنجرة جهدًا في دعوة العرب نُخبًا وشُعوبًا وحُكّامًا إلى إيلاء الدراسات المُستقبليّة ما تستحقّ من اهتمام باعتبارها مسألة حياة أو موت، فلا بقاء في نظره إلّا لمَنْ ينظر إلى أبعد من أنفه، وإلى أبعد من جيله، وإلى أبعد من عهدته النيابيّة أو الرئاسيّة. ما فائدة مخطّطات التنمية «إذا لم تتجاوز المدى المنظور» ولم تضع في حسابها تغيُّر الظروف الموضوعيّة والذاتيّة؟ ما فائدة خطط إصلاح التعليم إذا كان الوزراء الداعون إليها لا يهتمّون إلّا «بما يستطيعون جني ثماره خلال فترة اضطلاعهم بالمسؤوليّة»؟

يتطلّب إصلاح التعليم، في نظر المنجرة «الاهتمام أساسًا بعقليّة الذين سيطبّقونه»، لأنّ الأشخاص الذين سيدرّسون حوالي عام 2020 هم تلاميذ المدارس عام 2000، فكيف يُصلحون خطأً تربّوا عليه؟! ويضيف قائلاً: «إذا كانت الدراسات المُستقبليّة تفترض توقُّع الخطأ فلأنّها تبحث عن المرغوب فيه ولا تقتصر على الممكن».

سنة 1989 شارك المهدي المنجرة في ندوة تناولت الثورة الفرنسيّة، وقدَّم ورقةً مُدهشة تكاد تتوهّج بما شهدته البلاد العربيّة بداية من سنة 2010 و2011، إلى درجة استشراف الشعارين الأساسيّين اللذين ضجّت بهما الشوارع: الحرّيّة والكرامة. في تلك الورقة أشار المنجرة إلى أنّ «الإشكاليّات التي عرفها مجتمع فرنسا سنة 1789 أصبحت كونيّة»، وأنّ الثوّار ما كانوا لينجحوا في شيء وقتئذ لولا قدرتهم على إبداع منهج وأسلوب وأدوات إجرائيّة ووسائل قادرة على الخروج بهم من تلك الإشكاليّات.

المشكل الحقيقيّ لمستقبل البشريّة وبقائها، كما جاء في تلك الورقة، هو أن نعرف إنْ كنّا قادرين على الإبداع في التمسّك بالكرامة الإنسانيّة، بما يكفي للوصول إلى الثورة دون دفع الثمن في شكل أرواحٍ بشريّة... نتمعَّن في مرحلتنا الراهنة، فنشعر برشاقة هذه الفكرة، فكرة الإبداع. إذ بالإبداع وحده استطاعت الجماهير أن تحوِّل الأدوات التكنولوجيّة الحديثة إلى ثقافة، وأن تبتكر قيادة جماعيّة لحركتها، وأن تقتصد في الدم. لكن هل تواصل هذا الإبداع؟ هل احتكم «راكِبُو الموجة» إلى قوانين جديدة؟ هل غيّروا الخيارات؟ هل استنبطوا ميكانيزمات مُختلفة؟ أم أعادوا إنتاج نفس القوانين والخيارات والميكانيزمات والمناهج؟

بعبارةٍ أخرى: هل أحسنَ «أبناءُ التكنولوجيا الرَّقميّة» اختيار «ممثّليهم»، وهل عبّروا عن ذهنيّة مختلفة تستطيع التأقلم مع فائض الحرّيّة وفائض المطلبيّة الراهنين، أم أنّهم سرعان ما استسهلوا إعادة إنتاج جوهر المنظومة التي ادّعوا مواجهتها؟

سؤالٌ يعود بنا إلى سؤال المنجرة: «هل في وسعنا دون تشاؤُم ملاحظةُ الخطر الذي يتهدَّد المجتمعات المُتقدِّمة، حيثُ باتت الحرّيّة تُمارَسُ لا ككرامةٍ سامية، بل كرفاهية»؟ تشاؤمٌ يشملُ الدول «المُتقدِّمة»، فما بالك بالأخرى؟، حيث يُقصِي التكتيكُ الإستراتيجيا ويبدو التفكيرُ بعيدُ المدى في نظر البعض «بلا فائدة إجرائيّة على المستوى السياسيّ» مادام يتجاوز «عهدتهم السياسيّة».

وعلى الرغم من ذلك يظلّ الأفق مُشرَعًا أمام ذوي الإرادة. ولعلّنا نلتقي فيه بمفكّرين ومبدعين، عرفوا مثل المنجرة كيف يجيئون من المُستقبل، وكيف يرحلون بنا إليه، كي لا نصدِّق أنّ المُستقبل وراءنا.

رفعة الجادرجي

البيان الفلسفيّ للعمارة العربيّة

رحل المهندس المعماريّ العراقيّ رفعة الجادرجي مساء يوم الجمعة 10 أبريل/نيسان 2020 في العاصمة البريطانية لندن، عن عمر ناهز 93 عاماً. ويُعَدُّ الراحل، كمُواطِنَيْه محمد مكية (1914 - 2015) وزها حديد (1950 - 2016)، من أبرز المعماريّين العرب الذين تقاطعوا بمنجزاتهم وأفكارهم مع كبار المعماريّين العالميّين أمثال: (غاودي Gaudi، لوكوربيزييه Le Corbusier، غروبيوس Gropius)، إذ لم يدخروا جهداً في البحث عن المقوِّمات الإبداعية والتقنية والجماليّة الكفيلة بتهذيب العمارة والمدينَة العربيَّتيْن ومنحهما بعدهما الحديث والمعاصِر، وفق الصِّلات العضويّة بطبيعة المجتمع وشروطه لإعطاء الحضارة جسماً صَرْحِيّاً دالاً وخاصاً.

هؤلاء وطاقاتٌ أخرى، ولو بدرجاتٍ مُتباينَة، من أمثال حسن فتحي (صاحب كتاب «البناء مع الشعب»)، وعبد الواحد الوكيل، وجعفر طوقان، وعبد السلام فراوي، ورشيد الأندلسي، وعبد الواحد منتصر، وغيرهم قليل، يشكّلون النُّدْرَة، بل نُدْرَة النُّدرة، التي طالما أهملناها، كأفراد ومؤسَّسات، وتركناها في معزل عن اهتمامنا وثقافتنا وفكرنا. بينما هؤلاء الرُّؤْيَويّون يُصِرّون باستمرار على إمدادنا بالمعنى الملموس للأرض التي نقف عليها والحواضر التي نقيم فيها، ويقربوننا من حِسِّنا الوجودي في الفضاء، بينما يُرَوِّضون أبصارنا ويمنحون الهوية المكانية لأجسادنا الفيزيقية في تَنَقّلِها الداخلي كما الخارجي.

حصل الجادرجي على دبلوم الهندسة المعمارية من جامعة «هامرسمث للحرف والفنون» البريطانيّة، وعمل منذ تخرجه في مكتب «الاستشاري العراقي» الذي أسَّسه في 1952 وتابع فيه نشاطه إلى غاية 1978 ليتفرغ للبحث الأكاديمي، ثم دَرَّس كأستاذ زائر بجامعة هارفارد بين 1984 و1992 وبجامعة لندن بين 1982 و1992، حيث حاضر في فلسفة الفنّ والعمارة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. كما أسّس «مركز أبحاث الجادرجي» للبحث في فلسفة ونظريّة العمارة، وذلك إلى سنة 1999 التي أسس خلالها «مؤسسة الجادرجي» بالاشتراك مع نقابة المعماريين في بيروت ورابطة المعماريين.

عُرِفَ الجادرجي بنمطه البِنائي في عشرات المشاريع المعماريّة المُنجَزة، ومن بينها مبنى الاتحاد العام للصناعات، ومبنى نقابة العمال، ومبنى البدالة الرئيسية في السنك، ومبنى البرلمان العراقي. ففي تَبَنّيه المَدّ الحداثي، ظلّ يبحث عن مخارج شكليّة وفضائيّة وتزيينِيَّة لاستنبات النَّبْر العربيّ الإسلاميّ عبر إيجاد مخارج تكوينِيَّة متوازنة تنعكس على الواجهات Les façades بالتوليف المنسجم لتوازي التقويس وتوزيع الظلال، مع التغليف المدروس للجدران الخارجية بالطابوق الطيني العراقي المرسوم بوحدات زخرفيّة من صميم التراث التقليدي. على هذا المنوال الذي يحفر عميقاً في استدراك سبل الإدماج والتناغم بين البُعْدَيْن الحديث والمحلّي، استطاع شحذ أشكالٍ جديدة في التأليف

المعماريّ وطرق التشييد التي تخضع لطبيعة البيئة والمجتمع مع تجَنُّب التَّنْميط والعمل على ابتكار تراكيب جماليّة تمس المنظر الخارجي الذي يعكس بدوره توافق العلاقات الفضائيّة في الداخل. هذا المسار المُتصاعد في الإبداعية المعماريّة سيُمَكِّنُه من نَيْل جائزة آغا خان للعمارة عام 1986.

ساهم الجادرجي في إنجازات صرحية خاصّة بالفضاءات العمومية: «نصب الجندي المجهول» الذي تمَّ انتزاعه من ساحة الفردوس في

1982، كما صمَّم قاعدة Socle وواجِهَة «نصب الحرّيّة» للفنَّان جواد سليم، إذ تُشَكِّل الواجهة - الخلفية للنصب مساحة مسطحة لإدماج 14 وحدة نَحْتِيَّة بارتفاع ثمانية أمتار من المَصْبوبات البرونزية المُنْفَصِلة، تم تثبيتها على طول الخلفية Le fond، وهي الواجِهة الإسمنتية المُغَلَّفَة بالمرمر، والمُعَلَّقة على ارتفاع ثمانية أمتار لتجعل النصب بين فراغَيْن، بين الأرضي والسماوي. بدأ إنجاز الصرح في 1959 بساحة التحرير في قلب بغداد، كنتيجة للتجاوب الإيجابي والفَعَّال الذي لاقَتْه «جماعة بغداد للفنّ الحديث» التي تأسّست في 1951 بقيادة الفنّانَيْن جواد سليم وشاكر حسن آل سعيد، وذلك بعد أن تحَدَّد الرصيد الفنّي للحركة التشكيلية في العراق، حيث «في الحين الذي أرست فيه جماعة من الفنّانين تقاليد التوجُّه إلى مواضيع البيئة المحلّية لتُصَوِّر الأوضاع المألوفَة في المدينة والريف، قام فنّانون آخرون بإعطاء هذه البيئة المعنى الحضاري، إذ لم تعد البيئة عندهم كقيمة بصرية جميلة وحسب، بل كتركيب يُعاد بناؤه طبقاً لامتداداته التراثية، والأهمية هنا تكمن في أن الأسلوب الفنّي نفسه، وبعض متطلَّباته التقنية ذات صلة، سيُعاد اكتشافها من خلال التراث»[1]. من هذا المنظور نُلامس التعاون المُثْمِر والفَعَّال للجادرجي الذي وجد ضالته في أفكار وأساليب الفنّانين التشكيليين الذين صار ينتمي إليهم بالفعل والقوة.

يعتبر كتاب الجادرجي «شارع طه وهامرسمث: بحث في جدلية العمارة» الذي أصدره في 1985 ثمرة أطروحته التي حرّرها في 1951 ونقّحها في سنة 1958، وباتت تشكل بيانه الفلسفيّ الذي يجمع بين النظريّة والتطبيق في مُجمل إنجازاته المعمارية على الدوام، كما في عديد كتبه التي تبَنَّت غِنى التصوُّرات القائمة على التنظير الفلسفيّ للعمارة بالاستناد إلى طبيعة البيئة التي تمس مختلف الأطروحات المُتَناوَلة: «الأخيضر والقصر البِلَّوري: نشوء النظريّة الجدلية في العمارة، 1991»، «حوار في بنيوية الفنّ والعمارة، 1995»، «دور المعمار في حضارة الإنسان، 2018»، «مقام الجلوس في بيت عارف آغا: دراسة

أنثروبولوجية للعلاقة بين تكوين الهويّة واستعمال مُصَنَّعات الجلوس، 2001». كما صدر له عن مركز دراسات الوحدة العربيّة: «في سببية وجدلية العمارة، 2006» الفائز بجائزة الشيخ زايد للكتاب في دورة 2008، و«صفة الجمال في وعي الإنسان: سوسيولوجية الإستطيقية، 2013» و«دور المعمار في حضارة الإنسان، 2018». كما أصدر «صورة أب: الحياة اليومية في دار السياسيّ كامل الجادرجي، 1985»، ذلك أن رفعة الجادرجي هو ابن السياسيّ والوزير الشهير زمن الحكم الملكي كامل الجادرجي، ويُعدُّ من مؤسّسي الحزب الوطنيّ الديموقراطيّ عام 1946 بمشاركة رجل الاقتصاد محمد حديد والد المعمارية زها حديد. فضلاً عن كتاب «جدار بين ظَلْمَتَيْن، 2003» بالاشتراك مع زوجته بلقيس شرارة، يسردان فيه سيرتهما الذاتية الواقِعِيَّة لمرحلة الاعتقال التي دامت عشرين شهراً.

يُلَخِّص المعماريّ والفنَّان التشكيلي رفعة الجادرجي رؤيته الفلسفيّة المُنبثقة من تجاربه الموصولة بالتجاوب السَّلِس بين المِهَنيّ والنَّظَريّ بالقول: «كان اهتمامي منصباً على إيجاد أسلوب ملائم لمعمار عربيّ معاصِر، وكانت نقطة الانطلاق هي اعتماد الحوار المستمر بين المعماريّين والرسامين والنحاتين والمُفكِّرين العرب. وكان السؤال عمّا إذا كان من الضرورة أن يظلّ الفنّ المعماريّ عندنا عرضة للأفكار الغربيّة الأوروبيّة أم أن عليه أن يتأثر بالبيئة المحلّية والتقاليد الطبيعيّة والمواد المُتَوافِرَة. وبالنسبة لي فقد بدأت أتعلّم من المعمار التقليديّ وأحاول أن أتوصل إلى المُواءَمة ما بين الأشكال التقليديّة والحضور الحتمي للتكنولوجيا الحديثة. كان هدفي ينحصر في خلق معمار ينسجم مع الواقع المكاني الذي يُشَيَّد فيه، وألّا يسمح بالتضحية بشيء جوهري لصالح الإمكانيات التكنولوجية الحديثة. وفي الوقت نفسه كنت مُهتماً بفهم وتحليل التفكير القائم في الطرق التقليديّة للسيطرة الطبيعيّة»، مضيفاً: «إن اهتمامي الحالي ينصب على الرغبة في تطوير أكثر للنزعة التجريديّة في الأشكال التقليديّة المحلّية والقوميّة وقِيَمها الجمالية بمعزل عن المفهوم الإنشائي». ومن ثمّة، يؤكّد على العلاقة الكامِنَة بين التنظير والممارسة، ما جَعَله يحُثُّ

المعماريّ على جَدارة تسخير التنظير في التصميم، ذلك أن رؤيتنا لأي شيء إنما تحصل عن طريق المعرفة السابقة، إذ في انعدام التنظير تبطل العلاقة التفاعلية بين المتلقي والمعماريّ، وحينها تصبح العمارة رتيبةً وسقيمةً إذا لم تعتمد على فهم الزمان والمكان والإطار البيئيّ والجغرافيّ، في الحين الذي يلح فيه على كون الممارسة هي في حدِّ ذاتها استجابة لتفاعل بين الفكر والمطلب الاجتماعيّ منذ تكوين نظريّته «جدلية العمارة» في 1952، باعتبارها أساس التنظيم في العمارة. بروح معاصِرة، حافظ رفعة الجادرجي على إيقاع الغوص في البحث والنهل من شتّى المعارف والعلوم الإنسانيّة التي تخدم المعمار على أكثر من صعيد فكريّ وإجرائيّ دون إغفال استغوار صور الوجدان ومدارجه، واضعاً أمامه أسئلةً دقيقة طالما واظب على إيجاد أجوبةٍ صريحة لها دون كلل. ■ **بنيونس عميروش**

هامش:

1 - سهيل سامي نادر، «شاكر آل سعيد: البحث عن أثر داخل الثقافة»، فنون عربيّة، دار واسط للنشر، المملكة المتحدة، لندن، ع7، المجلد الثاني، السنة الثانية، 1982، ص 67.

جورجيو دي كيريكو

شاعريّة الخواء

قبل ما يربو على مئةِ عام، كانت لوحات الفنّان الإيطالي جورجيو دي كيريكو (1888 - 1978)، تستدعي اللامرئي في الميادين الخاوية، وهو الأسلوب الذي جعله مُتربِّعاً على «الرسم الميتافيزيقي».. المُصطلح الذي سكّه الشاعر أبولينير، حينما أراد توصيف لوحات كيريكو وإشارتها إلى ما هو أبعد من الظاهر العياني للمُرتسمات المُتجليّة فوق قماش الرسم.

تُشير السيرة الذاتية لكيريكو، وإقامته وتنقُّلاته بين اليونان التي وُلِدَ فيها، وإيطاليا وألمانيا وفرنسا، إلى أن مرجعيّاته الفنيّة متواشجةٌ مع جماليّات الكلاسيكيّة الإغريقيّة والرومانيّة، والنهضة الإيطاليّة، (خاصّة رسوم جوتّو)؛ فضلاً عن تيار الرمزيّة، تحديداً رمزيّة آرنولد بوخلين، وأوديلون ريدون. أمّا تكوينه المعرفيّ فيُشير- بلا لبس- إلى فلسفة شوبنهور ونيتشه؛ وأفكار فرويد حول تفسير الأحلام؛ ولا يمكن التغاضي هنا عن الإشارة إلى أهمِّيّة مراقبة كيريكو سيرَ الجدلِ الجماليّ الذي خاضته الطليعة التاريخيّة في باريس، قبل أن يجد صياغته الفنِّيّة في الدادائيّة فالسورياليَة خلال عقد العشرينيات.

لكلّ ذلك يمكن القول إن فنّه يقع في البرزخ التاريخيّ الذي يلي الرمزيّة ويسبق السورياليّة. وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى الفاعليّة التي مارسها في الحركة السورياليّة، حتى أنه يعتبر الأب الروحيّ لها بالنسبة للكثيرين؛ بل ويمكن القول إنّ رسومه الميتافيزيقيّة، أو بعض عناصرها التصويريّة، أفضَت إلى أن تكون جزءاً أيقونيّاً من الذاكرة الجمعيّة في تاريخ الفنّ، بالرغم من التغافُل عن ذكر صاحبها. يكفي استعادة ذهول أندريه بريتون بلوحاته، وأثره على رسّامين من مقام ماكس إرنست، ودالي، وماغريت، وبول ديلفو واستفادة مصوِّرين فوتوغرافيّين منه، مثل مان راي، وهانس بالمر؛ كما يكفي استرجاع دوره في رؤية العديد من المُخرجين

ساحة (1913) ▼

غزوة الفيلسوف (1914) ▲

المسرحيين والسينمائيين كأنطونيوني؛ وما لعبت لوحته من تأثير في تصميم أغلفة المطبوعات؛ حتى إن مؤثراته وصلت إلى قصائد بعض الشعراء، مثل سيلفيا بلاث.

من جانب آخر، لابد من القول إن التصوير الميتافيزيقيّ لدى كيريكو لا يُعاصر المُستقبليّة الإيطاليّة فقط، بل ويشكّل طِباقاً مضاداً لها؛ ذلك أن المُستقبليّة رفضت كلّ المُنجز الفنّيّ حتى مرحلتها، وأغلَت من شأن القطيعة الجماليّة، وقول الآلة المُنتصرة، ويقين التقدُّم التكنولوجيّ، وعجلات الزمن السريع شكلاً ومضموناً. في حين أن رسوم كيريكو تنسل من المخيِّلة متمهلةً، لا تقطع مع ما قبلها ولا ما سيأتي بعدها، بل تعمل على إحياء الماضي الإغريقيّ والنهضويّ على طريقتها، لتتستر وتحتجب خلفه مخاطبة الحاضر، بكلّ تفاصيلها المُبسّطة والمُغلّفة بفضاءٍ مغرقٍ في السكون. ومن اللافت للانتباه وجود التقاء على صعيد الشكل بين مُنجَز كيريكو، وبين جنس الطبيعة الصامتة المعروف بـVanitas، الذي ازدهر في العصر الباروكي في القرن السابع عشر، وفيه عكف الرسَّامون على مجاورة أشياء عِدّة وتصويرها، مثل جمجمة، زهرة ذابلة، ساعة رملية... كقيم رمزيّة ليقين الموت، ومجاز حضوره في كلّ فعل حيّ.. بيدَ أن السكونيّة الميتافيزيقيّة التي تستنطق الأشياءَ الدنيويّة في رسوم كيريكو، سواء كانت نصباً تذكاريّة في ميدانٍ عام، أو سقط متاع، تختلف عن ميتافيزيقيا الـVanitas التي تتنكّر للحياة لصالح الموت؛ ذلك أن رسوم كيريكو فيها دعوة لاكتشاف الكينونة في الأشياء المرسومة، التي تتواجد معاً وتتناجى فيما بينها، وبالتالي هي دعوةٌ للفعل، وإعادة قراءة المُتبدَّي في اللوحة. إنّ سمة الميتافيزيقيّ لرسوم كيريكو لا تعني بحالٍ من الأحوال

ساحة (1914) ▲

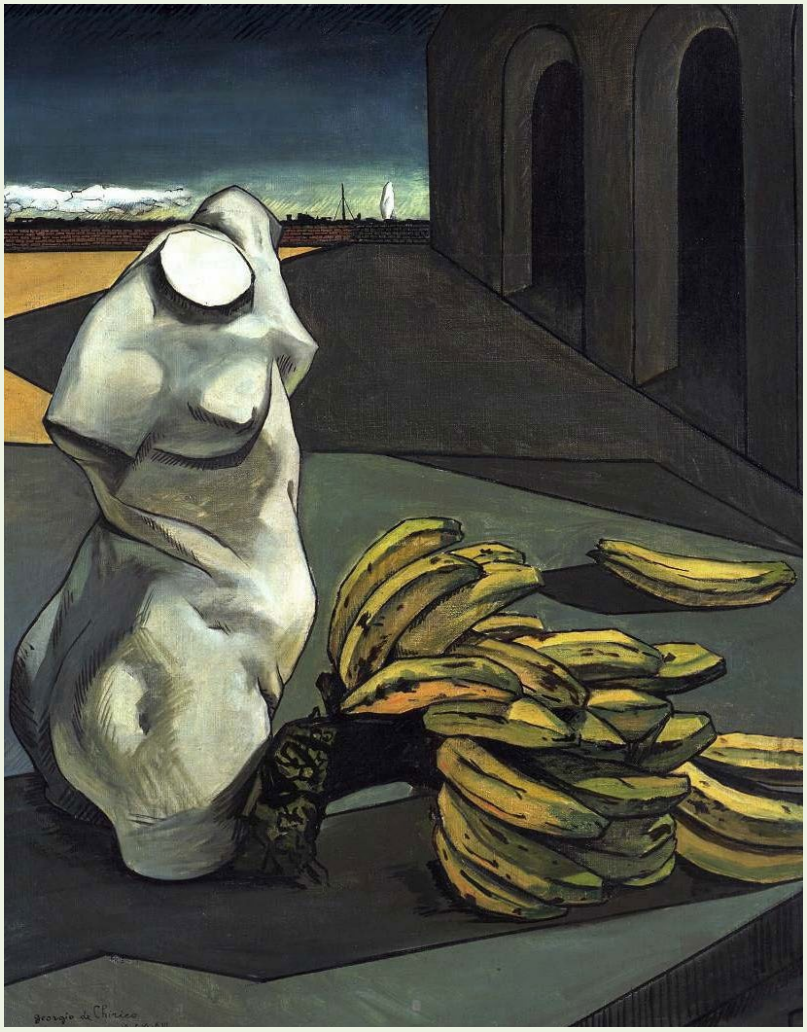

حيرة الشاعر (1913) ▲

الميتافيزيقيا اللاهوتيّة، بل تدلّ على إدراك ما هو منبث في ما وراء الأشياء من ماهيّة؛ إنها أشبه ما تكون بـ«إحيائيّة عدميّة» تعبِّر عن ذاتٍ ملقاة في عالمٍ موحشٍ، تنهشه الحرب والأزمات والوباء، ويحيق به زيف «التقدُّم».. ذات تدرك عدمها، وينتابها القلق من هذه الحقيقة، وتتوق للمعنى والجوهر المفقود في هذا العالم الصامت.. تُعدُّ اللوحات التي أنجزها كيريكو، في العقد الثاني من القرن العشرين، خير مثالٍ على الرسم الميتافيزيقيّ؛ وفيها صوَّر عالماً يحتوي على عمارةٍ كلاسيكيّة، ساحات مقفرة، أروقة خاوية، تماثيل إغريقيّة، أعمدة رومانيّة، أبراج ومداخن مصانع شاهقة، قطارات عابرة في الأفق، عثاقيل موز، ساعات جدارية... وضمن المشهد الذي يسمّره، تظهر الشخوص المُقلقة: نسوةٌ لهن هيئة مانيكانات الخياطين، أناس مُقزَّمون في الفضاءِ الخارجيّ، أو أبدان محصورة في حجرات منزليّة تتلبّسها البيوت وتساكنها

«غموضٌ وسوداوية في أحد الشوارع» (1914) ▲

الأطلال. ومن كلّ ذلك تتعدَّد نقاط الفرار وتختلّ، كما تستطيل الخيالات والسلالم الضوئيّة على مدار اللوحة. ويَرين الوجوم على الموجودات، بل يفيض من اللوحة ليطوي عمليّة التلقي، فيتناهى لسمع الناظر هسيسٌ خفي، وهينمات مُبهَمة. إنه واقع تصوُّري شعري موحي، الزمن فيه حلوليّة منسربة في الاتجاهات كافة؛ واقع يتبدَّى كأحجية لابد من فَكّ مغاليقها، أو منظر ملغَّز لا عقلي، بيد أنه قابل للتصديق، والتكشُّف عن منطق بديل. في لوحة «غموضٌ وسوداويّة في أحد الشوارع» (1914)، نرى شارعاً يفضي إلى أغوار مضاءة وخاوية في العمق، باستثناء طفلة صغيرة تتراكض خلف إطارها المعدني وحيدة تماماً. تتوزَّع العناصر المعماريّة وهي تعلّم المنظور؛ إلى اليسار يُرى مبنى مُقنطر يُساير المنظور حتى نقطة التلاشي؛ وإلى اليمين بناء مطرق في ظلٍ يحتلّ بُعد اللوحة الأول، وبحذائه عربة من تلك التي تنقل حيوانات السيرك بما فيها المُتوحِّشة. من الساحة غير المرئية يصل جزءٌ من خيال رجلٍ، أو عساه ظِلّ تمثالٍ مُنْزوٍ. من الواضح أنّ جمود العمارة يهيمن على الرسم، بيد أنّ ثمّة حركةً خفيّة تكسر الجمود المرئي: الراية الخافقة فوق البناء في العمق، وشعر الصغيرة وفستانها المُتطاير. كما أنّ صرير الإطار المعدني المفترض، الذي تدحرجه الطفلة المُنفردة، يحطِّم السكون الطاغي. ويُثير باب العربة المفتوح توجُّساً، مصدره الخيال المُتمدِّد من صمتِ الساحة... إنها عناصر الأحجية التي يقدِّمها الفنَّان لرَفعِ النقاب عنها، وكَشْف المعنى السوداويّ الذي يمور في الرسم، متربِّصاً بالصغيرة وسط لامبالاة الهدوء المُطلق. في لوحة «ربّتي الشعر المُثيرتين للتوتر» (1916/18)، المرسومة زمن

البرج الأحمر (1913) ▲

ربتا الشعر المثيرتان للتوتر (1916-1918) ▲

الحرب، نصادف دارةً نهضويّة مجاورة لمنشأةٍ صناعيّة في العمق، وبناء جانبي يساير المنظور المفترض. تتموضع عروسا الشعر: ميلبومينى (التراجيديا)، وثاليا (الكوميديا) في ساحةٍ شاغرةٍ رُفِع منظورها، مما يجعل المشاهد يبصرها كخشبةِ مسرح.

تتبدَّى ربّتا الشعر إسوة بالدمى المُتمفصلة، التي كان الخياطون يستخدمونها حينئذٍ. وتجلس التراجيديا برأسٍ ناقص؛ في حين أن الكوميديا تقف بزيها المُتقادِم، تولي ظهرها للمتلقي، فاقدة السيمياء. يُولِّدُ التصوير الإحساسَ بأنّ عروستي الشعر متروكتان على الركح مثل أي إكسسوارٍ آخر، كالقناع الأحمر رمز المأساة، وعصا الراعي رمز الملهاة، وعلبة المُهرجين المُلوَّنة. كذلك يلوح أبولو في العتمة المُهمَلة الجانبيّة مجرَّداً من قيثارته. من كلّ ذلك تثير اللوحة الصامتة التوتر، وتبثُّ الكآبة والروع في القلب، فضلاً عن أنها تستبطن تناصاً مع أطروحة نيتشه حول التراجيديا والكوميديا، وهي تتناول قدر الفنّ، وقدرنا أجمعين في زمن الجزع، لتطرح السؤال: هل تستطيع عرائس الشعر المُهمَلة نقل نبوءات الفنّ المهجور؟ ■ **أثير محمد علي**

كتاب الدوحة

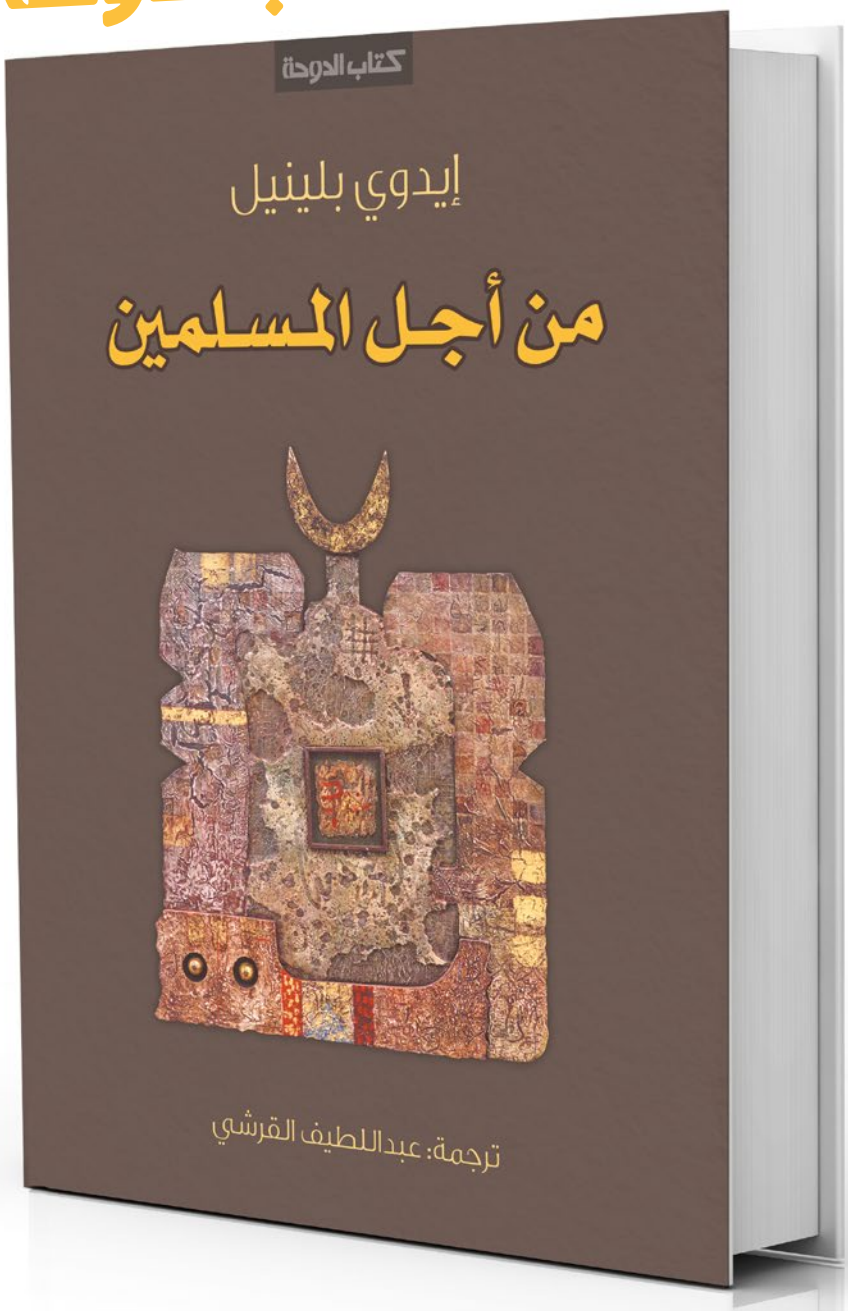

Doha Magazine aldoha_magazine @aldoha_magazine

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

معرض غابرييل غارسيا ماركيز

الرحلة الكاملة

معرض «غابرييل غارسيا ماركيز: مسيرة كاتب عالمي»، الذي بدأ في الأصل في مركز هاري رانسوم حتى 19 يوليو/تموز 2020، مغلق- حالياً- حتى الأوّل من مايو/أيار على الأقلّ بسبب (كوفيد - 19). زار الصحافي والكاتب لانس ريتشاردسون، وكتب عن المعرض قبل اختتامه.

لكلّ كاتب نقيصة في مسيرته المهنية، وعادة ما يكون من الصعب التخلص من تلك العادة المدمرة. وإذا تحدثت عن تجربتي الخاصّة فإنّها تتعلَّق بالإبحار عبر الأمازون، وكتابة عناوين بعض التحف الفنّيّة، والنقر على وظيفة «ابحث في الداخل»، ثم أقرأ، على سبيل المثال: «بعد عدّة سنوات، بينما كان يواجه فرقة إطلاق النار، تذكّر العقيد أوريليانو بوينديا ذلك اليوم البعيد عندما أخذه والده لاكتشاف الجليد». وبعد مدّة قصيرة أغلق جهاز الكمبيوتر وأذهب في نزهة طويلة، على طول النهر، محبطاً من عدم قدرتي على كتابة أي شيء جيّد على الإطلاق.

إنّ العمل المنشور يبدو كخدعة سحرية. إذا كان ناجحاً ومؤثّراً - ويمكن القول إنّ «مائة عام من العزلة» تتناسب تماماً مع هذا الوصف - فإنّه يبدو للعيان مهمّة سهلة وسالكة. الكلمات مرتّبة على الصفحات ترتيباً طبيعياً جدّاً وصحيحاً تماماً، كما لو كانت موجودة منذ الأزل، في انتظار من يكشف عنها. إنّ الجهد الكبير الذي نبذله في إنتاج تحفة فنّيّة يزول أثره بسرعة حتى لا نكاد نصدّق إنّه تطلَّب جهداً يذكر. وهذا ما حدث معي للتو، وبشكلٍ مثالي. إنّها العبقرية.

على غرار العديد من الكُتّاب، أدرس عمل العباقرة لأنّني أصبح ماسوشياً عندما يتعلَّق الأمر بعملي النثري، ولكن- أيضاً- لأنّني أريد معرفة كيف تمكّن هؤلاء الكبار من بلوغ هذا التميّز. (جوان ديديون، في رده على دافع مماثل، كان- دائماً- يعيد كتابة قصص إرنست همنجواي) قد يكون هذا أحد الأسباب الذي يجعل الأرشيفات الجامعية تكتسب التأثيرات الخاصّة واللمسات الشخصية لكُتّاب معينين: جميع المراسلات، والتعديلات، ومسودات الطريق المسدود تقدِّم لمحة عمّا ينطوي عليه بالفعل «العبقري».

«غابرييل غارسيا ماركيز: صناعة كاتب عالمي»، معرض جديد في «مركز هاري رانسوم» في أوستن، تكساس، وتجربة رائعة وسط هذا النوع من الغموض. يتضمَّن المعرض رسائل، ومخطَّطات، وصوراً، ومقتطفات صحف، وتحفاً، ومخطوطات مستمدة من مجموعة غارسيا ماركيز، التي اشتراها مركز رانسوم في العام 2015 مقابل 2.2 مليون دولار، ومن ثَمَّ ترقيمها جزئياً. يقول ألفارو سانتانا أكونيا، الأستاذ المساعد لعلم الاجتماع في كلية «ويتمان»، الذي أشرف على المعرض: «يسعى المعرض لتتبُّع مسيرة صبي خجول من قرية كاريبية نائية في كولومبيا حتى أصبح أحد أشهر المؤلّفين في القرن الماضي». رغم كلّ ما قد نفترضه من رجل حصل على جائزة نوبل في الأدب لعام 1982، «لم يكن من السهل على غارسيا ماركيز أن ينجح باحتراف».

ولد في العام 1927 في أراكاتاكا بكولومبيا، أراد غارسيا ماركيز- أو «غابو» كما يحلو للمعجبين- أن يصبح كاتباً في سن مبكرة. مسوّدته الأولى حول عائلة بوينديا عندما كان عمره 23 عاماً فقط تدل على ذلك، رغم أنّ «مائة عام من العزلة» لم تكتمل قبل بلوغه الأربعين. عندما كان شاباً، كتب قصصاً قصيرة وشعراً، وعمل صحافياً في قرطاجنة وبارانكويلا، حيث نشر قطعاً أظهرت حبّه للحداثيين مثل فرجينيا وولف. (غالباً ما كان يكتب عموداً تحت الاسم المستعار «Septimus»، المقتبس من شخصية في رواية «السيدة دالاوي»، على سبيل المثال).

وفي خمسينيات القرن الماضي، جرّب كتابة السيناريو، بمبادرة منه لصحف التابلويد، نسخة إعلانية، وكتب نسخة لشركة كيميائية بعنوان «5000 años de Celanese Mexicana (5000 سنة من السيلان المكسيكي)»، وروايات قصيرة، باعها لمطابع صغيرة. لم يطّلع عليها سوى عدد قليل من الناس. وبحلول عام 1963، بدأ غارسيا ماركيز يخشى من أنّه قد لا يعمل- أبداً- ككاتب محترف.

تقول سانتانا أكونيا، التي دُعيت لرعاية المعرض بعد قضاء أشهر في مجموعة غارسيا ماركيز لتأليف كتاب (الصعود إلى المجد: كيف ألفت رواية «مائة عام من العزلة» وأصبحت كلاسيكية عالمية): «الموهبة من دون انضباط لا تصنع الفنّان الناجح». لكن غابو، قبل كلّ شيء، كان منضبطاً للغاية: «عمله الصحافي علّمه أهمّيّة الكتابة الجيّدة. أي أن تحصل على الحقائق وتكتب القصّة بشكلٍ صحيح، ثم يمكنك التفكير في تنميق النثر الخاص بك». وفي صيف عام 1965، جمع كلّ مهاراته، وركّز بجد لمدة 14 شهراً، وأنتج «Cien años de soledad»، «مائة عام من العزلة».

تعكس اختيارات سانتانا أكونيا القيّمة ما قد يختاره كاتب السيرة. يمكن التنقل في المعرض الكبير، الذي يغطي معظم مساحة مركز رانسوم، ترتيباً زمنياً، من الطفولة إلى المجد، أو عكسياً إلى الوراء، بدءاً من مكانة غارسيا مركيز كرمز عالمي. (في مقطع ساحر، يتم تشجيع الزوار على الاستماع إلى أغنية الفنّان الكولومبي رافائيل إسكالونا بعنوان «نوبل فالياتو»، التي كُتبت على شرف غابو).

تُقسّم «مائة عام من العزلة» المعرض إلى نصفين، جانب منها يعود حتى نشرها في العام 1967، والنصف الآخر يدرس تأثيرها على الأدب

العالمي - وعلى غارسيا ماركيز، الذي استمر في الاستفادة من نجاحها المذهل للدفاع عن السينما الإسبانية - الأميركية والصحافة الأخلاقية وحتى فيدل كاسترو.
ومع ذلك، فإنّ الهدف الحقيقي من هذا المعرض هو إلقاء نظرة ثاقبة لما أسماه غارسيا ماركيز ذات مرّة «نجارة» الكتابة: أي التقنيات المستخدمة، والعوامل المُلهمة، وكلّ ما يشغل باله. يُزعم أنّ قصّة قصيرة مبكرة، تم استنساخها باللّغة الإسبانية، قد كتبها في اليوم التالي من اطلاعه على رواية كافكا «المسخ». تروي القصّة، التي تُسمى «الاستقالة الثالثة»، حكاية طفل ميت يواصل نموه في نعشه، رحلة خيالية لا تبدو بعيدة عن رواياته الأكثر نضجاً.
كما ضمّنت سانتانا أكونيا- أيضاً- عناصر أخرى مؤثِّرة في حياة غارسيا ماركيز: مخطوطة فولكنر المصحّحة بعنوان «بينما أحتضر»، «As I Lay Dying»، وقوادس الكاتب الإيرلندي جيمس جويس لرواية «عوليس»، «Ulysses»، كما درس غابو مونولوجات جويس وتقنياته السردية- في ذلك الوقت- بالإضافة إلى مخطوطتين لكلّ من بورخيس وخوليو كورتازار.
كان خوليو كورتازار أحد الأصدقاء الذين قرؤوا وعلّقوا على المسودات المبكرة لـ«مائة عام من العزلة»، والتي يُعرَض جزء كبير منها في المعرض تحت الزجاج، وحتى لا تتلاشى بسهولة، يتم مراجعة الصفحات المعروضة بشكلٍ هوسي. في إحدى الرسائل، يعترف غارسيا ماركيز بأنّه سئم من العمل «مثل الحيوان»، وأنّ «أصعب شيء- بالتأكيد- هو كتابة الفقرة الأولى».
وتشمل المفاجآت الأخرى آلة «سميث- كورونا كورونماتيك 2200»، وقد اعتمد غابو الآلات الكاتبة الكهربائية بمجرَّد أن أصبحت متاحة - و آبل ماكنتوش IIex. قال- ذات مرة- في مقابلة: «كان يجب أن أستخدم أوّل كمبيوتر يُعرض للبيع». وترى سانتانا أكونيا أنّ هذا ما حصل بالفعل تقريباً: عندما يتعلّق الأمر بالحبّ في زمن الكوليرا، «ربَّما يكون من بين الأعمال الأولى المكتوبة بالكامل على جهاز كمبيوتر (إن لم يكن أوّل عمل بالفعل)».
وعلى غرار العديد من المعروضات في مركز هاري رانسوم، تتوهَّج هذه الآلات النفعية والنادرة في هالة عجيبة من استخداماتها القديمة ومالكها السابق. إذا كنت سأستخدم الكورونا ماتيك اليوم، وجدت نفسي أتساءل وأنا واقف بجانبه، هل سيساعدني ذلك في إنتاج «خريف آخر للبطريرك»؟
ولكن ربَّما العنصر الأكثر إثارة للاهتمام رسالة من مجلّة «The New Yorker»، كتبها روجر أنجيل في يوليو/تموز 1981، وهي ضمن المراسلات المألوفة للعديد من الكُتَّاب شأنها شأن كمبيوتر آبل، وجاء فيها: «يؤسفنا إبلاغكم قرارنا بعدم نشر قصتك الجديدة». ورغم أنّ قصتك السابقة «أثر دمك على الثلج» قد أشعّت بومضات من «إبداعكم المعتاد»، فإنّ هذه الأخيرة «لا تدفع القارئ تماماً إلى القبول بمفهومك الجريء والجميل».
ويخلص أنجيل إلى القول: «إنّنا نتطلَّع، بتوقّعات غير منقوصة، إلى متعة الاطلاع على المزيد من أعمالك في المستقبل القريب». إذا كان هناك إعلاماً بالرفض أكثر جمالاً وخجلاً من هذا الذي قرأته، إلى أي شخص آخر، فأنا لم أره بعد.
وصلت رسالة اعتذار أنجيل إلى صندوق بريد غارسيا ماركيز 18 شهراً- فقط- قبل الإعلان عن جائزة نوبل. وهناك شيء مريح بخصوص هذه الحقيقة، حتى غابو، الذي باع 45 مليون نسخة من «مائة عام من العزلة»، والذي خلَّد اسمه كأسطورة الأدب في أميركا اللاتينية، قد مرّ بأيام عجاف، ربَّما هذا يُبقي لنا بعض الأمل حتى الآن.

■ **لانس ريتشاردسون** □ **ترجمة: عبدالله بن محمد**

المصدر: lithub.com 6 أبريل 2020
* كاتب سير ذاتية وروايات من أهمَّها «بيت المجنون: خياط المتمردين في شارع سافيل رو».

«المنصة»..

يليقُ بزمنِ الكورونا

بمتابعة الحركة السينمائيّة في العالم مؤخراً نلاحظ صعوداً في عدد الأفلام المُنشغلة بالقضيّة الطبقيّة وخلل توزيع الثروة، وهي مسائل لم تبتعد أبداً عن اهتمام الفنّانين، لكنها في العام الأخير أكثر تكثيفاً على المستوى السينمائي، ظهر ذلك بمجموعة من أهم أفلام العام الماضي، آخرها الفيلم الإسبانيّ The Platform، الذي نال عروضه الأولى بمهرجان تورنتو 2019 قبل أن تخطفه نتفليكس ليكون محظوظاً بالعرض على منصَّتها الإلكترونيّة بالتزامن مع جائحة كورونا، فضمنت له المنصَّة وسيلةً للعرض في وقتٍ حُرِمَ الكثير من الأفلام من ذلك.

«المنصة» فيلم للمُخرج «جالدر جاتزيلو» في أول أفلامه الطويلة، وهو من نوعيّة دراما المكان الواحد، يقع في عالم كابوسيّ شكلاً وموضوعاً، الأحداث تدور في زمنٍ مجهول يبدو أقرب للمستقبل، بداخل سجن يُسمَّى بالمنصةً، سجن يُدار بواسطة جهةٍ غامضة تُسمَّى «الإدارة»، تمَّ تشييده رأسيّاً ليشتمل على عشرات الطوابق (نعرف في النهاية أنها 333 طابقاً)، كلّ طابق منها يضم مسجونين فقط يتم اختيارهما بشكلٍ عشوائيّ ليتقاسما الطابق، وبعد أيام ينتقلان آنيّاً، وبنفس العشوائيّة إلى طابقٍ مختلف، أسفل مرّة وأعلى مرّة أخرى.

لا توجد وسيلة غذائيّة سوى الحفرة التي تتوسط كلّ طابق، حيث يتخللها سطحٌ حجريٌّ يمر هبوطاً من الطوابق العليا إلى الطوابق السفلى، محتوياً على مائدة متنوّعة من أصناف الطعام الشهية يتمُّ تحضيرها بواسطة أمهر الطباخين مرّةً واحدةً يومياً، والمفترض أن تطعم تلك المائدة مئات المساجين بحسب مواقعهم في المبنى، تلك المائدة تستقر في كلّ طابق لمدة دقيقتين، بطبيعة الحال مَنْ هو في الطابق الأعلى تُتاح أمامه كلّ الأصناف بحالتها الفاخرة، وكلما انحدرت المائدة إلى الأسفل استُهلك ما بها من طعام كمّاً وكيفاً، ولم يتبقَ لمَنْ هم أبعد من الطابق الـ50 إلّاً الفتات أو لا شيء على الإطلاق.

ويسهل تتبُّع الرموز في هذا البناء الأولي، فالمنصة هي المنظومة الرأسماليّة، والطعام هو الثروة، والإدارة هي ممثل السُّلطة والنظام، والسجناء هم المجتمع بأطيافه وطبقاته، مَنْ هم بالطوابق العليا هم الفئة المخملية، وخاصّة ساكني الطابق الأول، حيث يحضَّر لهم الطعام الفاخر خصيصاً، ويكونون اليد الأولى باستهلاكه كاملاً مكتملاً نظيفاً، بينما الطوابق الوسطى فهم الطبقة المتوسطة التي امتلكت من الثروة ما يضمن بقاءها وحسب، أمّا الطوابق السفلية فهؤلاء الفقراء الذين أخرجهم الشُحُّ عن إطار التحضُّر، وأصبحوا بنقص الموارد يأكلون بعضهم البعض.

الفيلم، برغم كونه ليس عن فيروس كورونا، حيث صُنِعَ قبل الجائحة بأشهرٍ عِدّة، لكنه عن العالم الذي سقط قناعه بعد تلك الجائحة، بحسب أحد شخصيات الفيلم، فالطعام الذي تحضِّره «الإدارة» يمكن أن يكفي جميع النزلاء بشرط إذا اكتفى كلّ نزيل بالحصة التي يحتاجها وترك غيره يأكل حصته، لكن في عالم مصمَّم بهذه الهيراركية والإيهام بالندرة فلا مكان لمفهوم القناعة.

هذه المنظومة الباعثة على الأنانيّة تنطبق يوميّاً في عالمنا الرأسماليّ بشكلٍ أو بآخر، ذلك وهو في حالته الطبيعيّة، لكننا لمسناها بشكلٍ مباشر عندما تعرَّض هذا العالم لظرف الكورونا بمجرَّد الشعور بالخطر، لمسناها في الهرولة إلى الأسواق للتبضُّع الهيستيريّ وتفريغ الأرفف من السلع تحت أثر الفزع، إنْ لم نفعل ذلك فقد لا نجد تلك السلع مرّةً أخرى، لمسناها أيضاً على مستوى أكبر من خلال أخبارٍ انتشرت عن دولٍ كبرى قامت بالسطو على شحنات موردَّة من المعدات الطبيّة للاستفادة منها أثناء مرور تلك الشحنات بأراضيهم، لمسنا نفس صلف «الإدارة» وهي تراهن على مبدأ البقاء للأكثر قدرة على تحمُّل الجوع، والذي يعتبر مقابلاً سينمائيّاً لبيانات ألقاها ساسة وقادة عالميّون راهنوا كذلك- في البداية- على مبدأ البقاء للأقوى مناعةً ضد الفيروس.

من الدقائق الأولى للأحداث يقفز للذهن الفيلم الكوري الجنوبي Parasite لبونج جون هو، والذي جمع بين (الأوسكار) هذا العام و(سعفة كانّ الذهبيّة) في العام الماضي، والفيلمان يجمعهما نفس الهَمّ الاجتماعيّ ويتبعان الأسلوب الرمزيّ في التعبير عن القضيّة الطبقيّة، والأهم أن الفيلمين يركزان في رؤيتهما على فكرة فرعيّة بعينها، وهي أن الصِّراع الطبقيّ في جوهره صراعٌ دائريٌّ، وليس مواجهة بين طرفين.

هذه الفكرة تتحقّق في «Parasite» عندما نفاجأ بعائلة فقيرة تتطفَّل على العائلة المتوسطة التي كانت بدورها تتطفَّل على

العائلة الأغنى، وفي «The Platform» المعنى متحقِّق بوسيلة التغيير العشوائيّ لطوابق السجناء، مَنْ هم في الطابق الـ 100 اليوم سيكونون في الطابق الأول ربما بعد أيام، وقد يذهبون بعدها إلى الطابق الـ 200، وهنا هجاء للرأسماليّة على مستويين: الأول هو اعتبار عامل الحظ سابقاً لعامل الجهد في طريق تحقيق الثروة، ومن ثَمَّ فالنظام غير عادل. أمّا الثاني فهو أقرب إلى سؤال قِيل على لسان أحد شخصيّات الفيلم، هل تجربة أحدهم في طوابق البؤس السفليّة علّمته التعاطف مع الآخرين حين يأتي دوره في الترقّي؟ والإجابة كانت دائماً بلا.

هذا ما يجمع «The Platform» و«Parasite» وأفلاماً أخرى نافست على جوائز العام الماضي، مثل «Joker» لتود فيليبس، الذي حصد أسد مهرجان فينيسيا الذهبي، وهناك «US» لجوردان بيل، و«Hustlers» للورين سكافاريا، وكلّها أفلام تدور حول نفس الرسالة: «إلى هنا أوصلتنا الرأسماليّة». الفنّانون يساريون الهوى بطبعهم، ما تغيَّر في الأفلام السابقة أن جميعها اتفق على توجيه أسهم الاتهام للمنظومة دون اختزالها في شخص كما كان يحدث في السابق، لا يوجد إقطاعيٌّ شرير بعينه، أو جهة محدَّدة تسبَّبت في الفروقات الاجتماعيّة غير العادلة بين البشر، بقدر ما هي سيرورة، الجميع فيها مشاركون بأدوارٍ سائلة متحوِّرة.

بطل الفيلم نفسه «جورينج»، وهو شخصٌ يبدأ مثالياً، مثقَّف انضمَّ للمنصة بغرض نيل شهادة دبلومة، واختار أن يصطحب معه رواية «دون خيشوت» حيث ظلَّ يقرأ مقاطع منها طوال الأحداث، ووراء اختيار تلك الرواية تحديداً معنى، فنحن أمام شخص يريد أن يكون بطلاً في قصته، مجذوباً بنزعة تفوُّق أخلاقيّ زائفة، رغبتُه في أن يثبت الأشياء لنفسه وللآخرين (الشهادة) تسبق رغبته المزعومة في التغيير، يريد أن يحمل رسالة لا تحتاج حقّاً إلى حامل، وهكذا لا تصمد مبادئه طويلاً أمام ظروف «المنصة» ويتأقلم بالتدريج عليها، وحين يقرِّر التغيير يفعلها باستخدام العنف فيتشابه وأعداؤه.

وفي السياق نفسه، زرع مؤلِّفو الفيلم تفصيلة ذكيّة تتمثَّل في السؤال الذي توجِّهه الإدارة لكلّ نزيل عن أكلته المُفضَّلة قبل دخوله المنصة، حيث تقوم بتحضير تلك الأكلة وتضمينها داخل المائدة الكبيرة كي تسهِّل مبدأ التكافل إذا اكتفى كلّ نزيل بأكل وجبته المُفضَّلة بدلاً من التهام أيما تقع عليه يداه بطاقة الجشع فإن هذا سيضمن أن يأكل الجميع، لكن الواقع أن لا أحد منهم يلاحظ تلك الوجبة، بمَنْ فيهم جورينج نفسه، الذي يقوم بالربط لاحقاً بين هذا السؤال والمعنى المفقود من ورائه.

رغم تشاؤمه المُفرط، ترى عدسة الفيلم بعض الضوء في نهاية النفق، متمثّلاً في الأجيال الجديدة، بما أن تلوُّث المنظومة نال من الكبار جميعاً، فلو أن هناك رسالة فهي للأجيال اللاحقة بألّا تذهبوا بالعالم لنفس المصير.

هذا واحدٌ من الأفلام التي تستخدم الرمزيّة ليس من باب التذاكي على المُتفرِّج، بل كأداة تعبيريّة واستثماراً للخيال المُوسع بفضل تلك الرمزيّة. سيناريو يحمل فكرة مبتكرة مرتبطة بتعليقٍ أيديولوجيّ متماسك، وإخراج استعار بعض المرجعيات في بناء عالمه الخياليّ بصريّاً ودراميّاً من أفلام هنا وهناك، مثل «Saw» و«The Cube» و«Snowpiercer» و«1984»، لكنه وظَّف تلك الأدوات لخدمة مورال جاد وأصيل. أجزاء من فصول الفيلم تأثرت سلباً بكثرة الشرح لقواعد هذا العالم الخياليّ على لسان الشخصيّات بدلاً من مواقعتها بالصورة والحدث، وهو عيبٌ متكرِّر في التجارُب الإخراجيّة الأولى بصفةٍ عامّة، لكن هذا يسهِّل التغاضي عنه مقابل الناتج النهائي الذي وصل إليه الفيلم... حاول أن يجعلنا نرى الوجه الحقيقيّ للبشريّة في ظلِّ منظومةٍ باعثة على الأنانيّة، وقد نجح في ذلك، حِرفيّاً وفنيّاً. ■ **أمجد جمال**

الأندلس في المخيال الجماعيّ الإسبانيّ

تحوُّلات في سياقات دوليّة

بعد تجاوز مرحلة الدهشة أو الصدمة، كان لابدّ من الانتباه إلى خطورة مستوى الجهل الفظيع الذي ظلّ يحيط بفهم الغرب لنظيمة الإيمان والسلوك والفعل الذي تنتجه العقيدة الإسلاميّة، وهو الفهم الذي لم يتجاوز- في الغالِب الأعمّ- سقف الكتابات الاستشراقيّة المُتوارثة، ولا أبعاد الكتابات التنميطية الجاهزة والسريعة التي يفرزها تنامي المد الإسلاموفوبي بالغرب.

إذا كان انهيار الاتحاد السوفياتي ومعه المنظومة الاشتراكيّة عند نهاية القرن الماضي قد خلق حالة من الدهشة أثارت عودة جماعيّة نحو طرح التساؤلات الثقافيّة حول حقيقة ما جرى، وحول استشرافاته المستقبليّة الضاغطة، فإن الأمر سرعان ما اتخذ صبغة تجديديّة مسترسلة. لم يكن أحد يتوقَّع بروز فاعلين «جدد» على الساحة الدوليّة، قادرين على دفع الغرب نحو إعادة تقييم مسلّماته بخصوص «النقيض الحقيقي». وكانت صدمة الهجوم على برجي التجارة العالمية يوم 11 سبتمبر/أيلول من سنة 2001 حدثاً مفصلياً دفع في اتجاه طرح الأسئلة الحقيقيّة والمغيبة داخل بنية النظام العالمي الجديد الذي بشّر به الرئيس الأميركي جورج بوش الأب. ومع توالي الأحداث، وخاصّة مع تحوُّل ظاهرة الإرهاب إلى منظومة معولمة لإنتاج آلة القتل الأعمى بشكلٍ يتجاوز كلّ الحدود الجغرافيّة وكلّ النظم التشريعية وكلّ الأعراف الأخلاقية وكلّ الأحكام السماوية، اتضح أن الغرب لن يهنأ بنشوة النصر على المعسكر الاشتراكي، مادامت القوى الإسلاميّة الصاعدة قد أعلنتها حرباً مفتوحة في شكل جبهة ضد ظلم العلاقات الدوليّة وضد تزايد الشرخ في هذه العلاقات وضد نزوعات تحويل العرب والمسلمين إلى «هنود حمر القرن 21».

لقد دفعت هذه المسارات بالباحثين الغربيين إلى العودة لقراءة الظاهرة في أصولها النظريّة والعقديّة والسلوكيّة الإسلاميّة الخالصة. وبعد تجاوز مرحلة الدهشة أو الصدمة، كان لابدّ من الانتباه إلى خطورة مستوى الجهل الفظيع الذي ظلّ يحيط بفهم الغرب لنظيمة الإيمان والسلوك والفعل الذي تنتجه العقيدة الإسلامية، وهو الفهم الذي لم يتجاوز- في الغالب الأعمّ- سقف الكتابات الاستشراقيّة المتوارثة، ولا أبعاد الكتابات التنميطية الجاهزة والسريعة التي يفرزها تنامي المد الإسلاموفوبي بالغرب. وبما أن أفق هذه التوجُّهات المستنسخة في قراءة خصائص تجربة الإسلام الحركي ظلّ منغلقاً على ذاته ومطمئناً ليقينياته، فقد بدا واضحاً أن التوجُّه سينحو نحو وضع قواعد بديلة لدراسة الظاهرة، من خلال بروز مراكز بحثية متخصِّصة، ثم من خلال توجيه البحث الأكاديمي المُتحرِّر من ضغط إكراهات الفعل السياسيّ اللحظي المُباشر، نحو بلورة رؤى علميّة، نزيهة، ومجدّدة في آليات بحثها، من أجل فهم حقيقة ما جرى/ وما يجري من أشكال التدافع غير المُتحكَّم فيه بخصوص ظاهرة الإسلام الحركي وامتدادات «بقعة الزيت» المُرتبطة به، ليس فقط بإفريقيا وبآسيا، ولكن- كذلك- بمختلف جهات العالم، وتحديداً بدول أميركا الشمالية وأوروبا الغربية.

وفي إسبانيا، ظلّ الحضور العربيّ قوياً في اهتمامات النخب والهيئات والفاعلين السياسيين ودوائر صُنع القرار، وبدأت العودة الجماعيّة نحو إعادة قراءة التراث العربيّ الإسلاميّ المُؤطر لنظيمة السلوك وللموقف الراهن بالبلاد العربيّة، كمدخل لاستيعاب طبيعة التحوُّلات التي أعادت طرح قضايا الإسلام، والإسلام السياسيّ في نصوصه المؤسّسة، بعد أن جعلت منه مشروعاً غير قابل للتأجيل. وإذا كان موضوع الحضور الأندلسي والموريسكي قد حظي بالكثير من عناصر الاهتمام والبحث والتوثيق داخل الجامعات العربيّة ولدى قطاعات واسعة من المُهتمين والباحثين والمُثقَّفين والمُبدعين العرب، ساهم في إنتاج رصيدٍ ثري من المُنجزات العلميّة المؤسّسة، فإن الأمر قد عرف مساراً شبيهاً بالضفة الإسبانيّة، مع انبثاق توجُّهات الاستعراب الإسبانيّ ومدارسه المُتنوِّعة. لقد أدركت إسبانيا المُعاصِرة أن التحرُّر من عبء وصية إيسابيلا الكاثوليكية يظلّ أمراً مدخلياً للتخلّص من اليوتوبيات المُرتبطة بعهود مراحل الغزو الإيبيري للقرنين 15 و16 الميلاديين. كما اقتنع الباحثون أن سقوط غرناطة سنة 1492م في يد الإسبان، وما تبعه من طرد للمسلمين ولليهود نحو الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط في ظروف غير إنسانية أطّرتها جرائم محاكم التفتيش الكاثوليكية، لم تعمل إلّا على بتر مكوِّن مُهمّ من المُكوِّنات الناظمة لبنية الإبداع

ظلّ الحضور العربيّ قوياً في اهتمامات النخب والهيئات والفاعلين السياسيين ودوائر صُنع القرار، وبدأت العودة الجماعيّة نحو إعادة قراءة التراث العربيّ الإسلاميّ المُؤطر لنظيمة السلوك وللموقف الراهن بالبلاد العربيّة، كمدخل لاستيعاب طبيعة التحوُّلات التي أعادت طرح قضايا الإسلام

الإيبيري في بعده الإنسانيّ الواسع. فكانت النتيجة، بداية تنظيم هذه العودة الجماعيّة لصيانة ذاكرة إسبانيا «الأخرى»، إسبانيا التعدُّد والتسامح والتعايش، وقبل ذلك، إسبانيا الإبداع والتميُّز الحضاري بين أمم أوروبا. ومع تزايد الوعي بهذا المنحى الاستنهاضي الواسع، بدأت مدارس البحث الاستعرابي تتناسل، وبدأت ملامح العودة لإعادة تقييم التراث العلميّ والإنسانيّ العربيّ لإسبانيا تتكاثر. وكان لابدّ أن ينتبه باحثو الضفة الجنوبية بالعالم العربيّ لهذا المخاض، عبر تجاوز نظرة الانبهار والتماهي مع تراث الأجداد، إلى مستوى التعامل النقديّ والتقييم التأصيليّ والتفكيك العلمي الكفيل بإعادة الاعتبار لعناصر الانتماء الحضاريّ المُشترك للشعبين الإسبانيّ والعربيّ.

في هذا الإطار، يقول الأستاذان محمد القاضي ومحمد العمارتي في دراسة حديثة: «لا يمكن إنكار الجهود الكبرى التي بذلها الاستشراق والاستعراب الإسبانيان في دراستهما للتراث العربيّ المشرقي منه والأندلسي، كما لا يمكن تجاهل أو إغفال تأثيرات الاستعراب الإسباني القوية والكبرى في مجال النهوض بالدراسات الأندلسية وإسهامات علمائه في ذلك، وهي جهود لا يجوز التقليل من قيمتها وأهميتها، وبالتالي فإننا نجد أن هذا المبحث العلمي الرفيع يفرض نفسه علينا ويتطلّب منّا وقفة، بل وقفات تأمّلية جادة لدراسته وبيان أبعاده ورسالته، وبالتالي فإن العناية بهذا اللون الرفيع من المعرفة الإنسانية التي أنتجها الدارسون الإسبان لها ما يبرّرها، ذلك أنه لم يعد في وسع، أو في إمكان أحد، أن يكتب عن موضوع الأندلس أو يدرس مباحثه أو يمارس فعلاً مرتبطاً به، دون أن يتخلّص من التأثير الذي فرضه الاستعراب الإسبانيّ في مباحث الأندلسيات على وجه الخصوص. وفي إسبانيا اليوم مثلاً لا يكاد يجد المرءُ جامعة أو مؤسَّسة علميّة إلّا وفيها جناح لتعليم اللّغة العربيّة وثقافتها وميراثها الحضاري، خصوصا الأندلسي منه...». (الدراسات العربيّة بإسبانيا، 2019، ص 8 - 9).

إنه ميراث إسبانيّ قبل أن يكون عربيّاً، ميراث إيبيري قبل أن يكون إسلاميّاً، ميراث مغربي أصيل قبل أن يكون إسبانيّاً خالصاً، يجد تعبيراته المختلفة في المخيال الجماعيّ لإسبان الأمس واليوم. ونتيجة لذلك، ظهرت «فورة الاستعراب الإسبانيّ» مستثمرة رصيد التراكم العلميّ الذي تمَّ تحقيقه هناك بالضفة الإسبانيّة، في مقابل الخصاص البيّن الذي لازال يعتري الضفة العربيّة، على الرغم من أهمِّية خبايا ماضي إسبانيا الإسلامي في إطار أجواء التعايش التي جمعت مختلف الإثنيات والديانات والثقافات على امتداد القرون الثمانية الطويلة للوجود الإسلاميّ بالأندلس. ويكفي أن نستدل بهذا الخصوص، بالأدوار المعرفيّة الكبرى التي قامت بها مدينة طليطلة بعد سقوطها في يد الإسبان، على مستوى ترجمة أمهات مصادر التراث العربيّ الإسلاميّ واليونانيّ الإغريقيّ، خاصّة مع الدور الكبير الذي كان للملك ألفونسو العاشر، المُلقّب بالملك العالم، في مجال تشجيع حركة الترجمة وإضفاء بُعد مؤسَّساتيّ واسع عليها. لذلك، طغت على السطح أسماء وازنة تحوَّلت لمدارس ولمراكز بحثيّة مجسّدة في سِير روّاد الدراسات الاستشراقيّة، ثم الدراسات الاستعرابيّة، ممَنْ كان لهم دورهم في إعادة احتضان عناصر البُعد العربيّ الإسلاميّ داخل نسق الهويّة الثقافيّة لإسبانيا المُعاصِرة، من أمثال خوان أندريس، وخوصي أنطونيو كوندي، وميغيل آسين بلاثيوس، والأب مانويل ألونسو، وأمبروسيو هويثي ميريندا، وفرناندو دي أغريدا بوريو، وخوان غويتسولو، وكارمن رويث برابو، وفيليبي مايو سالكادو...

هي أسماء ودراسات تتيح لإسبان اليوم فرص إعادة اكتشاف عطاء «نصفهم المنسي»، كما أنها تُقدِّم الأدوات الضرورية لفهم منغلقات الهويّة الثقافيّة الإسبانيّة المُركّبة. ولا شكّ في أن انفتاح العرب والمسلمين على نتائج الدراسات الاستعرابيّة الإسبانيّة المُجددة، سيقدِّم مداخل تأصيليّة لجهود تجاوز مختلف أنماط التنافر المُرتبط بوضعية سوء الفهم المُتبادل بين مجتمعات الضفتين الإيبيريّة والعربيّة. ■ **أسامة الزكاري**

حيث تذهب البضائع يتبعُها الوباء

الطاعون الكبير في مرسيليا

كان يجب على «مونتيسكيو» أن يولي اهتماماً أكبر للعلاقة بين التجارة والعدوى- حيث تذهب البضائع، يتبعُها المرض- لأنه عندما كان شاباً عاش آخر تفشٍ كبيرٍ للطاعون في قارة أوروبا؛ تحديداً في «مرسيليا» عام 1720.

كان «مونتيسكيو Montesquieu» من أكثر الدعاة المُؤثّرين في عقيدة (التجارة اللطيفة). يُصرّح بذلك في كتابه «روح القوانين»[1]، حيث يقول «إنها قاعدة عامّة تقريباً؛ إنه حيثما تكون معاملات الرجال لطيفة، توجد التجارة، وحيثما كانت هناك تجارة، فإن معاملات الرجال تكون لطيفة». عندما كتب الاقتصاديّ «ألبرت هيرشمان Albert Hirschman» عن أن المُفكِّرين في القرنين السابع عشر والثامن عشر يقترحون السعي وراء المصالح المادية كوسيلة للتغلب على نزعة البشريّة للذهاب إلى الحرب، تجاهل مواقفهم العمياء: فشلوا في رؤية أن التجارة لم تكن دائماً لطيفة كما زعموا. كان ينبغي أن يخفّف تفاؤلهم من الضرر الذي أحدثته التجارة بشكلٍ واضح في الاستعمار العدوانيّ والأزمات الاقتصاديّة، والضرر الذي تسبّبه الأوبئة. بين يونيو/حزيران وأكتوبر/تشرين الأول 1720، وعندما كان «تشارلز دي سيكوندات» و«بارون دي مونتيسكيو» يبلغان من العُمر 31 عاماً، قتل الطاعون ثلث سكّان مرسيليا، نصف سكّان طولون، وقتل ما يتراوح بين 90 و120 ألفاً من سكّان بروفانس البالغ عددهم وقتئذٍ 400 ألف نسمة. كيف يمكن لمونتيسكيو وزملائه تجاهل حقيقة أن التجارة جاءت بكوارثها الخاصة؟

لكي نكون مُنصفين، لم يتجاهلوها تماماً. ففي رسائله الفارسية[2]، التي كُتبت خلال الطاعون ونُشرت في العام التالي، يذكر جائحة سابقة، ربَّما الموت الأسود بين عامي 1347، 1349 الذي قضى على ثلث سكّان أوروبا: «أكثر الأمراض عاراً ظهرت في أوروبا، وآسيا، وإفريقيا؛ ففي وقتٍ قصيرٍ للغاية كان لها تأثيرٌ لا يصدَّق، وإذا كانت قد واصلت تقدُّمها بنفس الغضب، لانتهى الجنس البشريّ». لقد أدرك، على أقلّ تقدير، أن أسوأ نتيجة قد تكون انقراض البشريّة.

كان طاعون مرسيليا الكبير عام 1720 أكثر محدودية في انتشاره من الموت الأسود، ولكن بنفس الأهمِّية في تاريخ الأوبئة. بدأ الأمر بوفاة تسعة من طاقم السفينة التجارية الكبرى «سانت أنطوان»، في رحلة عودتها من بلاد الشام (سورية، ولبنان، وفلسطين). تمَّ رفض دخولها مرسيليا في 25 مايو/أيار 1720.

حدث آخر تفشٍ كبيرٍ للطاعون الدبلي في الغرب في مرسيليا، فرنسا في عام 1720 بواسطة هذه السفينة ذات الصواري الثلاث التي بُنيت في هولندا. يمكن استعادة ذلك التاريخ، الموجود بشكلٍ خاصّ في ثقافة مرسيليا، بفضل وثائق الأرشيف العديدة. غادرت سانت أنطوان ميناء مرسيليا في 22 يوليو/تموز 1719 إلى سورية، على الرغم من أن الطاعون كان مُستعراً في البلاد. في 3 أبريل/نيسان 1720، توفي راكب تركي في طرابلس... في طريق العودة، تفقد السفينة سبعة بحارة وطبيباً جرَّاحاً على التوالي. ثم مرض بحار ثامن قبل وصوله بوقتٍ قصيرٍ إلى ليفورنو، حيث أهمل الأطباء الإيطاليون احتجاز السفينة.

أنطوان جروس: نابليون يزور مرضى الطاعون في يافا 1832م ▲

ميشيل سيريه (1658 - 1733): جائحة الطاعون في مرسيليا (1720) ▲

بعد حرق السفينة سانت أنطوان قال قبطانها «جان بابتيست شاتو» في خطابه: «أنا أعرف كَمّ المعاناة والموت اللذين مَرَّ بهما آلاف الناس، لكن هل أتحمَّل ذلك الخطأ وحدي؟ ما ذنبي؟ ألَمْ أقُمْ، فقط، بمُهمّتي بطريقةٍ مناسبة؟».

ربَّما يكون شاتو قد رسا بمركبه الشراعيّ فجأة، بالقرب من مرسيليا، ومنع، في سرِّية، أصحاب السفن أن يسلموا بضائعهم قبل بدء معرض بوكير. كان نائب عمدة مرسيليا «جان باتيست إستيل» يملك جزءاً من البضائع التي تستحق ثروة. عندئذٍ، يقوم الملّاك بإجراء اتصالاتهم لتجنُّب الحَجْر الصِّحيّ بشهادة صحيّة تنص على أن كلَّ شيء على ما يُرام. سلطات مدينة ليفورنو، التي لم ترغب في إحداث فوضى بالسفينة، لم تعرقل إصدار مثل هذه الشهادة. وصلت سانت أنطوان إلى مرسيليا في 25 مايو/أيار، وقد استقرّت بالقرب من جزيرة «بوميجو» قبالة مرسيليا حتى 4 يونيو/حزيران، ثم سُمِحَ لها بالاقتراب من مستشفيات الحَجْر الصِّحيّ بميناء «آرنيك» لتفريغ الركاب، ومن ثمّ تمَّ وضعهم في الحَجْر الصِّحيّ في جزيرة «جير» في 27 يونيو/حزيران من نفس العام. أمر فيليب الثاني[3] دوق أورليانز في 28 يوليو/تموز بحرق السفينة وحمولتها، لكن تنفيذ هذا الأمر لم يتم إلّا في 26 سبتمبر/أيلول 1720. تسبَّب الطاعون الكبير في مرسيليا في وفاة ما يقرب من 100 ألف شخص؛ أي ما يقارب ربع سكّان بروفانس. ومرسيليا مثل ذلك؛ هلك ما يقرب من نصف سكّانها بسبب الطاعون، حدث ذلك في الفترة بين وقت رسوّ السفينة وربيع عام 1722.

تعرَّضت مرسيليا للأوبئة منذ آلاف السنين، بما في ذلك الطاعون والكوليرا والحمَّى الصفراء. وقد منح هذا التعرُّض الطويل الأمد للأوبئة سكّان مرسيليا خبرةً خاصّة في مكافحة الأوبئة. تمَّ إنشاء حجرات للعزل، وتدابير الحَجْر الصِّحيّ الأخرى كاستجابةٍ لمنع تزايد انتشار المرض في المجتمع. يمهِّد المعهد الجامعيّ الطريق لإعادة استكشاف عدوى البحر الأبيض المتوسط، حيث استندت استجاباته إلى تاريخ المنطقة الطويل ومعرفتها بالأوبئة والأمراض المعدية والأحياء الطبيّة الدقيقة. كان ميناء مرسيليا، منذ عام 600 قبل الميلاد، مفتوحاً على حوض البحر الأبيض المتوسط بأكمله، ونتيجة لذلك تعرَّضت المدينة لأوبئة من الشرق والجنوب خلال تاريخها الطويل، واكتسبت بذلك خبرةً نادرة في التشخيص والوقاية ومكافحة الأوبئة. تحدَّد هذا بالإنشاء المُبكِّر لمرافق الحَجْر الصِّحيّ والمستشفيات المُتخصِّصة في الأمراض المُعدية، ومن هذا المنظور التاريخيّ تمَّ افتتاح معهد مستشفى جامعة مرسيليا، رسميّاً عام 2017، وهو مؤسَّسة مكرَّسة بالكامل للأمراض المُعدية والمدارية.

وتستند معرفة الأوبئة، التي يبلغ عمرها ألفي عام في حوض البحر الأبيض المتوسط، إلى دراسات أنثروبولوجيّة وتاريخيّة ودراسات في علم الأحياء القديم مع منظور متعدِّد التخصُّصات. كشف علماء الآثار وعلماء الأنثروبولوجيا عن العديد من المدافن المُتعدِّدة في هذه المنطقة، والتي لم يجدوا في رفات أصحابها أي علاماتٍ للعنف أو التعذيب مما يشير إلى حدوث وباء. كشف مختبر الأنثروبولوجيا الحيويّة في مرسيليا عن العديد من القبور الجماعيّة المُرتبطة بوباء الطاعون الذي اجتاح مرسيليا وبروفانس خلال الفترة من 1720 - 1722،

حيث جعلت الدراسات الأثرية والأنثروبولوجية- بالإضافة إلى تحليل المصادر التاريخيّة- من الممكن تحديد تاريخ هذه القبور الجماعيّة بدقة، وبالتالي تمكين علماء الأنثروبولوجيا من تقديم عيّنات عالية الجودة لدراسات علم الأحياء القديمة.

تمَّ تسجيل أقدم الأوبئة المعروفة في أوروبا من قِبَل المُؤرِّخ اليونانيّ «ثيوسيديدس» في أثينا عام 426 قبل الميلاد، و«سوفوكليس» عام 429 قبل الميلاد، الذي وصف في مأساته «أوديب الملك» وباءً مُعاصِراً في مدينة طيبة المصريّة. أمّا بالنسبة للأوبئة في أثينا، فقد كشفت دراسات في علوم الأحياء القديمة عن السالمونيلا المعويّة- حمى التيفوئيد- لكن هذه المُسببات لا تزال مثيرة للجدل. خلال طاعون الإمبراطور «جستنيان»، عام 542م، وصف المُؤرِّخ البيزنطيّ «بروكوبيوس» مقتل عشرة آلاف شخص يومياً في القسطنطينية، وأعطى إفاغريوس أصلاً إفريقيّاً للوباء الذي وصل إلى «أرض الغال»[4] عبر مرسيليا. خلال الموت الأسود، الذي بدأ عام 1347، أعطانا «دي تشولياك» تاريخاً مليئاً بالدروس حول أعراض الطاعون وتوطن مرض الالتهاب العُقدي للغدد الليمفاوية (بوبو)، والعلاجات الوقائية التي استخدمها أطباء العصور الوسطى. بالإضافة إلى تقارير المُؤرِّخين والأطباء، هناك مصادر أخرى لدراسة الأمراض الوبائية القديمة، مثل الوثائق الإدارية والأرشيف البحري والأدب الشعبيّ. في عام 1349، بدأ الإيطاليّ «جيوفاني بوكاتشيو» في كتابة «الديكاميرون»، وذلك بعد عام واحد من تأثر فلورنسا بالموت الأسود. كتب يقول: «على الرغم من أن المقابر كانت ممتلئة، فقد أُجبِروا على حفر خنادق ضخمة، حيث دفنوا الجثث بالمئات. هنا تمَّ تكديسهم مثل البالات على متن سفينة، ومن ثمَّ أهالوا عليهم القليل من تراب الأرض حتى امتلأت الخنادق عن آخرها. هذا الوصف الواقعيّ يمكن اعتباره مصدراً معرفيّاً حقيقيّاً للمُؤرِّخين. وفي الآونة الأخيرة، وصفت رواية الطاعون، التي كتبها الفرنسي الحائز على جائزة نوبل «ألبير كامو»، تفشي وباء الطاعون عام 1944 في وهران (خمس حالات)، والجزائر العاصمة (62 حالة).

تُعَدُّ الأعمال التصويرية والنحتية مصدراً من مصادر معرفة الأوبئة القديمة. ففي مرسيليا مثلاً، تمَّ رسم اللوحات الأكثر تميُّزاً خلال وباء مرسيليا العظيم من قِبَل شاهد مُباشِر للأحداث، هو «ميشيل سير Michel Serre». ثمَّة أعمال فنيّة أخرى أكثر دعاية في غرضها، لكنها لا تزال غنيّة بالمعلومات عن الأوبئة، خاصّة لأنها أثرت على الجيوش، بما في ذلك لوحة رسمها «أنطوان جروس Antoine Gros» بعنوان «بونابرت يزور ضحايا الطاعون في يافا». كما أنتج «هوراس فيرنت» لوحة بعنوان «الكوليرا على متن السفينة «ميلوبومين» بناء على طلب من إدارة مرسيليا الصِّحيّة. أبحرت ميلوبومين من بريست إلى الجزائر في يونيو/حزيران 1833. وأثناء الرحلة، بعد توقف في لشبونة، تمَّ الإعلان عن وباء الكوليرا على متنها. في غضون أيام قليلة توفي حوالي عشرين من طاقم السفينة ضحايا هذا المرض. كان على السفينة أن ترسو في ميناء طولون، وتبقى في الحَجْر الصِّحيّ. نجا 24 فقط من أفراد الطاقم. اختارت مدينة مرسيليا رساماً ملحمياً (هوراس فيرنت 1789 - 1863) لتخليد هذا الحدث

سفينة سان أنطوان ترسو على شواطئ مرسيليا ▲

المأساويّ في لوحةٍ كبيرة تهدف إلى تزيين مجلس غرفة العناية الصِّحيّة. تصف اللوحة ذلك المشهد بعناية، حيث يختبر طبيب السفينة نبضَ صبي الكابينة. الصبي، الذي يبدو مرعوباً، ينتظر حكم الطبيب. لدى الصبي سببٌ قويٌّ للخوف، حيث وصلت طريقة معالجة المصابين بالكوليرا إلى الإعدام. في الجزء الأماميّ من اللوحة، تظهر جثة بحار، ويبدو اليأس على أفراد الطاقم الآخرين. تمَّ تعليق لوحة فيرنت في غرفة اجتماعات إدارة حماية الصِّحة في مرسيليا كعلامة على الثقة في طريقة مكافحة السُّلطات الصِّحيّة لوباء الكوليرا، لكن ذلك لم يمنع المرض من ضرب مرسيليا بعد عام.

في عام 1996، تمَّ اكتشاف حطام سفينة القديس سانت أنطوان- تلك السفينة التجارية التي جلبت الطاعون إلى المدينة- في الرمال قبالة جزيرة «إيل جير» الصخرية، حيث تمَّ إحراقها وإغراقها. جرت خمسة مواسم من الحفريات تحت الماء على الحطام المدفون والمتفحم،

وبلغت تلك الحفريات ذروتها في سبتمبر/أيلول 2012، حيث تمَّ رفع مرساة السفينة التي تمَّ ترميمها الآن، لتشكّل محور معرض في المتحف الذي تمَّ تجديده حديثاً في مرسيليا. تابع ميشيل جوري، الذي قاد عمليات التنقيب، عمله خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً من البحث، ونشر في أبريل/نيسان 2013، سيرة قبطان السفينة جان بابتيست شاتو، والتي تحتوي على العديد من التفاصيل الجديدة للظروف المحيطة بتفشّي الطاعون. بعض النتائج التي توصل إليها ميشيل جوري يمكن استخلاصها من فيلم وثائقي تليفزيوني تحت عنوان «وباء 1720: هل تمَّ التضحية بمرسيليا؟»، الذي تمَّ بثه في ديسمبر/كانون الأول عام 2012 في سلسلة «ظل الشك» («L'ombre d'un doute»).

في 22 مايو/أيار 1722، وصلت سفينة سانت أنطوان، بعد رحلة استغرقت أكثر من 10 أشهر، عند مدخل ميناء مرسيليا مع شحنة من الأقطان الحريرية والحرير من بلاد الشام. لقد كانت رحلة صعبة- توفي ثمانية رجال على الطريق- وواجه الطاقم، بعد وصولها، الحَجْر الصِّحّي لمدة شهر. بعد البروتوكولات الصارمة الموضوعة؛ رست السفينة قبالة جزيرة «بوميجو» في فم المرفأ، ونزل القبطان لتقديم «الشهادة الصِّحيّة» لدى مكتب «سانتي» في البر الرئيسيّ. سمحت الشهادة التي تثبت سلامة السفينة وخلوها من الأوبئة بالتقدُّم إلى نقابة التمريض، وهي عبارة عن مَعْزَل صحيّ تمَّ إنشاؤه عام 1668، حيث يمكن تفريغ البضائع وبيعها في نهاية شهر الحَجْر الصِّحيّ. لو تمَّ وضع السفينة تحت الحراسة بسبب الطاعون، كانت ستُرغم على الرسوّ قبالة المعزل الصِّحيّ لجزيرة «إيل جير» وتدمير البضائع. كان الدافع الواضح هو حماية البضائع. وتمثل الشحنة، التي تبلغ 700 بالة من الحرير والقطن الناعم، ثروةً هائلة، تقدَّر بنحو 9 ملايين يورو، 300 ألف ليرة قياساً بقيمة النقد الآن. كان الوقت هو الجوهر إذا كان سيتم بيع المنسوجات في «معرض بوكير للسلع» في نهاية يوليو. لم يكن المالكون شخصيّات أقلّ من «جان بابتيست إستيل»، رئيس البلدية الذي كان قنصلاً في طرابلس قبل ذلك، ويعرف جيّداً المخاطر التي كان يديرها، كما كان أعضاء مكتب سانتي يعرفون. على الرغم من عدم وجود دليل مباشِر يدينهم أو يتهمهم بالتواطؤ إلّا أن ظهور رسالة أرشيفية تمَّ إرسالها إلى ريجنت أنهم كانوا على دراية جيِّدة بالطاعون الذي يجتاح فلسطين وسورية في هذا الوقت، وازدادت اجتماعاتهم المُنعقدة تواتراً نتيجة لذلك.

قبل وصوله إلى مرسيليا كان شاتو قد رسا في «بروسك» بالقرب من طولون، بالتأكيد ليستشير أصحاب المصالح التجاريّة ويأخذ النصيحة. تؤكِّد سبع رسائل في المحفوظات الوطنيّة أن رئيس البلدية و«الأطراف المعنية» الأخرى وصلوا فجراً، وكانوا في مؤتمرٍ سريّ مع قبطان سانت أنطوان لأكثر من ساعة. ونتيجة لذلك، عادت السفينة إلى ليفورنو في إيطاليا، حيث تمَّ قبول أن الوفيات كانوا مصابين بالحُمَّى، وبناءً على ذلك تمَّ إعطاء القبطان شهادة صحيّة نهائية نظيفة تماماً. لم تتم إدانة أحد بجلب الطاعون إلى مرسيليا. في 8 سبتمبر/أيلول، تمَّ سجن شاتو، بتهمة إخفاء وجود الطاعون على متن سفينته، وفي 25 سبتمبر/أيلول، برأه التحقيق، على الرغم من أنه ظلَّ محبوساً حتى أغسطس/آب 1723. بعيداً عن التورُّط، تمَّ رفع إستيل (رئيس البلدية) إلى طبقة النبلاء لسلوكه البطوليّ في سياق الوباء! الاستنتاج النهائي بحسب ميشيل جوري أنه لم يكن ثمّة شخصٌ واحد مسؤولاً؛ الجاني الحقيقي، كان الجشع. ■ **ترجمة: طارق فراج**

هوامش:

(1) روح القوانين: هو عمل دي مونتيسكيو المعروف الذي يطرح فيه فكرة تأثير المناخ على المجتمع، وفصل السُّلطات السياسيّة، والحاجة إلى الضوابط عن طريق سلطة تنفيذيّة قويّة. هناك موضوع رئيسيّ آخر في روح القوانين يتعلّق بالحرّيّة السياسيّة وأفضل وسيلة للحفاظ عليها. تمَّ نشر الكتاب في عام 1748 بواسطة «تشارلز دي سيكوندات، البارون دي مونتيسكيو».

(2) الرسائل الفارسية هو عمل أدبيّ، نُشر في عام 1721، من قِبَل تشارلز دي سيكوندات، البارون دي مونتيسكيو، يسردان من خلاله تجارب اثنين من النبلاء الفارسيين الخياليين هما «يزبك» و«ريكا» اللذان يقومان برحلة عبر الأراضي الفرنسيّة.

(3) فيليب الثاني، دوق أورليانز، كان عضواً في العائلة المالكة في فرنسا، وعمل كوصي على المملكة من 1715 إلى 1723. وُلِدَ في قصر والده في سانت كلاود.

(4) أرض الغال منطقة تاريخيّة في أوروبا الغربيّة خلال العصر الحديديّ، وكانت تسكنها القبائل الكلتية، والتي تشمل اليوم الحاضر فرنسا، لوكسمبورغ، بلجيكا، معظم سويسرا، وأجزاء من شمال إيطاليا، وهولندا، وألمانيا، وخاصة الضفة الغربية لنهر الراين. وفقاً لشهادة يوليوس قيصر، فقد تمَّ تقسيم بلاد الغال إلى ثلاثة أجزاء: الغال الكلتية، بلجيكا وأكويتانيا التي استوطنت الأجزاء الشمالية من جبال البرانس الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا. خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، سقطت بلاد الغال تحت الحكم الروماني.

مصادر:

- https://mondediplo.com/2020/04/05marseilles.
- https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC6205573.
- https://www.wrecksite.eu/wreck.aspx?212298.
- http://rodama1789.blogspot.com/2015/01/marseilles-1720-arrival-of-plague-ship.html.

مالك بن نبي

مَنْ يدفع عجلة الإنقاذ؟

لا يختلف اثنان حول أصالة فكر مالك بن نبي، وغزارة إنتاجه في مجالات عِدّة اجتماعيّة، واقتصاديّة، وسياسيّة، ودينيّة، هذا ما جعل الكثير من المُعجبين بأفكاره يسعون جاهدين إلى تصنيفه ضمن خانة تتوافق وأطروحاتهم، وانتماءاتهم الفكريّة. فمنهم مَنْ نعته بالمفكّر المسلم، والمصلح الاجتماعيّ، ومنظّر النهضة، وما شابه ذلك. فلا نشكّ في كون مالك بن نبي، ومن خلال إنتاجاته، أتاح لقُرّائه هذا التصنيف، غير أنّ السائد في اعتقاد المُثقّفين ممّن عاصروه، ومَنْ جاء من بعدهم أنّ صفة المفكّر المجتهد والمجدِّد هي الأليق به.

ممّا لا شك فيه أنّ الخطاب الاجتماعيّ، يغلب على مؤلَّفات ابن نبي، وهذا طبيعيٌّ لأن الرّجل عالم اجتماع، وأحد الأقطاب الّذين سخَّروا جلّ جهدهم، لفهم أسباب تخلّف المجتمعات عن النّهضة بمفهومها الواسع، وبشكل خاص مجتمعات العالم الإسلاميّ، الّذي اتصف بما سمّاها القابلية للاستعمار «la colonisabilité». لقد شخَّص ابن نبي داء الأمم، وأسباب وهنها، واستسلامها لمظاهر اليأس والإحباط وتنبأ في سبعينيات القرن الماضي، إلى ما ستؤول إليه مجتمعات العالم الإسلاميّ الحديث. وهذا نتيجة اطلاعه الواسع على تاريخ الأمم السّابقة، وفهمه للدّعائم الّتي قامت عليها الحضارات العالميّة، ومسببات سقوطها. ولذلك كان لأفكار مالك بن نبي الحضور القوي في عصرنا الحالي، خاصّة بعد كثير من الأحداث المُؤلمة.

إنّ الخطاب الاجتماعيّ في مؤلَّفاته، متنوِّع تنوُّع أفكاره، هدف من خلالها إلى تفسير عوامل أدّت إلى خلق ظواهر اجتماعيّة عاش جزءاً منها في حياته، وتنبَّأ بوقوع أخرى في مستقبل لم يكن بعيداً. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان حريصاً على توضيح فكرة انعدام التّوجيه الجماليّ في المجتمعات العربيّة، وما يترتَّب عن ذلك من نتائج سلبية على شخصيّة الفرد بالدّرجة الأولى. فالعمران مثلاً إذا فقد جماله وأنشئ بطريقةٍ فوضويّة، لا يمكنه إلّا أن ينعكس بشكلٍ سلبي على سلوكيات ساكنيه. وقد لخّص هذه الفكرة في قوله: كلّما كان المجتمع مختلاً في نموّه ارتفعت قيمة الضريبة التي يدفعها الفرد. وتعدَّى ابن نبي من خلال ذلك إلى جعل الأخلاق مقترنة مع هذا التوجيه الجماليّ وإعطائها الأسبقية، فجعل هذا المنظور يختلف عن التصوُّر الأوروبيّ، مستشهداً بقصصٍ من التاريخ فيها عبرة كقصّة سيدنا إبراهيم، الفرد الأمّة.

ولا يقلّ الخطاب الثقافيّ أهمّيّة عن الاجتماعيّ في فكر ابن نبي، بسبب أنهما متلازمان. إنّ مشكلة الثقافة والأفكار في الدّول المتخلّفة من منظوره، تكمن في نظرة المجتمع إلى الأشياء، فعوض اهتمامه بالأفكار ومدى فعاليتها، ومساهمتها في الحركيّة والنمو، وهو ما يُميِّز العالم الغربيّ المُتقدِّم، يكتفي العربيّ بالكلام العام والمجرَّد.

ويُميَّز الخطاب السّياسيّ عند مالك بن نبي بشكلين مختلفين عن بعضهما البعض، ولكنهما متّصلان بصفةٍ تجعلهما متلازمين. فأوّلهما كان موجّهاً للاستعمار الّذي عاث في الجزائر فساداً قبل مرحلة الاستقلال، من خلال محاولاته طمس معالم الهويّة الوطنيّة الأمازيغيّة، والعربيّة، والإسلاميّة. أمّا الشّكل الأوّل فقد تمخَّض عن حالة الضبابية، الّتي كان الاستعمار سبباً رئيسياً في وجودها، وجعل أجيالاً بكاملها ترى الأفق مسدوداً. لقد كان مالك بن نبي جريئاً في خطابه التنويري الذي وجّهه إلى الشعب الجزائري، والشعوب المُستضعَفة عموماً في تلك الفترة. وقد عبَّر عن هذه الصّفة بقوله: «وطبيعي أنّه ككلّ نمو لابد له من تعب وقلق وألم، ذلك أنّه يقع في المجتمع، وفي الفرد نفسه أيضاً شيء من التطاحن، بين قوات سلبية تدعوه إلى السكون، وهي دعوة تجد في

طبيعة الإنسان عامّة قبولاً بسبب ميله الفطري إلى السهولة، وبين قوات إيجابية تدعوه إلى الكد والعمل، تحثه صعداً إلى الرقي الّذي هو رسالة الأمّة، وإلى الدّفاع عن كيان المجتمع، وبصورة عامّة إنّها تدعوه إلى القيام بالواجبات، وهكذا نرى أنّ الصعوبات هي أكبر مبشر بالحياة الاجتماعيّة الصحيحة».

قام خطاب ابن نبي السّياسيّ على الدّقة في تشخيص أساليب الاستعمار في استعباده الشعوب، واستغلاله ثروات البلدان المُستعمَرة. وكان فضحها أمام الرأي الوطنيّ المحلّي والعالميّ ضمن أولوياته، حتى تتبلور أفكار تحرّريّة لدى القادة الوطنيّين والعالميّين، كي لا يجانبوا المقاصد، والأهداف النّبيلة الّتي يكافحون من أجلها. أمّا فيما تعلّق ببناء دولة القانون بعد الاستقلال، وضمان الحرّيّات الفرديّة والجماعيّة، كحرّية التعبير، واختيار الشعب مَنْ يمثّله، فإن خطاب ابن نبي السّياسيّ كان واضحاً دالاً على وعي بالتّحدّيات، والمخاطر الّتي تنتظر المجتمع الجزائري. ولم يغفل مالك بن نبي الجانب الاقتصاديّ الذي يعدّ من ضمن الأسس الّتي تقوم عليها الدّول. ولهذا نجده يشرح نظريّته الاقتصاديّة في كتابه «المسلم في عالم الاقتصاد». وأنّ الشعوب المُستعمَرة، عاشت نوعاً من الصّدمة الاقتصاديّة، فكانت بين خيارين لا ثالث لهما، فإمّا أن تقبل بأفكار الاشتراكيّين، أو أنّها تهتدي إلى أيديولوجيّة «آدم سميث» واللّيبرالية، وكأنّه لا وجود لاختيار ثالث. إنّ الأجدر من منظوره استخلاص الدّروس والعبر من الأزمات، الّتي حلّت بتلك البلدان والبلدان التابعة لها (إندونيسيا..). واللافت للانتباه في خطاب ابن نبي الاقتصاديّ، نقده الشّديد بعض علماء الدّين في تعطيلهم تطوُّر الفكر الاقتصاديّ في العالم الإسلاميّ. فاعتراضهم الفقهي على بعض المسائل الاقتصاديّة، من منطلق الحرص على مبادئ الدّين الإسلاميّ، وإغفالهم لما هو محيط بالأمّة الإسلاميّة من مخاطر محدقة، يعدّ في رأيه أكبر بلية أصابت المجتمعات المتخلّفة، وتسبَّبت في ركود اقتصاد العالم الثالث. وهذا ما عبَّر عنه المُفكِّر في قوله: «فاليوم يجب سواء على الفقهاء أو على أصحاب الاختصاص تقدير مسؤولياتهم، وعلى أساس أنّ القضيّة المطروحة ليست قضيّة تحقيق استمرار الحياة الاقتصاديّة، بل هي قضية دفع العجلة من أجل إنقاذ السّفينة وأهلها، ولو تعطّلت من أجل ذلك بعض المصالح الفرديّة». ولقد شغلت (مالكاً) كغيره من مُفكّري عصره، وبخاصّة الذّين احتكوا بالثّقافات الغربيّة فكرة الإصلاح الدّينيّ في تناول قضايا العقل، والسلوك الدينيّ، وتاريخ الظاهرة الدينيّة، لكن دون التنازل عن كون الغيبيّ أسمى من الماديّ. وعلى أولوية النصّ القرآني في الفهم والتحليل.

يبقى مالك بن نبي من روّاد الإصلاح، قرع أبواباً معرفيّة مختلفة، سعياً منه إلى إضافة نَفَسٍ فكريٍّ جديد، من شأنه أن يحثَّ الشباب على مضاعفة الجهد، والقادة على تحمُّل المسؤوليّة لمُواكبة الحضارة الحقيقيّة، وليس المدنيّة الزائفة، ولصهر الجديد مع الثوابت، رفضاً للانغلاق ولكلّ تبعيّةٍ عمياء. ■ **حاج محمّد الحبيب**

المصادر:

- القضايا الكبرى، ترجمة عمر كامل مسقاوي، دار الفكر المُعاصِر بيروت ط3، 1991.
- مجتمع، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق سوريا ط 3، 1986.
- تأملات، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر المُعاصِر بيروت، ط1، 1989.
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر المُعاصِر بيروت ط3، 1986.
- مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر المُعاصِر بيروت، ط3، 1984.
- في مهب المعركة، ترجمة محمود محمد شاكر، دار الفكر المُعاصِر بيروت ط3، 1981.
- بين الرشاد والتّيه، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر المُعاصِر بيروت ط1، 1978.
- المسلم في عالم الاقتصاد، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر المُعاصِر بيروت ط3، 1978.

لماذا؟

سؤال لاكتشاف العالم

يستكشف «فيليب هونمان Philippe Huneman»، في مؤلَّفه الموسوم بـ: «لماذا؟ سؤال لاكتشاف العالم - Pourquoi ? une question pour découvrir le monde» والصادر عام 2020 عن دار «Les grands mots,autrement»، الأسرار التي تتخفَّى خلف «لماذا»، وذلك من زاوية فلسفية، تحرضنا على زيادة التفكّر في هذا السؤال المحيِّر الذي يزداد تعقيداً كلّما تباينت الأجوبة المحتملة عنه، وكلّما تعلَّق الأمر بمُسَلَّمات، يتلاشى العقل أمام تبريرها والبرهنة عليها.

الإنسان بطبعه كائنٌ سؤول، ولكي يُوَفّق في فهم ما يُحيط به من أحداث ووقائع وأفعال وأشياء، فإنّه لا يتردَّد عند مجابهة مشكلات الحياة ومتطلَّبات الواقع في طرح سيل من الأسئلة تُستَهلّ بأدوات من قبيل: ماذا؟ أين؟ متى؟ كيف؟ كم؟ ولماذا؟ وعلى الرغم من أنّ كلّ أداة من هذه الأدوات تعمل على تقييد السؤال، وإيضاح مغزاه، وبيان المراد منه، فإنّ السؤال الذي يبدأ بالأداة: «لماذا» يبدو أكثر هذه الأسئلة غموضاً وغرابة، ومن أبرز الأسئلة الأساسية التي أُثيرت- وما تزال- في الحقل الفلسفي بالدرجة الأولى، على اعتبار أننا نطرح هذا السؤال في كلّ يوم مئات المرَّات. كما يحتلّ هذا السؤال مكانة محورية في شتى مجالات العلم والمعرفة: من الاكتشافات العلمية والشؤون القضائية، مروراً بالأسئلة التاريخية والتساؤلات الميتافيزيقية، ووصولاً إلى عوالم التكنولوجيات الحديثة، وهو بذلك يلاحق ممارساتنا العملية، ويزيد من هواجسنا ومن بواعث قلقنا الوجودي.

ولكي يقرّب الباحث من القارئ عمق الإشكال الناجم عن طرح السؤال «لماذا»، يقدِّم أمثلة متنوعة لأسئلة تحتل فيها «لماذا» جميعاً موقع الصدارة، لكنها تختلف في طبيعة الأجوبة التي يستدعيها كلّ سؤال على حدة: لماذا يتعاقب الليل والنهار؟ لماذا نتنفس؟ لماذا تظهر علامات العُبوس على المشتغلين بهذه المؤسَّسة؟ لماذا أحبَّ روميو جولييت؟ لماذا خسر نابليون في معركة واترلو؟ لماذا أنا هو أنا؟... تنفتح الأسئلة السابقة على مجموعة متنوّعة من الأجوبة تصل حدّ التباين، وتبدو بسيطة في شكلها إلى درجة أنّها تمكّن مضمونها من حجب التوقعات الممكنة في صياغة الأجوبة حتى ليصاب المرء بالدوار، وهو يبحث- في تجدّد مستمر وعلى نحو أعمق- عن جواب مبرَّر لسؤال من قبيل: لماذا أنا هو أنا؟.. لا يتعلَّق الأمر إذن- بالضرورة- بالسؤال نفسه، فنحن بإزاء أنواع متعدِّدة من «لماذا»، وهنا لا يتوانى هونمان عن طرح الأسئلة الآتية: هل هناك مرجع مشترك لهذا التعدد الذي يحيل عليه السؤال «لماذا»؟ وهل يتعلَّق الأمر باشتراك لفظي خادع؟ وهل هناك أساس مشترك يثوي خلف هذه الأسئلة؟

للدخول في معترك هذه الأسئلة، يتبنّى هونمان تجديد مفاهيم العقلانية الكلاسيكية التي أسس لها كلٌّ من ديكارت، وسبينوزا، وليبنيز، وإلى عهد قريب: ديفيد لويس، ليقترح إمكانية اعتماد مفهوم شمولي خاص بمبادئ المنطق والعقل: فليس من العبث أن نتصوّر بأن تكون الأجوبة المبرَّرة مترابطة فيما بينها، وأن تكون كلُّ التفسيرات قابلة لأن تتقاطع طالما أنّ تسلسل الأسباب والآثار المترتبة عنها، والبراهين ونتائجها، يمكن أن يكون من النوع نفسه. ومع ذلك، يستنكر هونمان ميْلنا إلى أن يتجاوز سؤال «لماذا» حدود المعقول. فمن عجيب المفارقات أنّ بحثنا الدائم عن المعنى لا يقتنع بتعدد الأسباب فقط، لكنه يدفعنا إلى تصوّر إمكانية التوصل إلى عدد من التفسيرات الشمولية التي قد تكون غير منطقية من حيث إنّها منافية للعقل. وبعبارة أخرى فإنّ «لماذا» سؤال يحفز على استكناه الأسباب، واستدعاء العلل، واستحضار العوامل الكامنة وراء الرغبة الملحة في معرفة الجواب واستشراف التوقعات، حيث تندفع الذات نحو السؤال وتظلّ تترقب جواباً/أو أجوبة منطقية معقولة من شأنها أن تحقق رضاها. فهل بالإمكان أن نأمل في التخفيف من عدم الرضا كلّما استعصى الجواب وفُقدت الأسباب؟ يقرّ الكاتب بأنّ العلم والفلسفة بما عرفاه من تطوّر وتقدّم، يظلان عاجزيْن إلى حد كبير عن تقديم أجوبة شافية ومقنعة، تحدّد أركان العلاقة السببية القائمة بين جميع الأشياء، وتروي نهم فضولنا إلى الأسئلة التي لا تفتأ تتجدد وتتأبّى على التفسير.

يستشهد الباحث بمثال آخر للأسئلة المستفزة التي تمثّل «لماذا» مركز دائرتها: فعندما تتهاوى شجرة معيَّنة وتسقط على الأرض من تلقاء نفسها، فنحن نتساءل: لماذا سقطت الشجرة؟ وبطبيعة الحال هنالك- فيما يبدو- العديد من الأجوبة المحتملة: قد يكون السوس هو الذي نخرها، فلم تكن تحتاج- في الواقع- إلّا لِهَبَّة ريح خفيفة لإسقاطها. وربَّما كان يكفي أن ننتظر نهاية عمليات الحفر التي تتكفّل بإنجازها الطفيليات...كلّ هذه الأجوبة، وأخرى غيرها، ممكنة. لكن لماذا سقطت الشجرة في تلك اللحظة بالذات؟

للاقتراب أكثر من الجواب المُقنع والمُرضي الذي يتيح تقديم تفسير منطقي ومقبول يرى الباحث أنّ بإمكاننا أن نتتبع سلسلة الأسباب الكامنة وراء سقوط الشجرة، وأن نقوم بجرد دقيق للظروف والملابسات المحيطة مثل: الجفاف، والرياح، والتجويف الداخلي للشجرة...)، ومع أنّه قد يطول التفسير ويضيع التعليل بين التفاصيل اللانهائية والمُمِلّة، فأنّ التفسير مُتاحٌ بالنهاية، لكنّ الكاتب يظلّ في حالة من الحيرة والتردد اللذيْن يدفعانه إلى التساؤل: لماذا أحسّ بالإحباط مع هذا الانطباع الذي يجعل سؤالي «لماذا» لم يتلقَّ على وجه الحقيقة أيَّ جواب؟ يلتمس هونمان الجواب في الآتي: بدون شك، لا يوجد أيُّ سبب من شأنه أن يُبَرّر هذا السؤال المُحَدَّد، أو بالأحرى: لا وجود لأي مبرّر بإمكانه أن يروي غُلّتي تجاه السؤال «لماذا». ربَّما هناك العديد من «لماذا» أو لعلّ هناك أشياء من دون «لماذا»؛ أشياء تُوقعنا في حيرة من أمرنا وتُشعرنا بالإحباط وخيبة الأمل، خصوصاً عندما تصطدم «لماذا» بجدار أمر اعتباطي أو حقيقة بديهية أو جواب لا يمكن تقديمه. وبهذا الصدد نتقاطع بشكل صريح أو ضمني مع الشاعر الألماني سيليشيوس Sile-sius (1624 - 1677) الذي عبّر عن ذلك بقوله: «الوردة هي الوردة، دونما سبب، إنّها تُزهر لأنّها تُزهر»!

«لماذا»؟ هو- أيضاً- السؤال الذي يجري على ألسنة جميع الأطفال، فيُرهق الآباء بعمقه واتساعه ودقته. فمنذ سن مبكرة (ما بين 3 - 4 سنوات) تنشط قدرات الأطفال على تعلّم الكلام، فلا يتردَّدون في طرح السؤال: «لماذا»؟. صحيح أنّهم يراكمون مع توالي السنوات عدداً من المعارف المُفيدة حول العالم، ولكنهم حينما يطرحون هذا النوع من الأسئلة فإنّهم يتعلَّمون- أيضاً- كيف يشتغل السؤال: «لماذا؟». فعندما تتساءل فتاة في الخامسة من عمرها: «لماذا اليوم هو يوم الأحد؟» فإنّها تتعلَّم مع مرور الزمن أننا لا نطرح عادة مثل هذا النوع من الأسئلة، كما أنّها تتعلَّم- أيضاً- من خلال أسئلة مشابهة أنّ عدداً من الأجوبة التي تُقدَّمُ لها لا تمتلك في حقيقتها سوى تفسيرات مُؤقتة. وهو ما يؤكِّد المقولة المشهورة: «الأجوبة عمياء، وحدها الأسئلة ترى». مهما تعمقنا في كنه الإشكالات التي يطرحها السؤال: «لماذا؟»، على النحو الذي يؤدِّي إلى فهم أفضل. وكيفما كانت محاولاتنا في إيقاظ أسراره النائمة، فإنّه يظلّ سؤالاً زاخراً بممكنات كثيرة، تُضاعف من تلويناتها لا نهائيةُ الأجوبة المحتملة والتفسيرات الممكنة. إذ من الصعب التوصل إلى صياغة جواب نهائي ومحدَّد عنه. وسواء وَجَّهْتَ السؤال إلى نفسك أو إلى غيرك فلن يكون بمقدورك أن تُجيب عن سؤال لم يستطع أحد إلى الآن الإجابة عنه! فهل يتعلَّق الأمر بمسْألة حظ أو قدَر؟ يخلص فيليب هونمان، في هذا الكتاب الذي بذل فيه كلّ ما في وسعه لتحليل الاستخدامات المتنوّعة لـ«لماذا»، إلى أنّ هذا السؤال يُقيم عدداً من الروابط الغريبة القائمة بين ما يجهله الأطفال وما يعلَمُه الكبار وفكرة القَدَر. ■ **فيصل أبو الطُّفَيْل**

دولة قطر

وزارة الثقافة والرياضة

Doha Magazine

aldoha_magazine

@aldoha_magazine

6055461820007

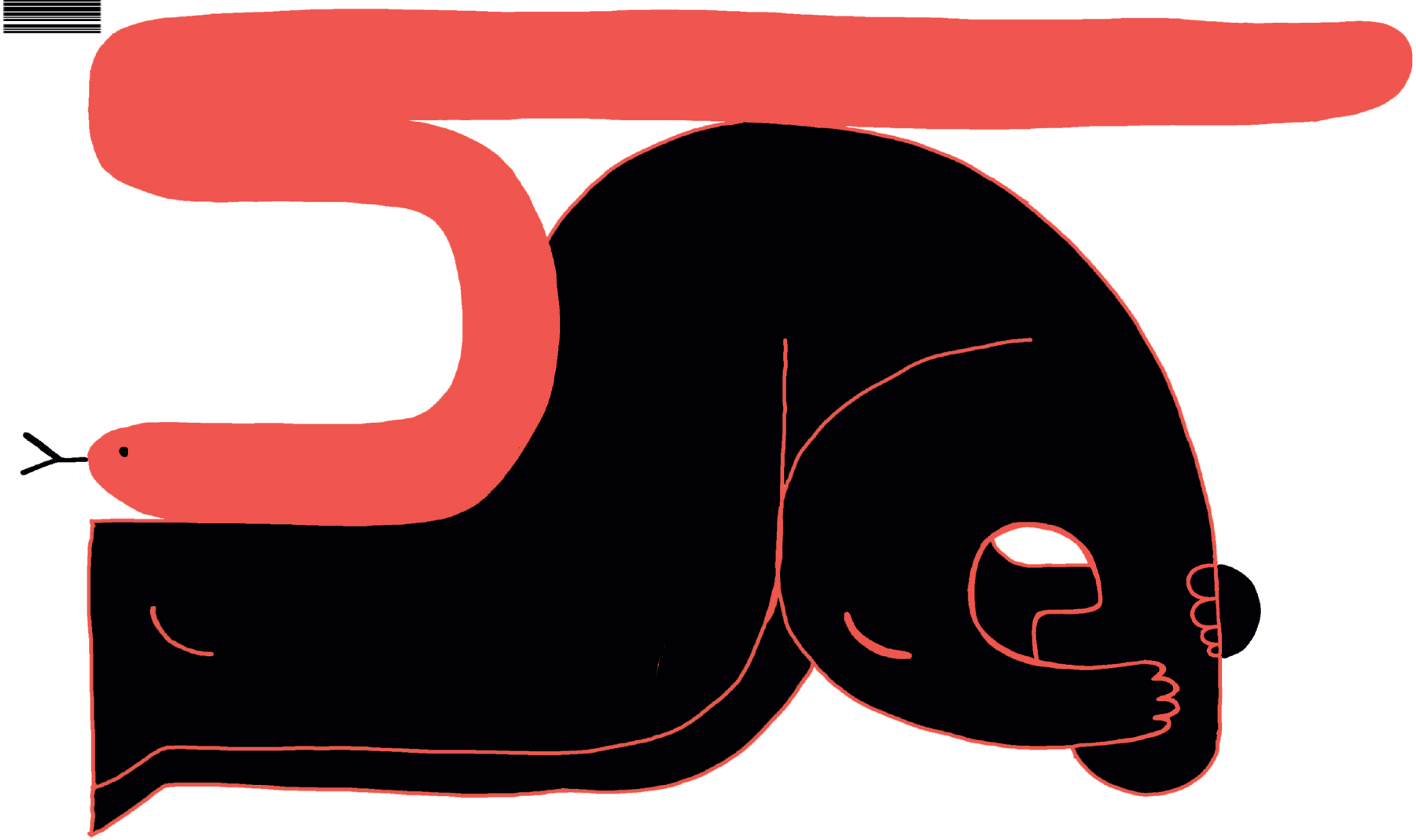

Jess Rodrigues (Espagne)